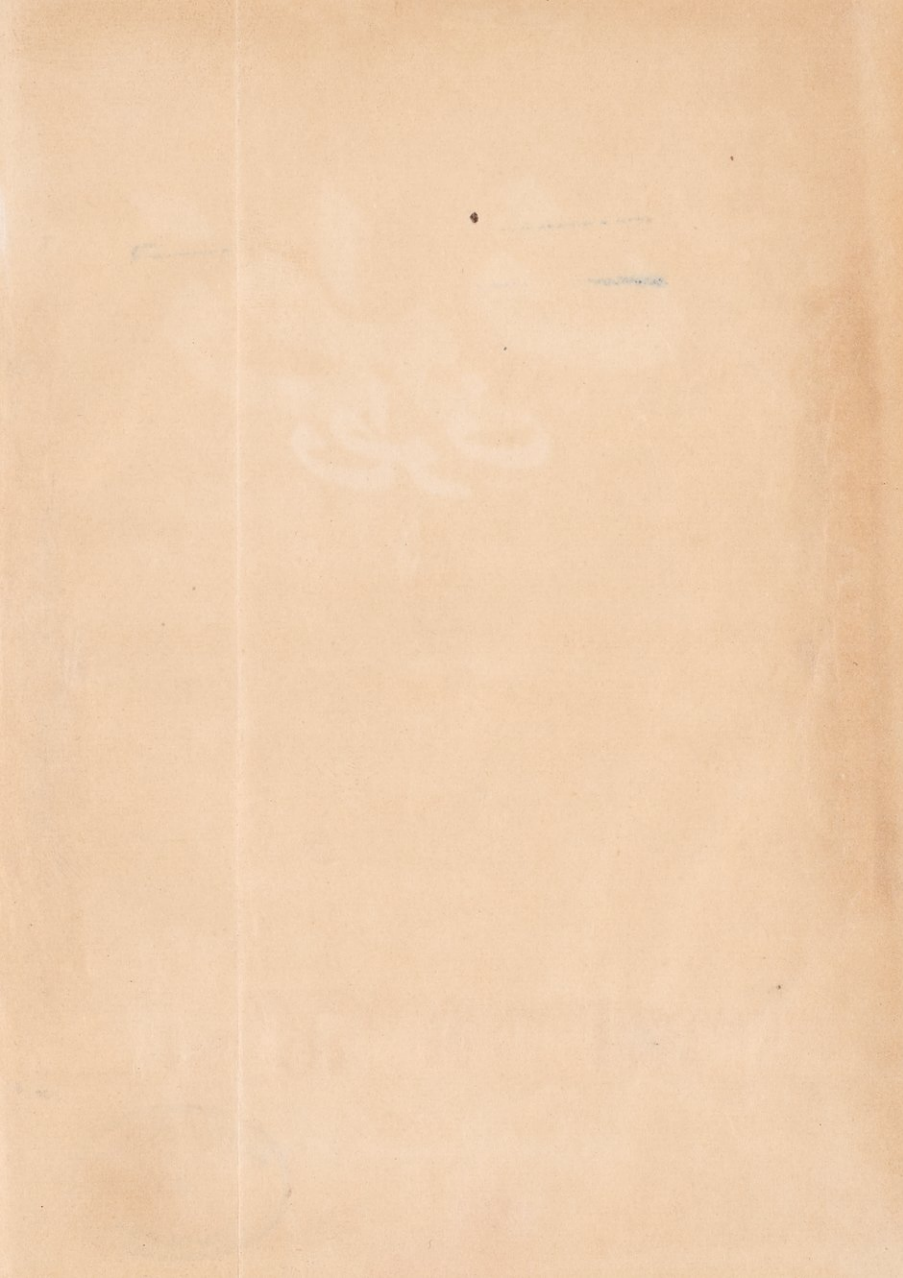


892.74
B622.9A
V. 1-2



—





قطوف

عبدالغفران بشاري

392 74
392 74

قطوف

١

دار الكاتب المصري

عبد الغفران البشري

892.74

B622qA

V.1-2

طُوف

مؤلفه

١

مقدمة لطف حسين

68588

دار الكاتب المصري

cat. July 1949
679

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

فہم — رس

صفحة

ط	مقدمة
١	أيام في الريف
٧	أعظم يوم في تاريخ العالم
١٧	في الهجرة - بين الحق والقوة
٢٣	خواطر تلهمها ذكرى الهجرة
٣١	يسر الاسلام
٣٧	في الحروب - بماذا كان ينتصر الاسلام
٤٥	كتاب مفتوح من عمر المختار إلى المارشال جرزاني
٥٣	كتاب مفتوح من جرزاني إلى القائد السيد عمر المختار
٦١	رمضان
٦٧	سعد الرجل
٧٣	غدوة وروحة
٧٩	بين الحرب والسلام
٨٥	كيف نتقى أهوال الحرب
٩٣	هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

٩٩	إصلاح
١٠٧	في الإصلاح أيضا
١١٧	في الطفولة المشردة
١٢٣	في الاجراءات
١٢٩	خاطر في الصيف - بين الصيف والحر
١٤٥	كيف نمشي في الطرق
١٥٣	الانتقام اللذيذ
١٥٩	بين الصفارة والريف
١٦٥	الأفندي
١٧١	في الضمير العام
١٧٧	فن الاعلان
١٨٣	التأمين على الموت
١٩١	شركة تنشيف الريق

مقدمة

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ،
فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخرأ أخاها ، وتذوب أنفسهم
حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهي بهم إلى اليأس ، كما
كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخرأ ، وكما صورت
الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً في النفوس وأشدّه وقعاً في
القلوب حين قالت :

يذكرني طلوع الشمس صخرأ وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبيكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول
وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه في تلك
الساعات التي كانوا يلقونه فيها ، في ساعات العمل وجه النهار ،
وفي ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفي تلك الساعات الحلوة من
أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين
يرسلون أنفسهم على سجيتهما ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ،

وتخوض في كل فن من فنون القول ، وتجول في كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً برّاً ، وأخاً وفياً ، وصديقاً حميماً . وكان من أجل هذا كله محبباً إلى النفوس ، أثيراً في القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعاً .

والشمس تشرق وتغرب في كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلي عنه في كل يوم أيضاً ، وفي اختلاف الليل والنهار وفي تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يحلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّي الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضاً . ولكنني أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الأيام والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام ، واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزّي عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التي امتازت بخنة الروح وعدوبة النفس ورقة الشمائل ، والتي ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب في طبعه وفي جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتنن به أشد الافتتان ، وأصبح لا يستطيع له نسياناً ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف .

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها ،

وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التي أثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أخلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس . وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكاتب النيل عبد العزيز البشري ، وطبيب النيل علي إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشمائل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادين متحابين ، لا يفترقون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئاً . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعاً ، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعاً فيميزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجاء لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما تذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساماً على ثغر الحياة في مصر مهما يكن حظ الحياة في مصر من العبوس والخرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيتئون ، ولكنهم لم يسيتئوا عمداً للإساءة قط ، ولم يسيتئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس في أول

أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .
 وكلهم نفع الناس في حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن
 ينفع الانسان . وكلهم وجد في نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما
 جنى الناس عليه ولا بما جرعه من فنون الألم وضروب الشقاء .
 كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا ،
 ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت
 نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم اليها سبيلا ، ولم يلق الناس
 منهم إلا خيرا .

كان حافظ يتمتع الناس ويحيي نفوسهم بشعره الرائع . وكان على
 إبراهيم ينفع الناس ويحيي نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع
 وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوئ
 ألبابهم ، ويملك عليهم أمرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن
 آلامها بمحضه دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرقى بهم من
 عالم إلى عالم وينقلهم من حياة إلى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان
 يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا
 منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقي بعضهم بعضا
 تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب
 بما يقرءون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل
 الفكاهة ، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز في مجلسهم كله
 حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان، فيذكرونه

مصبحين ويذكرونه محبين ، لا ينسونه ولا يتعزون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بمحضه ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرتة الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فإن أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما استمتعوا به عجولين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجولين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطبقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتباً ممتازا ، وبأن علي إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقرؤا ذلك في أنفسهم ، وسجلوه في قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به علي إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتباً مجيداً كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد علي وفاة علي إبراهيم والناس يؤمنون له بالتفوق في الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائماً لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموقى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالاً به وقرباً منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطربة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحياناً ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يعتمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيعتمدون تذكرك حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيعتمدون تذكرك على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدري أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيماً . وآية ذلك أنك تقرأ الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة

والنعم كل النعم ، وترثي للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التي لا تحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذي ركب في طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لي بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تسكفت ولا تزيت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإني لأراني مع عبد العزيز في تلك الغرفة التي كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها في ربيع من ربوع خان الخليلي ، وكنا نلتقي فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهمنا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فأنسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقي كيذا . وأقمنا نحن على هذا الجد نمفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإني لأراني مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق في هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز

وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذلك .
ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة
من العجين ودون أن يلقي كيذا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل
الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الامعان في طريق واحدة . فطرد
على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعا . فكنت
تراه مصبعا في هذا الحى من أحياء القاهرة قى الأزهر أو قريبا منه ،
فاذا صليت الظهر رأيته في حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار
الكتب أو قريبا منها في قهوة من قهوات باب الخلق . فاذا صليت
العصر رأيته في حى آخر من أحياء القاهرة في قهوة من هذه
القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها في حى الأزبكية . فاذا
صليت العشاء الآخرة رأيته في غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه
عند آل عبد الرازق في عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة
والجاه ، وقد تلقاه في قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء
صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن
تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا
الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة
الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز
النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى
عبد العزيز في ذلك الوقت في « بار اللواء » أثناء الأصيل ،
وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير
الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار

أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عطاء العدلين .
ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون ،
فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس
العدلين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب
بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن
الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .
وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوي ، فكان يشارك في علوم
الأزهر طائعا أو كارها . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد
سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهرين في نظام واحد وكان يشارك
في أدب القدماء وفي أدب الحديث ، وكان يلم بالأدب الأجنبي إلماما
قصيرا من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها
أطرافا ويتندر بها في حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة
« الأغاني » ، ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة ،
وآثر في حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين المليء على التضخيم
والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروى حين تسمع إليه
متحدثا بلغة الجاحظ وأبي الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد
انزلت بين هذا الكلام العربي الرصين المتين من حيث لا تدري
أنت ولا يدري هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادي ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن
نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع
الغريب النادر الذي كنا نجدده حين نتحدث إليه ونستمع له ،

وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، ف نجد في ذلك سزايا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلى أحد أصدقائي ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع في كتاب ، نشر بعضها في المجلات وأذيع بعضها في « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيتها كلها لتجمع في سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى ألح على صديقي في أن يصل الأسباب بيني وبين هذه القطوف ، فيتاح لي ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصي ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاءً بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعاية لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصي إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصي قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفي . ثم تطبع هذه القطوف وترسل إلى في فرنسا ، فأخلو إليها في هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك في أني لم أخطيء حين وثقت برأي عبد العزيز في قطوفه ؛ فهي الأدب كل الأدب ، وهي الفن كل الفن ، وهي الكلام الذي يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهي على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها في الأدب المعاصر . فهي فصل مستقل من تاريخنا الأدبي يصور لونا من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر

من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .
فبعد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفاً على حياتنا المصرية ،
وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل
القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة
وسرائرها ، وأشدّهم تمثلاً لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت
دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلمه
حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى
عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يجب أن يصور المعاصرين
ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرأة »
ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدي الناس .
فاقرأ « قطوفه » هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة
صافية صادقة أدق الصدق ، لا تعكس صورة فرد من الأفراد ،
وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ،
أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية
فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة
هذه « القطوف » فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة
مصرية ذهب أكثرها وبقي أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة
لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ
وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها وبما سيختلف عليها من الأطوار .
وكنتم أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما
الذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك

فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله . وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتربيته فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهياً للأدب العربى من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجا^{الحيات}ف فى العصر القديم : « وما أراه يفعل » . ولكن قدرة الله وسعت كل شئ ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسبح الله على عبد العزيز رحمة ونعمة وثوابا .

أيام في الريف

لقد طال عهدنا بالريف حتى كاد ينكرنا وحتى كدنا ننكره .
ولست أزعم أنني ولدت في الريف ، أو أنني نشأت فيه . على أنني
كنت أكثر من انتباهه والعيش فيه كلما تهياً لى انتباهه والعيش
فيه . ولكن الدهر الماكر قد قطع السبب إليه ، فحرمنى غشيانه
سنين عددا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإذا نحن قلنا الريف ، قلنا الطبيعة ، أو أدنى الأشياء إلى الطبيعة
والطبيعة ، مهما يكن لون حياتنا ، هى مصدرنا ، وهى اللاصقة بخلقنا ،
وإذا رددنا ساعة إلى نفوسنا ، لم نجد غير الطبيعة بين أيدينا وعن
الايمان والشمائل جميعاً . ولقد يبعد بنا طول العيش فى المدن ، ولقد
يمعن بنا فى شتى السبل ، حتى ننسى الطبيعة أونكاد ننساها ، ويرجح
الظن بأنه قد انحسم بيننا وبينها كل سبب ، وانقطعت جميع وشائج
الرحم ، ولا تزال منها على هذا ، ولا تزال منا على ذاك ، إلى أن
نغشى الريف ، فاذا السبب موصول ، وإذا الرحم ما برحت
واشجة ، وإذا العطف يعتلج فى الصدور ، وإذا الحنان يتفرق
فى النفوس ، وإذا لهوات القلوب تتفتح ، فلو أمكن لها لحست هذه
الطبيعة حسواً .

وهل كان عجباً أن يحس المرء أبلغ الغبطة والأنس ، إذا آب إلى أمه الحنانة الرءوم بعد طول النوى ، مهما يكن قد ضرب في الأرضين ، وتقلب في شتى الأقطار ، وعاش أصناف الخلق ، وتوسم مختلف الوجوه ، وهفا قلبه إلى من هفا من الناس ؟

اللهم إن عيش الطبيعة هو الموصول بفطرتنا ، واللاصق بطباعنا لأننا ، كما قلت ، عنها صدرنا . فإذا أحال المقام في المدن أساليب عيشنا ، ولون في فنون حياتنا ، وأوال لنا صوراً من صور ، وأبدل مناهج متعنا بمناهج آخر فان شيئاً من هذا لم يقطع ما بيننا وبين الطبيعة ، ولم يخرجنا منها أو ينزعها منا ، وإنما يشغلنا عنها . فإذا نحن طالعناها لم يزل شأننا على الحالم إذا استيقظ ، والغريب إذا آب واستقر به القرار بين الأهل والصحاب !

وكذلك كنت من الطبيعة حين هبطت الريف ، وامتد بصرى في الآفاق ، وأحاط بي الزرع والماء . وما كدت أسلخ بضع ساعات حتى استشعرت أنساً كأننى كنت في وحشة . ووجدت من الألف ما يجد الآئب من الغربة . وما لى لأجد هذا وأستشعر هذا ، وقد رجعت إلى أصلى ونزعت إلى طبعى ، وخلعت عن نفسى كل كلفة ، وامتلختها من كل ما غرست من تصنع استكرهت عليه مناهج تلك الحياة . وما أجدر الطبيعة بأن تقهر الصنعة وإن طال بها الزمان ! هذه سماء كبيرة بعيدة الآثار ، وهذه أرض مبسوسة تشقها الأنهر والترع ، وتنعطف فيها الجعافر والخليجان ؛ وقد لبست حلتها الخضراء فأصبحت نهياً للعيون من حسن وجمال .

ولقد أحسن ، كدأبه ، كل الاحسان المغفور له الملك فؤاد الأول
إذ تقدم بتغيير لون العلم المصرى من الحمرة إلى الخضرة ، فجانس
بين شعار هذا الوطن وبين حليته وبهجة منظره ، ومعين ثروته ومادة
حياته من العهد القديم !

نعم هذا الفلاح جاهد في حرث الأرض وفلحها ، ولا زال كدأبه
معه ، ولا زالت كدأبها معه من الزمان القديم : كما غذاها
بالسماد ، ورواها بالماء ، أمدته بالخير ، ووصلته بالنعماء .

ولعل أول صناعة عالجها الإنسان في هذه الحياة هي استنبات
الأرض واستخراج ما تجود به من ألوان الثمرات . وستظل ، على التحقيق
هذه الصناعة قائمة إلى غاية الزمان .

عاش الفلاح للأرض ، وعاشت الأرض للفلاح ، وعاشت كلاهما
للخلق أجمعين .

هذا عيش الريف في النهار ، فاذا جن عليه الليل نامت الطبيعة
ونام معها الإنسان والحيوان ، فلا تسمع فيها حساً إلا ما تسمع من نباح
كلب أو عواء ذئب ، أو نقيق ضفدع ؛ ولقد تسمع في بعض الليل عزيف
بندقية يطلقها بعض عسس القرية ، أو حراس البيادر (الأجران) ،
أو الزروع إذا أدركت الثمار . فاذا كانت الليالى قمراء ، تجاوزت
الكروان بالتنعيم والتغريد ، وأطالت الأنفاس بالشدو والترديد .
وناهيك بليالى القمر في الريف ، هذا وجهه قد تغرد في الأفق
جميعه ، تفرد ملك لا يشركه أحد في الحكم والسلطان . على أنه

مفيض على الأرض ما أعطاه الله من حسن وبهاء ؛ وهذه منحة المتصلة من اللجين المذاب ، وقد ديعت بخضره النبات ، فخرج من اجتماعهما لون هو سحر في السحر وفتنة في الفتنة . منظر ، وإن كان يوحى بالشعر ، لا يتعلق بوصفه الشعر . يضيء النفس ويملاء الصدر ألين الفرح وأرقه ، ويحرك عواطف حلوة لذيدة هادئة ، دونها ماترى في أمتع الأحلام .

يحرك في صدرك ألواناً من العواطف تشعرك بأنك بت أسعد الناس . عواطف ، وإن كانت جديدة لا عهد لك بها من قبل ، سرعان ما يعتريك الشعور من قرارة نفسك ، بأن هذا هو الشيء الذى طالما حاولت الاستشراق له ، فتحول بينك وبينه ظلمة النفس واختلال أداة الحس ، بما جشمتها من كلفة فى وسائل الحياة .

فاذا كانت لىالى السرار ، فالأفق كله كتلة واحدة من الفحم الحالك السواد . هيات أن ينفذ فيه النظر ، ولو أبى فتر من الافتار :

« ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . » (١) صدق الله العظيم .

هذا حديث موجز عن الطبيعة ماثلة فى ريف مصر . أما الحديث عن الفلاح المصرى فى هذه الأيام ، فما يردع ويهول : فقر لا يعد له فقر ، وبؤس لا يلحقه بؤس . مال غائب ، ومطالب لا تبرح

حاضرة . ومن أين للمسكين بالمال يوافق به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب ؟

هذه غلات أرضه مكدسة بين يديه ، لا يجد لها في أسواق الأرض منصرفاً ولا مفيضاً . لقد سجنتمها الحرب ، وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاك الأرض ومستأجريها ، كبارهم وصغارهم في ذاك بمنزله سواء . فكيف بالأكرة والمتكسبين بكد الأبدان ؟

أما أولاد الفلاحين ، فشيوخ وأشباح بالية ، تغدو وتروح في أسمال بالية ، تكشف من الأبدان أكثر مما تستر ، وتبدى من اللحوم ، أستغفر الله ، بل من العظام والجلود ، أعظم مما تحجب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وكيف كانت الحال ، فانك قل أن ترى الفلاح مع كل ذلك ، متسخطاً أو مهتاج النفس . بل إنك لتراه راضياً برغم حزنه الشديد ! ولعل مرد هذا الرضا إلى أن آماله كلها مجموعة في أرضه .

وأرضه لم تخنه ولم تخلف له موعداً . ولقد أقبلت عليه من فنون الغلات بما تقبل به كل عام . فاذا كان بؤس من أثر حصار أو كساد عام ، فذلك ما لا شأن لأرضه به على كل حال . نسأل الله تعالى اللطف بالعباد ، فهو القادر على أن يجعل لنا من هذا الضيق مخرجاً ، ويبدلنا من هذه الشدة فرحاً : « فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » ولن يغلب عسر يسرين كما روى عن الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

بقى ما يظن أن يتأذى به المهاجرون في الريف من منكر الأصوات
 ووالله لقد رضيعنا أن نسمع ، عامة الليل والنهار ، نباح السكالب ،
 وعواء الذئب ، ونعيب الغراب ، وطين الذباب ، وما شئت من
 نقيق ونهيق ، وثغاء ومواء ، وفحيح وخوار (١) ، على أن تعفى آذاننا
 من . . . صفارة الانذار !

(١) النقيق : صوت الضفدع ، النهيق للحمار ، الثغاء للشاة ، المواء للهرة ،
 والفحيح للأفعى ، الخوار للعجل .

أعظم يوم في تاريخ العالم

لا شك عندي في أن أعظم يوم في تاريخ العالم على الإطلاق ، هو اليوم الذي هاجر فيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة . فاذا كنت في حاجة إلى دليل ، فسيطالعك بعد قليل . يرى المستعرض لتاريخ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث ، طوعاً لتطور الانسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفوّاً للحياة المفكرة المدبرة التي تطلب السمو ، وتنشد السعادة في ظل الأمن والنظام .

الطور الأول : ففي الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورة على الدعوة إلى الايمان بالله ورسوله ، والأمر بأبهمات الفضائل ، والنهي عن كبريات الرذائل ، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غاية الرّوعة في الفتك والعصف والتشكيل . فلقد أهلك الله قوم نوح ، بعد إذ عصّوه وتحذوا دعوته ، بآء غراقهم أجمعين .

قال تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفارّ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَقَالَ اارْكَبُوا
 فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ حَمِيدٌ بِهَا وَتُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .
 وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَتَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ اارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ .
 قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ . قَالَ لَا عَاصِمَ
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ
 فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ . » (١)

ومن هؤلاء المخالفين من أهلكوا بالريح العاصفة .

قال تعالى : « وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ ،
 سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
 صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَمَنْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . » (٢)

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .
 إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ
 كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعَرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي . » (٣)

وأما ثمود فأهلكوا بالصواعق والزلازل .

قال تعالى : « فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . » (٤)

(١) سورة هود . — (٢) الحاقة . — (٣) القمر . — (٤) الأعراف .

وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصبيحة^١ فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها . » (١)

وقال تعالى : « وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة^٢ وهم ينظرون . » (٢)

أما قوم لوط فانظروا ماذا أخذوا به من العقاب الشديد .

قال تعالى : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة^٣ من سجيل منضود . مسومة^٤ عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد . » (٣)

وقال تعالى : « فأخذتهم الصبيحة^٥ مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة^٦ من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . » (٤)

ونكتفي بهذا القدر اليسير في الاستشهاد بما كان يؤخذ به العصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتسكيل والتدمير . وقبل أن نتحول إلى الحديث في الطور الثاني نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار ، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهي سابقتها على الضبط والتحديد ، ولا أن

(١) سورة هود . — (٢) الذاريات . — (٣) هود . — (٤) الحجر .

التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة ، بل إن المراحل ليتداخل بعضها في بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا أو بالزيادة من هذا ، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد ، وهكذا . وكذلك يكون التطور في كل شيء في هذا العالم .

الطور الثاني : أما الطور الثاني فمن أظهر مظاهر الترفق بعض الشيء في النذر ، والتخفيف في فنون العقوبات وسعة الدعوة وتبسط التشريع ، سواء في العبادات أو في المعاملات بين الناس . وفي هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرّد المعجزات . أما الترفق في النذر والتخفيف في ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول السكم أو الكيف أو يتناولهما جميعاً .

قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . »

إلى قوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . » (١)

وقال تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعونُ مجنوده فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم . وأضلَّ فرعونُ قومه وما هدى . » (١)

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجذب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمامة والخسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن اتبع بني إسرائيل من جنده فللعصمة الفارين من كيدهم وبطشهم ، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال . على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جد قليل . وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفك الساحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام .

قال تعالى : « ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله ،

وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . « (١)

الطور الثالث : وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الخوارق التي تجري على أيدي الرسل ، يتحدون بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ما جاءوا به إنما هو من عند الله . وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ونير على طبائع الخلق !

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام في تجردها من الأحداث التي مرَّ بك بعض وصفها ، فلا عصف ولا خسف ، ولا رياح عاصفة ، ولا زلازل مدممة ، ولا شئ من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الرّوع على القلوب . فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات . والثاني أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفت من غير شك أن هذه المعجزة هي « القرآن » . وكذلك جعلت الدعوة الالهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموها على الأحقاب .

إذاً لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج وإذاً

لقد تجاوز الانسان طور القصر وبلغ الرشد أو أضحى على شرف البلوغ .

لقد أضحى الانسان حقيقاً بأن يرفع عن نفسه الحجر ، وتطلق له حرية التصرف في استنانه مناهج الحياة . إذ قد تهباً له لو فكر وتدبر ، أن يعرف ماينفعه وما يضره ، وما يسيئه في حفاية ومايسره ، وأن يميز بين مايسعده وما يشقيه ، وما يعزه وما يرديه . فاذا اختلط عليه الأمر أو نزعت به العادة إلى الهوى ، نسيه ذهنه ، وحرك فكره ، وضربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كل مصال .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (١)

« أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . » (٢)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . » (٣)

وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد في القرآن الحكيم .

هذه دعوة محمد ، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها وطريقاً إليها .

هي الدعوة التي تسعى بالإنسانية إلى غاية كمالها من طريق إيقاظ العقل ، والفسح في حرية الفكر ، والتي تسعى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل والتجرد من الرذائل . فيكظم الشهوة ، والعفة والرحمة ، والايثار ، تستطيع هذه المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدعة والسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » ولقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا ، أهله وعشيرته من قريش فكذبوه وشاقوه وآذوه وأسرفوا في الكيد له والعنت عليه . وكيف له باستعانتهم على بث دعوته ، ونشر رسالته التي أرسل بها للعالمين ، إذ هم أشد من كفر بها وصد عنها ، وبغض فيها ونفر منها ؟

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره . فلقد أسلم أهل يثرب وآمنوا بالله ورسوله ، وأعدوا أنفسهم للذيادة عن دينه مهما جشمهم الأمر من التضحية في سبيل الله بالأموال والأنفس والأولاد . هذا شعب قوى بعدده ، قوى ببسالته ، قوى بإيمانه . يدعو الرسول ليتسلم زمامه ، ويتولى قياده ، ويثبت من الإسلام دعامة ، ويرفع أعلامه ، ويبسط في الأرض حكمه وأحكامه . وكذلك يهاجر محمد في سر من معشره العاتين إلى المدينة حيث يعز الله الدين ، ويدل الشرك ، ويفتح الله لنبيه الفتح المبين ، وينصره النصر العزيز .

وتعلو كلمة الاسلام في العالم ويسود حكمه أقطار الأرض ثم لا يمضي أكثر من قرن ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل وإطلاق حرية الفكر أزهى حضارة عرفها التاريخ تجود في ظلها القرائح بأجدى العلوم وأندى الفنون ، مما لا تزال آثاره ، ولو على أيدي غير أهله ، ثابتة على وجه الزمان !

أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنت بأن يوم الهجرة هو أعظم يوم في التاريخ .

في الهجرة

بين الحق والقوة

قصة ، وهي أضخم قصص الحياة جميعاً ، لأنها تروى أضخم أحداث التاريخ جميعاً . على أنها قصة لم يلفقها الخيال ، ولم يبتكر لها الأبطال ، ولم يخترع لها الوقائع إختراعاً ، ولم يبتدع لها النتائج ابتداءً ، ومع هذا فهي أجمل ما روى أصحاب القصص وأبدع ، وأضخم ما حاك خيال الروائيين وأروع . هي قصة إذا لم تكن من نسج الخيال ، فان الحقيقة فيها قد سمت على مخلق الخيال ! هي شئ لولا أنه وقع ، لما صدق أحد أنه يقع ، ولولا أنه كان ، لما ارتاب أحد في أنه لا يمكن أن يكون . ولقد جرت حوادث هذه القصة في صدر القرن السابع ليلاد المسيح عليه السلام . وأما موضوعها فالصراع بين الحق والقوة ، وأما مكانها فمكة فبيثرب ثم مكة . وأما بطلها فمحمد بن عبد الله . وأما أشخاصها فصحبته من ناحية ، وقبائل قريش من ناحية أخرى .

هي قصة طويلة جداً ، فقد استهلكت حوادثها العنيفة الرائعة نيفاً وعشرين سنة . وهي مبسوبة مفصلة في كتب التاريخ وفي كتب السير . وما كنت لأطمع ، بالضرورة ، في أن أتى عليها في

مثل هذا المقال . على أن في تلخيص الملخصين لها ، مادعت
المناسبات ، الغنى والكفاية .

على أنني اليوم متعمد بعض مواقفها التي أرى فيها أشد مواطن
العبرة ، وخاصة ما يومئ منها إلى ما يجوز بالعالم في هذه الأيام .
فلعل فيه قدوة لقوم يتفكرون .

إذاً فلا بد من قتله ، وعلى ذلك اجتمعوا ، لم ينشز منهم على
هذا الرأي أحد .

ثلاث عشرة سنة مضت وهو لا يفتأ يوالى إيذاءهم وإضرار
الغيظ في صدورهم بتقريعهم وتسفيه أحلامهم ، وتهاون دينهم ،
والزراية على آلتهم ، ودعوتهم ، في غير فتور ولا وناء ، إلى الالتفات
عما وجدوا عليه آباءهم وأبائهم ، مما استولى منهم على مجامع
الشعور ، وملك عليهم أقطار الفكر ، وجرى في الأعراق مجرى الدم ،
إذ هم قوم غلاظ ، شداد الطبع ، تعميهم الأفقة والحفاظ فلا يهتدون
بين يديهما طريقاً !

فلما رأوا أن عمه وكافله قد حذب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه
لهم ، مشى رجال من أشرافهم إليه فقالوا : يا فلان إن ابن أخيك
قد سب آلتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن
تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه .

ثم إنهم مشوا إليه مرة أخرى فقالوا له : يا فلان إن لك سناً
وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ،
وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،

وعيب آهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

فلما قالوا له هذه المقالة ، بعث إلى ابن أخيه فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

فظن هو أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته . (١)

نعم ، لقد طالما آذوه ، بعد ذلك ، وأسرفوا في الأذى ، وكادوه وأمعنوا في السكيد له ، وأذكوا عليه من يسبّه ، وتارة من يؤذيه في بدنه ، ومن يُلوّن للمستضعفين من صحبه العذاب تلويناً ، فما زاده كل ذلك إلا إمعاناً في الدعوة ، وإيغالا في التحدى ، وشدة الدأب على ما وجه إليهم ، وتقريعهم على انصرافهم عنه ، ونفورهم منه ، وعدم أخذهم به ، وعلى صدهم عن مسبيله .

لقد أعجزهم أمره حقاً ، ولم يغن شيء من ذلك كله في كف دعوته والحد من سعيه ، فكيف الحيلة فيه ، وكيف السبيل إليه ؟

إذاً لم يبق بدٌّ من قتله والخلاص منه ، على أن قتله ليس بالأمر

اليسير ، فلرجل ، وإن قام بدعوته فرداً ، أهل^ه وعشيرة ؛ وهؤلاء
الأهل والعشيرة هم فى الجبهة من الأمة لجلالة موضعهم ، وشرف
أحسابهم ، وضخامة ماضيهم ، إلى ما لهم من عز ومنعة ، وما فيهم من
بأس وقوة . وإذا كانت كثرتهم الكثيرة لم تستجب لدعوته ، ولم
تصنع لدينه ، فإن لهم حفاظاً ، وفيهم عصبية تتعالى بهم عن أن يُقتل
رجل منهم ، مهما يكن سبب قتله ويكن بأس قاتله ، وهم قيام
ينظرون . فهم ، ولا ريب ، آخذون بشأره لا يقتل قاتله وحده ، بل
كل من يقع بين أيديهم من أهله ومعشره الأقربين والأبعدين . وقد
يتعصب لهذا القبيل قوم ، ويتعصب لهذا القبيل قوم ، فتكون
الفتنة لا يحمد لها ضرام ، أو تأتى على اليابسة والخضراء !

فلتشارك جميع عشائر الشعب إذاً فى قتله واحتمال وثره ، فلا
يقوى معشره ، مهما يكن لهم من العزة والبأس ، على أن يقاتلوا
الشعب كله ، وكذلك أخرج كل قبيل لقتل البطل ، فتى من أقوى
فتيانه ، وأشدهم بأساً ، وتواعدوا باب داره إذا كان السحر .

ويحيئه الخبر بما ائتمر القوم . ولكن من أين جاءه ؟ هذا
ما لا يعلم به أحد !

ثم يخرج من داره وهم وقوف ، ويسرع إلى التوارى فى دار صاحبه
فيفوتهم دركه ، ولو قد أرخى زمام إرادته لشجاعته لثبت لهم وقاتلهم ،
فقتل منهم ، على الأقل ، قبل أن يقتل ، فلقد كان أشجع الناس ؛ ومن
كان هذا شأنه لا يهاب الموت ، ولا يخشى من أى ناحية أصابه .
ولكنه يعلم أن له فى هذه الحياة مهماً لا يقوم به أحد من العالمين .

وتمت بهجرته إلى البلد الذي سبقت كثرة أهله إلى اعتناق ما دعا إليه ، والذي يعلم أنهم معزوه وناصروه ، ومؤيدو دعوته ، مهما يحشمهم من التضحية بالأنفس والأموال .

ولم يمض أكثر من عشر سنين حتى يرى البطل على رأس جيش لجب لا يدرك الطرف آخره ، في طريقه إلى البلد الذي خرج منه ذلك المخرج الرهيب !

وإذا لقوم لا يقاتلون ، ولا يجمعون نية على النضج عن الوطن ، ولا الذيادة عن الحريم ؛ بل إنهم ليسلمون ، ويسألون صفحاً كريماً من مالك كريم . فسرعان ما يسجح ويعفو ، ويهيب بالمغلوبين المقضى عليهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ولقد عرفت أن هذا البطل الأعظم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وبجل وعظم ، وشرف وكرم ، وأما عدوه المقاتل لدعوته ، الصارف بكل حوله من دينه ، فشعب قريش كله . وأنت خير مما لهذا الشعب من قوة وبأس ، ومن أنفة وحفاظ .

وبعد ، فإن من ينظر إلى تلك البداية ، ثم يثب ذهنه إلى هذه النهاية ، ليكاد تتفرق نفسه من الحيرة ، وتطير من العجب كل مطير !

ولكنه الصبر ! الصبر الذي يغذوه الايمان بالحق . وما دام الايمان بالحق قوياً ، فقد هان لقاء أشد الشدائد ، ومعاناة أهول الأهوال . ولا تزال هذه الشدائد ، في قتالها للحق والصبر ، تضعف

وتتضاءل ، على الزمن ، رويداً رويداً ، حتى تلقى السلاح ، وتسلم أمرها لعدوها وأنفها في الرغام !

ومما يسترعى الانتباه أن الكتاب العزيز لم يحض على خلة قدر ما حض على الصبر ، فلقد دارت هذه الكلمة ومشتقاتها فيه أكثر من مائة مرة ، وهذه سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير مصداق لما يدعو إليه القرآن العظيم .

وبعد ، فليت هؤلاء الذين غصب عليهم حقهم ، والذين خرجوا أو أخرجوا ظلماً من ديارهم ، ليتهم يبنون أنفسهم على الصبر ، ويروضونها على شدة الاحتمال في سبيل الحق . ففي حديث الهجرة أصدق الخبر ، وفيه أحسن العظات وأبلغ العبر .

خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

ليس ما يضرب فيه القلم اليوم بحثاً قامت في الذهن حدوده ،
وبانت طرقه ، واتضحت معالمه ، واستشرفت مقدماته لنتائجه . إن
هي إلا خواطر تجول بها ذكرى الهجرة الشريفة . هي خواطر تتوالى
على النفس كما تتوالى مناظر الخيالة (السينما) في جريدة الأخبار مثلاً .
على أنها قد تجيء بحكم تداعى المعانى ، وبحكم أضعف المناسبات ، وأدنى
الملايسات

وبعد ، فليس من شك في أن مما يستدعى العجب ، بل مما يكاد
يستهلك كل العجب ، شأن أولئك العرب إلى آخر جاهليتهم ، وما صاروا
إليه بعد إسلامهم بيسير من الزمان :

لقد كانوا ، في جملتهم ، قوماً أميين جهالاً ، لم تفتح عيونهم على
علم ، ولم يتذوقوا فناً ، اللهم إلا فن الكلام ، وهو غير مغن في قيام
الأم إذا أغنى إلا قليلاً .

لقد كانوا جاهليين حقاً لا يرتبطهم بأى لون من ألوان الحضارة
أى سبب ، ولا تنفذ عقولهم إلى شئ مما وراء تلك البوادي التي
يسكنون ، حتى لو اضطربوا فيما يجاورهم من البلاد التي أخذت بحظ
من الحضارة ، بحكم التجارة ونحوها ، رجعوا إلى قومهم وكأنهم

ما كان على ما كان — إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعيًا
فالدليل — ما جاء على أصله لا يسأل عن علته — لا اجتهاد مع
النص — الاعتراف حجة قاصرة — اليد دليل الملك — المعروف عرفاً
كالمشروط شرطاً — ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . . الخ
ولعمري لم يكن كل هذا الابداع والابتكار أثراً لدرس مدرس
أو تقليب للفكر في كتاب مكتوب ، إن هو كما قلنا من فضل سلامة
الفطر ، وحدة الذكاء ، وصحة التفكير .

وإذا كان علماء العرب قد نقلوا بعد ذلك علم انطلق إلى لغتهم
عن اليونانية ، فانهم سرعان ما أجالوا في قضاياها هذه الأذهان الحادة
وأراقوا عليها تلك الأفكار الخصبة ، فابتكروا ما ابتكروا ، واستحدثوا
ما شاء الله أن يستحدثوا ، طلباً لوفاء هذا العلم على الغاية من الهداية
إلى صحة التفكير ، وابتغاء النتائج الحق من صحاح المقدمات .

ثم لم يكفهم هذا ، فلقد نقلوا عن اليونانية أيضاً علم « آداب
البحث والمناظرة » وغاية هذا العلم تنظيم وسائل المجادلة بين
المتجادلين ، والتزام كل من الطرفين حدة في الخصام ، وبيان الطرق
للإدلاء بحجته ، أو إدحاض حجة خصمه . وكذلك تضحى المناظرة
محدية منتجة ، تظهر الحق على الباطل بقيام الحجة الواضحة غير
مضیعة بين سفسطة ومهاترة ، أو نقل لموضوع النزاع ، على أن العرب
كذلك قد طبعوه بطابعهم ، وأفاضوا عليه من سابغ تفكيرهم ، ووصلوه
بفنونهم ، وأجروا فيه الأمثلة والشواهد مما يعرض لما يعالجون من
العلوم .

أما وقد عرضنا للقضايا المسلمة ، وللمنطق ، ولآداب البحث والمناظرة ، فقد حق علينا أن نقف وقفة قصيرة لعلنا نرفه بها عن القارئ بعض الترفيه .

لا غرو على^١ إذا زعمت أن تسعين في المائة ، إن لم أقل تسعة وتسعين في المائة ، من المناقشات والمجادلات التي تدور بيننا ، نحن المصريين ، سواء أكانت باللسان في المجالس الخاصة ، أم بالقلم في الصحف السيارة ، لا يمكن أن تنتهى بالتسليم من أحد المتحاورين . ذلك بأننا ، حتى الكثير من متعلمينا ، قل أن يعنوا في جدلهم بترتيب المقدمات المنطقية الترتيب الذي يفضى بها ، في صحيح القياس إلى النتائج الصحيحة . ولقد يدفعنا الحفاظ للنفس ، والرغبة في الفلج والخصم إن تنكر القضايا المسلمة . أما نقل موضوع النزاع ، إذا سطت بنا حجة الخصم ، فهذا ما يقع عندنا بغير حساب !

ودعنا الآن من المجادلات العلمية أو الفنية ، وخذ بنا في ألوان الحوار التي تجرى كل ساعة بين الأصدقاء وغير الأصدقاء .

يقول لك فلان إن فلاناً صنع كيت وكيت مما يتعاضمك ويروعك لضخامته أو لتعذر أسبابه ، فاذا باديته ولو بالشك فيما يزعم ابتدرك بقوله : « وليه لأ ؟ » كأن الأصل أن تضاف إلى الناس الأفعال أو الأقوال ، وعلى المنكر أن يقيم هو الدليل على العكس ، أى العدم أو استحالة الوقوع ، ناسين أبسط القضايا وأوضحها « البيئة على من ادعى ! »

ويقول لك آخر إن فلاناً يرتكب كذا وكذا من المؤثمت

فاذا أنكرت منه هذا القول قال في غير ورع ظاناً أنه يقيم الحجة عليك : كيف وأنا أقارف معه تلك المؤثمات ؟ وقد فاتته أن الاعتراف حجة قاصرة على النفس ، فاذا أشرك الغير كان دعوى تحتاج إلى دليل !

ولقد تروى ، في بساطة ، ما انتهى إليك من خبر نشرته إحدى الصحف ، أو جعلت تردده المجالس من أن فلاناً اتهم في كذا ، فيبادرك رجل من شيعته طبعاً : حضرتك مبسوط من كده ؟ . . . وترى أن الخبر قد التبس على الغي بالأمنية ، اللهم إلا أن يكون فاسد الضمير فاجر النية ! . . .

ونما يضحك ويبكى نقل موضوعات النزاع ، إما فراراً من لزوم الحجة ، أو طلباً للكد والأذى ، أو جهلاً وشدة غباء .
وأذكر نموذجاً واحداً مما وقع لى في هذا الباب على جهة التمثيل أيضاً . ولم يكن ثمت موضع نزاع ، بل كان هناك سؤال استحال في غير موجب إلى نزاع : من بضعة أيام طلبت عيادة طبيب الأسنان ، ليخلع ضرساً ألح على ألمه ، وورم لى صدغى . . . وبيننا أنا في غرفة الانتظار ريثما ينتهى الطبب من علاج من تقدمنى ، إذا رجل حسن السميت ، أنيق البزة ، ويبدأ بالتحية ، فأردها بأحسن منها . . . وما يكاد يأخذ مجلسه حتى يطارح الحديث كعادتنا نحن المصريين إلى من نعرف ومن لا نعرف . فماددته الحديث على ما بى . في الأسباب العامة طبعاً . ومن حديثه أدركت أنه رجل مزخرف الثقافة مذوق اللسان ؛ ثم إذا هو يفاجئنى بهذا السؤال : حضرتك من أهل الريف ؟

فأجبتـه من فورى : لا يا سيدى ، فأنا مولود فى القاهرة ، وما زالت
موطنى إلى الآن . فرد على فى ثورة عنيفة : ليه هيه العيشة فى
الريف وحشه ؟

لقد ثار ثائرى ، ونهضت لتوى ، وخرجت مسرعاً إلى دارى ،
مؤثراً وجع الضرس وضرباته على هذا اللون من الحوار !
إذاً ، لقد كان على أن أخلق قبل أن أخلق ، وأن أولد قبل
أن أولد ؛ حتى إذا بلغت سن التمييز فى النشأة الأولى ، كان على
القدر ، أن يخبرنى الولادة فى الريف والحضر ، فأختار أول الأمرين ،
ثم أتبخر فى الأثير ، ثم أبعث فى الريف من جديد ! وإلا كنت امرأً
آثماً يستحق اللوم والتأنيب !

وبعد هذه الوقفة المريحة ، أو المتعبة المعنية ؛ نرجع سياقة الحديث
على اسم الله :

لقد اقترنت عناية السابقين فى الاسلام بعلوم الدين ، بعناية
غيرهم بعلوم اللسان ، من نحو وصرف وأدب وبيان . وذلك لأنها
الوسيلة إلى فهم لباب الدين .

وفى أعقاب هذا أو على الأدق فى أثنائه ، التفت مفكرو العرب
إلى المنطق ، على أنه مما ينظم الفكر وييسر الطرق لاستنباط الأحكام
الشرعية على الوجه الصحيح ، ثم اتجهوا كذلك إلى نقل قوانين
البحث والمناظرة على ما تقدم به الكلام .

لم يمنع اشتغال مفكرى العرب بهذا وهذا وذلك من أن يلتفتوا
إلى علوم الدنيا من رياضة وهندسة وطب وفلك وغيرها . فسرعان

ما جادوا وما برعوا ، وسرعان ما أجلوا ووسعوا ، وما ابتكروا وما
اخترعوا . . . ولم ينسلخ من الزمن غير يسير بالاضافة إلى أعمار
الأمم ، حتى صارت هذه العلوم إليهم وكادت تقطع صلتها بغيرهم ،
فأصبحوا هم المتحدثين فيها ، والمتحدثين عليها بين أمم الأرض جمعاء ،
وكذلك أنشأوا أجمل حضارة وأزكاها في هذا العالم !

فاذا تعاظمتك تلك النهضة في مثل ذلك الزمن ، فان مما يدفع
عنك العجب أنه قد لاقت تلك الفطرة العربية دين الفطرة . . .
دين صاحب الهجرة .

يسر الاسلام

لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام في هذا
المصدر اليسير من الزمن وبلوغه ما بلغ في غير عنف ولا مطاولة
يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه .

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ، ولا دوّن المؤرخون
في فتوح الاسلام وانتشاره السريع العجيب في قواصي الأقطار وأدانيها ،
وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان ، فذلك شئ قد
فاضت به الكتب ، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام ؛ وبحسبي
— فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن
أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها في هذا الزمن ما كان من العرب
بفضل الاسلام . هذا فتح ، وهذه سيادة ، وهذا تعمير وتثمين ،
وهذه علوم وفنون وصناعات ، وهذه حضارة لا تتعلق بأذيالها
أعلى حضارات التاريخ !

لعمري ما هذا كله ؟ وكيف كان ؟ وكيف تأتي بهذه السرعة
لدولة الاسلام ؟

اللهم إن أوثق يقيني أن مرجع هذا أجمعه إلى ما في هذا الدين
من يسر عظيم .

الدين يسر ، ونفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان !
سنقول : إن الاسلام ما ساد إلا لأنه حق ، وأقول لك : وهل
ثمّة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل ؟ ومتى احتاج الحق في
تجليته إلى عنف أو إلى جهد ؟ إن الباطل هو الذى يحتاج إلى هذا
وهذا ، وقل أن يثبت له معهما قرار !

وإذا قيل إن الاسلام دين الفطرة ، فمعنى هذا أنه دين اليسر ،
لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة . أما ما جاء
على جهة التكلف والتصنع فذلك الذى يقتضى كثيراً أو قليلاً من
الجهد والعناء .

الدين يسر ، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره . أرايت
أيسر من دعوته « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وأى شيء لعمري في هذه الجملة ينشز على الفهم ؛ بل أى شيء
فيها يتعثر فيه الذهن وتضييق عنه مساحة أدنى التفكير ؟

هذا اليسر في هذا الحق الذى ليس وراءه حق ، هو الذى سلك
أقطار الأرض بدعوة الاسلام ، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات
في غير علاج ولا استكراه ؟

هذه الدعوة اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف
والاضطراب : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (١) .
بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الاغراء والاستهواء .

وهذه تكاليف الاسلام ، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بازائها رخصة ؛ ولا كان في أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر ، وهل بعد ذلك اليسر كله يسر ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » ، وقال تعالى في كتابه الكريم : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (١) صدق الله العظيم .

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له باحتماله ، فهذه تكاليفه ، من استطاع القيام بها ، وإلا تخفف منها في حدود أحكام الشرع الكريم ، حتى تكفى طاقته ، ويتسع لها ذرعه ، ولا يتخرج بها وسعه ، مقبولا عذره ، مكفولا عند الله أجره .

ولعل من الخير أن أنبه في هذا المقام إلى شئ حقيق بالانتباه : ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات ، « فمن اضطرَّ غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه » (٢) فالتفريط في غير ضرورة ، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدى إثم من الآثام . ومن القواعد الأصولية المقررة ، إن الضرورة تقدر بقدرها ، ولا شك بعد هذا في أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير إنما هو ضرب من الاحتيال للهرب من تكاليف الدين وهيهات لا ينطلى على الله محال ! ومن يسر هذا الدين أنه لم يقم بينك وبين ربك أية واسطة .

(١) سورة الحج . — (٢) البقرة .

وليس من شك في أن ما تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلت بك القدم ، وقلبك الشيطان في المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبتك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (١) . ليس بك حاجة إلى من يمهّد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانئ لك استخراج العفو والمغفرة .

وبعد ، فإن من يسر هذا الدين شدة تسامحه ، ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب في عظمته . لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك في الدين لأنه يخالفك في الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يكره ، وتقر منه ما يحب ويؤثر ، فهو وأخوك المسلم في هذا بمنزلة سواء . ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية .

وقال تعالى في كتابه الكريم : « وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم وطعامُكم حلٌّ لهم » . (٢)

ولا ريب في أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار في نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفينهم في الدين ولا في الجنس ، ولم يحجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفائاتهم

والأخذ عنهم . ولم يكدر يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتردونها ويشيعون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، ويزيدون فيها ما فتق الرأي والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم في الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربي الذي ما برحت آياته مستورة على جبين الزمان .

أرجو أن تكون قد اطمأنتت بعد هذا ، إلى أن اليسر في الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب في عظمة الاسلام .

في الحروب

بماذا كان ينتصر الاسلام

ما وقع حدث من أحداث هذه الحرب ، وخاصة في ألبانيا التي أصبحت معتركا حامى الوطيس ، بين دولة صغيرة ، قليلة العدد ، قليلة العدد ، ضئيلة الموارد كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام ، قناعة باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة ، وما يعالجه أبنائها النشيطون من فنون الصناعات ، وما يرجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات ؛ لها من كل أولئك مقنع وليس لها فيما وراء أى مطمع ، فاذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تؤمن الحدود وتمنع الشغور ، ولو إلى حين . أما الطرف الثانى من هذا المعترك فدولة عظيمة ، قوية بعُددها ، قوية بعُددها ، قوية بصناعاتها وبتجاراتها ، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التي ضمنت أرضوها من الكمنوز المعدنية ما يغنى في كل شئ من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعز منها في هذا العالم حياة . ومع هذا فاننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة في كل شئ ، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة في كل شئ ، كما طلعت الشمس ضربة وتركها كما غربت الشمس ركلة ، وبين ذلك لا تفتأ في كل ساعة تجرعهما

من الصاب والعلقم ما يفري الحناجر ، ومن الغسلين ما يذيب الأحشاء .
وتلون لها من انهانات ما أجراها مثلاً للخرى على ألسن العالمين .
لعمري ما وقع حدث من هذه الأحداث إلا أذكرني سير العرب
السابقين وأحضرني شأنهم في فتوحهم ومغازيهم . فلم يكن هؤلاء
في الأكثر الأغلب أكثر من عددهم عدداً ، ولم يكونوا كذلك أقوى
منه عدداً ، ولم يفوقوه في تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب ، وتدبير
المكايد ، وإحكام خطط الحرب ، وتدبير وسائل الكر والفر ؛ بل
لقد كانوا أضعف وأهون شأنًا في كل أولئك جميعاً ! ومع هذا فانهم
ما صارعوا إلا صرعوا ولا قارعوا إلا قرعوا ، ولا شدوا إلا ظفروا ،
ولا حملوا إلا قهروا ، ولا بهموا إلا انتصروا ، ففتحت بين أيديهم
أبواب المعازل ، وسهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن ، وحشدت لهم
أضخم المغانم ، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم في يسر ،
يلفت عين الدهر . وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرنًا واحدًا حتى
دانت لهم مناكب الأرض ، وذلت نواحي البر والبحر . (١)

(١) كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفاً ،
إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتي ألف مقاتل ، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ ،
فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة ، في حين كان جيش الفرس لا يقل
عن مائة وعشرين ألفاً ، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش المسلمين
الغزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر ، بينما كان عدد
جند العدو لا ينقص عن مائة ألف ، ومما ينبغي ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم
تم في ثمانية أيام لا أكثر !

إذا لم يظفر العرب ، في حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتهيا لهم ما دوخوا من البلاد ، وما ملكوا من الأقطار ، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة في قواصي الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عددهم عدداً ، ولا أمضى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه في جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيهه ولا يصح معه القياس .

وبعد ، فلعمري ، ما مشى النصر بين أيديهم أنى قاتلوا في شرق الأرض وفي غربها ، بالغاً ما بلغ من الضالة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ - الإيمان

٢ - الرحمة

٣ - العدل

فالإيمان ييسر على النفس التضحية مهما جلت ، بل لقد يغرى بها ويدفع بها في المطلب الجسام .

ولا تنس أن من أثر الإيمان ببناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فإن إصابة الغرض الذي يدفع الجهاد إليه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه ، وتشد من منته ، فلا يعتريه خور ولا خذلان . وأنت خير بأن الصبر هو مفتاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العجب قد أخذ فيك بادي النظر ، من نظم الرحمة والعدل في أسباب الظفر في الحروب والتكيد بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف في كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على المقاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكن ، والمعدلة إذا حكم ، لما يظلم عن الاجتهاد في قتاله ، ويشيع فيمن وراءهم قلة الاستحسان لهم وثقل القادرين على القتال عن نجاتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم ، وينعموا في ظلال حكم ملائكة الرحمة والبرقة والعدل والإحسان .

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم . . .

والشواهد على هذا في حروب المسلمين مما لا يبلغه كذلك الإحصاء .

وبحسبنا أن نورد في هذا الباب مثليين يسيرين ، أولها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، قال في وصاة له لأسامة بن زيد قائد أحد جيوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التي وجههم إليها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (١) ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تتبعوا مولياً ، ولا تقفروا نخلاً ولا تحرقوه ،

(١) مثل بالقتل : نكل به ، كأن يفقأ عينيه ، أو يشق بطنه ، أو يقطع عضواً من أعضائه .

ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له . . . الخ »

أسمعت حديثاً في المرحمة بالعدو المقاتل والرقعة له أبلغ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا ينبغي بالحرب كيذا ولا شفاء ضغن ! إنما ينبغي بالحرب أعلى المثل : فاما دفع أذى ، وإما بسط حق والخير والفضيلة في هذا العالم .

قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : « وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » صدق الله العظيم (١) .

ولقد قال تعالى في كتابه العظيم : « إِن اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْزِّطُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . » (٢)

وكيف ظنك بدين يأمر بالاحسان حتى في القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين في النهي عنه ، واشتد في الوعيد عليه ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من مثل بحيوان فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وتلك كانت سنة الغزاة والفاثحين في صدر الاسلام .

وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الاسلام في عصر كان من السائغ المألوف فيه سوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، في غير جرم يقترف ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً وواجباً مفروضاً !

وأما المثل الثاني فأجلوه لك في حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهذان الحادثن معروفان شائعان ، وما كنت لآتي بهما لولا أنه قد اقتضى الامام بهما نظم المقال ، وأولها ما حكى من أن جبلة بن الأيهم ، وكان آخر مملوك بني غسان — أسلم وخرج إلى مكة ، فلما كان في بعض طوافه داس رجل من فزارة على طرف ردائه فخل أزراره ، فلطمه جبلة ، فاستدعى الرجل عليه عمر ، فدعابه وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يأمر المؤمنين ، أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الاسلام سوى بينكما !

وأما الحادث الثاني ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على عمر ، فقال : عائد بك يأمر المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عذت بمعاذ ! فقال : لقد ضرب ولد عمرو بن العاصي ولدى (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر) ، فأرسل في طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : يا عمرو ، بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

هذه الأمثلة على قلتها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الاسلام من الرحمة بالمقهور والبرقة له ، وإقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعي للانسان ، كائناً من كان .

أما الحرب في هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهي إن امتازت بشيء فأبرز ما في وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالى حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المساح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سعيّاً على الأم الشبيخة ، والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب ، لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فاذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير ، فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت .

فاذا جاءك أن الاسلام فتح كل هذا الفتوح ، ومملك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل هذا السلطان فى أقل من قرن واحد ، فان السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الايمان ، وإشاعة العدل بين الناس ، وإيثار البرقة والرحمة بالانسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء بأن الجيش
اليونانى الصغير الضئيل لا يفتر لحظة واحدة عن صفع الجيش
الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل إذ لا يكاد يرى
فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام ؛ إذا طالعتك
الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الايمان بحق
الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !

فاذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من
اجتياح للممالك وقبض على نواحي الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ،
وامتصاص لدمائها واتخاذها عبيداً فقل له : لا تعجل بالحكم ، فان
الله ليلى للظالم ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

كتاب مفتوح

من عمر المختار إلى الماريشال جرزاني

عزيزى الماريشال

أكتب إليك هذا وأنا حق واثق من أنك لم تنسى ، بل حق واثق من أننى ، وخاصة فى هذه الأيام ، أتمثل لك سواد الليل وبياض النهار . ومهما يكن من أمر ، فإن آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما ينسى الصديق عهد الصديق !

أتذكر ، يا عزيزى ، ذلك اليوم الذى جاءوك بى وأنا مقرن فى الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يلقونى فى الطائرة التى أسرت بأعدادها لهم لم تقم به طائرة من قبل . وسرعان ما حلقت بى ، تشق أجواز الجو طبقة بعد طبقة حتى كادت تصك وجه الشمس . ثم قذف بى من ذلك الحالق قذف النواة ، لا رحمة ولا إشفاق !

وإن أعجب لشيء ، وإن أفرح بشيء ، فبطيارتكم التى بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فما دون عشر دقائق !

ولئن عاب أهل الدنيا طياريتكم ، معشر الطليان ، بأنهم لا يحسنون إصابة الأهداف ، لقد اضطرب هذا الحكم عليهم بين الجهل والتجنى

فطياروكم أحسن الطيارين تسديداً إلى المرمى وإصابة للأهداف ،
مادامت القذيفة شيخاً في حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزى المارشال

لقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة
للضعيف ورحمة من ليس له بالكفاح يدان . وكذلك كان شأنكم ،
يا معشر قادة الجنود ، فانكم لا تؤذون الأسرى وتسرعون إلى مداواة
الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواء بسواء ، وتلقون
الجميع بالبشاشة ، وتعاملونهم بالأكرام . فما بالك قد صنعت بي أنا
الشيخ الفانى ، ذلك الذى لم يسمع بمثله أحد فى طول الزمان . هذا
الذى لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد .

لقد التمت لك وجه العذر ، يا عزيزى المارشال ، ولا تعجب
لأن ألتمس أنا العذر لك أنت ، فانى فى دار لا نحس فيها حقداً ،
ولا يجد الضغن إلى قلوبنا سبيلاً .

ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم : « ونزعنا ما فى صدورهم
من غلٍ . . . » (١) الآية .

وجه العذر ، فيما أرى ، أنكم ، معشر الطليان ، أو معشر
الفاشست ، على الأصح ، وقد جمعتم العزم على فتح أفريقيا ،

لتستنقذوها من الجهالة ، وتخرجوها إلى نور الحضارة ، رأيتم سلفاً أن تشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الانسان . وليس من شك ، بعد هذا ، في أن فعلتكم تيك إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواحي الأرض ، وبلغتم منيتكم في استعادة ملك الرومان !

ولعلك ، أيها الماريشال الشجاع جداً ، ساعة تقدمت باعدامى على تلك الصورة ، قدرت أننى لن أتعذب أكثر من دقيقة واحدة ، فأنى كنت أجهل مصيرى ، حتى إذا قذفوا بى فى الجو خفق قلبي خفقة أو اثنتين ثم استشعرت صدمة ، هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئاً ، ولم أحس شيئاً ، حتى رأيته فى الجنة ، بين الصديقين والشهداء . وحسن أولئك رفيقاً .

ولعل هذا مما كان داخلاً فى تقديرى أيضاً ، فأبت همته إلا أن تسدى إلى هذا الجميل أجزاءك الله عنى أعظم الجزاء !

هناك يا صديقى سؤال يضطرب فى صدرى ولا يجد له متنفساً من جواب : لقد كنت أعلم ، وأنا من أهل الدنيا ، وازددت يقيناً حين صرت إلى الآخرة ، أن السيد المسيح عليه السلام ، كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عن جنى ، والصفح عن أساء . ولقد كان عليه السلام ، أول رسول لم يؤيد بمعجزة من عصف أو خسف ، وإغراق أو دمدمة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة قاصفة ، وإنما كان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى

بإذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا في باب العطف على الانسان . فهل من الفضائل المسيحية التى تتشادق بها أنت ومعشرك ، والتى تزعمون أنكم ما شهرتم هذه الحرب على خصومكم إلا لتسوروها فى العالمين — هل من هذه الفضائل أن تمثّلوا بشيخ مثلى هذا التمثيل ، وتقتلوه بصورة لم تعهد فى تاريخ التذريح والتقتيل ؟

لا والله ! لقد برىء منكم المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراة والانجيل !

وبعد ، فاعلم ، يا هذا الرجل ، ولعلك الآن أنشأت تعلم ، أعلم أن الله تعالى يمهّل ولا يهمل ، وهو للظالمين بالمرصاد ، وإنه ليلى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

ولقد أملى لك وأمهلك . وما أمهلك ولا أملى لك ، إلا ليزيد لك فى العقاب ، ويضاعف لك العذاب ، ففسح لك فى الأمل ، وأدنى منك كرائم المنى ، وقطع ، فى نفسك ، جميع علائق الشك فى أن ستكون الغازى الفاتح الذى يرد لقومه ملك الرومان القديم ، فى غير مشقة ولا جليل عناء ، حتى خلت نفسك كذلك ، وتسלقت الزهو به ، وتقبلت الهناء عليه .

نعم ، لقد أذنت وأذن معشرك ، لا فى بلادكم وحدها ، بل فى جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة التى تسلكها بين البحرين ، وأن السودان من قسمكم ، كما أضحت الحبشة والصومال والأرتيريا

من حر ملككم ، لا ينازعكم على ذلك منازع ، ولا يستطيع أن
يدافعكم عن شيء منه مدافع . ولقد سكنتم إلى هذا واطمأنتم إليه ،
وخلتم أنكم قد فرغتم من الشغل به . ومالك تشغلون البال بما حصل
في أيديكم ، ومكنت لكم القوة الساطية منه تمكيناً ؟
أمهلك الله وقومك وأملى لكم ، حتى بلغت من حسن الظن بالأيام
هذا المدى .

أليس أعداؤكم الانجليز قد خشوا بأسكم فسبقوا إلى إخلاء وجه
الصومال لكم ، كما خلوا بينكم وبين السلوم وسيدى برانى ، فاحتلتموها
في غير جهد ولا قتال ؟
إذاً لقد تم الأمر لكم ، فأنتم ولا محالة بالغو قصارى مناكم في
يسير من الزمان ، حتى لقد واعد كثير من جندكم خطيباتهم قضاء
شهر العسل ، بعد أسابيع أو بعد أيام ، على ضفة النيل ، والنعيم
في واديه الجميل .

ثم ما فعل الله ، يا ماريشال ، بأمبراطورية الرومان ؟
هذا قرنك ويفل يضربك في كل نهار ضربة ، فلا يقنع بأن يسترجع
منك سيدى برانى والسلوم ، بل إنه ليغير على ملككم في لوبيا ، فتفتح
بلادها مدينة بعد مدينة ، وليتولى على حصونها واحداً بعد آخر . ويأسر
حامياتها التي حشدت فيلقاً بعد فيلق . ويغتم من المدافع والدبابات
والذخائر وسائر آلات الحرب وعتادها ، لو كنتم تعاقدتم من قبل ،
مع انجلترا على أن تورده مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت في هذه
الفترة عنه ، ولم تستطع ، على شدة حاجتها إلى المال ، الوصول إليه !

ولقد بلغ من خذلان الله لكم أن تظل طائراتكم ، وهى تعد بالآلاف ، جاثمة فى أفاحيصها (مطاراتها) التى تعد بالمئات ، فى انتظار الطائرات البريطانية التى تصبحها وتسميها كل يوم ، حتى إذا أصلتها ضرباً أو تمزيقاً ، وأوسعها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعان غزواً ، ولم تلاق عدواً !

أفتراك يا ماريشال ، قد تعهدت للانجليز بأن تعينهم على تمرين طياريههم فى إصابة الأهداف وتسديد المرمى ، فنثرت لهم الطيارات فى كل مطار ، ليتعلموا فيها الرماية فى كل ليل وفى كل نهار ؟ ألا خبرنى بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ؟ وهى لاتضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون ؟ وهى لم تقم بأكثر من تفتيح الأبواب للغازى المغير ! ولم أرصدت كل هاتيك الموبات الفواتك من آلات الحروب ؟ إذ هى لم تصنع أكثر من أن تعد نفسها غنيمة للعدو باردة برود الثلج !

ثم ماذا كنت تصنع أنت ، يا ماريشال ؟ لم يسمع أحد قط أنك قمت بهجمة ، أو تحركت لاتقاء صدمة ، أو أمددت فيلقاً رق حبله ، أو أنجدت جيشاً انهك حيله ! أتراك قد جئت إلى شمال أفريقيا لتتفرج فى هذه الحرب ، لاشأن لك بوضع خطة ، أو تدبير مكيدة ، أو سن منهج ، أو إصدار أمر ، أو المشورة ، ولو ساعة الضيق ، برأى ؟

صدقنى ، يا ماريشال ، فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً صدقنى إذا قلت لك إنك لو كنت ماريشالا فى رواية مسرحية وجرى فى

أحداثها بعض هذا الذى يجرى فى لوبيا ، لكان لك من الأثر ، فى عالم الحقيقة ، أكثر مما رأى العالم منك فى هذه الحرب ، إذ لم يكن أقل من أن يصدع الماريشال الممثل كرسياً ، أو يكسر طبقاً ، أو يمزق ، ولو بأسنانه ، ستاراً !

صدقنى ، يا ماريشال ، أنك لو كان فى موضعك هرّ لصارع أو حام لدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدى لنطح !
على أنك لم تصنع شيئاً من ذلك قط يا حضرة الماريشال الغازى
الناصح العظيم .

جرزىانى لقد قتلتنى مرة واحدة ، وها أنت ذا تذوق أمر ألوان
القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا ، يا سند إيطاليا ، ومقل آمالها فى ملك روما القديمة
لا تفتأ تبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا تفيق من لظمة إلا لتلقى
لظمة . ولا تجوز بفضيحة إلا لتستقبل فضيحة ، أرايت عذاباً أشد
من هذا العذاب ، وعقاباً على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إننى لم أكتب إليك هذا شفاء لحقد ، أو بذلاً لضغن ؛ فقد علمت
أننا ، معشر أهل الجنة ، لا نحقد ولا نضطغن ، ولكن بسطاً للظمة ،
وضرباً للعبرة . وفى الختام ، أرجو ، يا حضرة الماريشال ، أن تنوب عنى
فى إزجاء أخلص التهنئات إلى صديقك موسولينى قيصر الرومان العظيم !

جنة عدن فى ٢ من المحرم عام ١٣٦٠

كتاب مفتوح

من جرزباني إلى القائد السيد عمر المختار

سيدي المختار

السلام عليك ورحمة الله ، ولا شك أن هذا إخبار لا دعاء ،
فأنت ، من مثواك في الجنة ، في رحمة دونها كل رحمة ، وفي سلام
ليس يعدله سلام .

وإني أشكرك شكراً جليلاً على كتابك الذي فرضت لي فيه
ضميراً ؛ إذ ظننت أنني أتمثلك في مسائي وفي صباحي ، وفي غدوي
وفي رواحي ، بما أسلفت إليك ، وما أجمرت عليك . إذ الواقع أنك
لم ترد لي على خاطر ، ولم تسنح لي قط في بال ، اللهم
إلا ساعة فضضت كتابك ، وأزلقت عيني إلى توقيعك . في هذه
اللحظة ذكرتك لأول مرة ، وذكرت ما كان مني إليك .

على أني جد مشغول عن مثل هذا الذي كان مني لك ولغيرك
ممن تمكنا من نواصيهم ، وسلطتنا القوة عليهم . مشغول عن هذا
كله بالجزع على ما كان إلى الآن ، والهول والذعر مما يكون بعد
الآن .

ولقد تكشفت لنا ، نحن قادة الفاشست ، في ميادين الحرب ،

والسياسة جميعاً ، تلك الحقائق القاسية الأليمة بعد طول احتجاب .
ومن هذه الحقائق أننا لم نخلق لحرب ولا لقتال ، بل لقد عوضنا عن
هذا بما طبعنا عليه من الفن الجميل ، وما رزقنا من نصيب فيه
جليل ، فنحن أدق الناس إذ أحفرنا أو صورنا ، ونحن أجود
الخلق إذا غنينا أو عزفنا ، وأبرع العالمين إذا رقصنا أو قصفنا ،
وأمرهم وعدنا فأخلفنا ؛ وما لنا وراء ذلك بالحرب ولا بغير
الحرب يدان !

على أن الشيطان زين لنا الفتح والاستعمار ، ويسر لأنفسنا
الحرب في سبيلهما . وقد وفى ، بادىء الرأى ، بعهدده ، وبر بوعده ،
ففادنا أولاً إلى بلاد لا يزال أهلها يعيشون عيش الحيوان ، ولا يزال
كثير منهم يسكن الغابات كما يسكنها الحيوان ، ولا يأكلون إلا مما
يأكل هذا الحيوان . أما اللباس ، إن كان لابد من لباس ، فشقة
توارى السوءة ، وأما السلاح فسيوف أو حراب ، إن لم يستغن عنها
بالمخالب والأنياب !

وقد صبحنا هؤلاء بما عندنا من كل فاتك قاصف ، ومدمدم عاصف
وبكل ما يتطاير بالحجم ، ويرمى عزيفه بالصمم . فسرعان ما سلموا
واستكانوا ، وسرعان ما خضعوا ودانوا . وبعد لأي أطبقنا
على طرابلس ، ثم ما يليها من صحراء ليبيا ، حيث القوم أهل بادية ،
الشعير طعاسهم ، والخيام مشواهم ومنامهم . وأما مسعدهم من السلاح
فضبطي السيوف وأسنة الرماح . فاذا كان في أيدي بعضهم شئ من
البنادق القديمة ، فما لا غناء فيه ولا أضحت له قيمة . وأما مركبهم

إذا اضطربوا في صحاريهم ، فالابل المهزولة تحمل معهم متاعهم وزادهم ، وعدتهم وعتادهم . لقد أطبقنا على هؤلاء ثم على هؤلاء ، وصببنا عليهم من النار ما لا يثبت له الحديد المصفى (الفولاذ) فكيف بالانسان !

ثم رسمنا أهل هذه البلاد بكل متعطل في بلادنا ومن لا يجد فيها إلى القوت سبيلا ، وكما شام هؤلاء المرتزقون رفعة من الأرض تنطف ولو بالنزر من الماء ، وتخرج حتى الرقيق من النبات ، أجلوا أولئك المساكين عنها ودعوهم إلى بطن الصحراء !

ثم بعد سنين غير طوال ، أغرنا على معاهدتنا الحبشة وزميلتنا في عصبة الأمم . وسلطنا على أهلها كل ما أخرج العلم من الفاتكات المدرسات ، ولم نتأثم من أن ننضح على العدو الغاز السام ، وغاز الخردل ، إذ هم لا يعلمون من أمر ذلك شيئاً ، ولا يدرون من أسباب الوقاية منه والعلاج من أذاه كثيراً ، ولا قليلاً .

وكذلك أصبحت لنا إمبراطورية ، ولكنها ليست كل إمبراطورية الرومان !

وأخيراً فهذه جارة صغيرة ، تشرف علينا ونشرف عليها عبر البلطيق . ولقد آمنّاها من كل غارة ، وكفلنا لها السلامة من بغى أية جارة . حتى إذا سكنت واطمأنت بهذا العهد ، جعلنا نتربص بها الغفلة ، ونرتصد للغرة ، حتى إذا أخذ عينها الكرى ، أخذناها بجيوشنا وأساطيلنا وطياراتنا بياتاً ، فهبت مذعورة لا تدري أين المفر ، ولا كيف السبيل إلى النجاة ! ولعمري لم نرحم حتى

النفساء (١) ولم نشفق على وليدها الذى لم يفتح عينه على الدنيا
إلا منذ ليلة واحدة ونهار !

إذاً فنحن دولة عظيمة ، لا تقل عن أعظم دول الأرض فى البأس
والسلطان . فليت شعرى لماذا لا تنتضى السيف ، وتمضى ، على اسم
الامبراطورية الرومانية ، غازين فاتحين ، ذات الشمال وذات اليمين ؟
وترى ما الذى يعوزنا لنكون كذلك ؟ وهذه جيوشنا المدربة
على خير الأساليب العسكرية ، تعد بالملايين . وقد زودت بأ كفى
الأسلحة وأمضاها فى الحروب الحديثة . وهذه طياراتنا إن شئنا
حجبنا بها وجه الشمس عن العالم ، وهذه أساطيلنا تغطى ثبح البحار ،
غادية رائحة ، لا تخشى صولة ولا تهاب عادية ، حتى لقد أضحي البحر
المتوسط ، بفضلها ، بحيرة إيطالية ، لا يدافعنا عن سلطاننا فيها إنس
ولا جان !

ثم هذه حلل ماريشالات وجنرالات وأميرالات وكولونيات
الخ ، قد « فصلها » خياطونا المهرة « تفصيلاً » بديعاً . ومن العجيب
أنها حين أفرغت على قادتنا فى البر والبحر والهواء ، بدوا فيها وكأنهم
ليوث الغاب ، قد سلخوا الأعمار فى الصيال والضراب . وشقوا
الصفوف ، وتحذوا فى الجلى مواقع الحتوف . فأوقعوا بالعدو وهزموا ،
أو رضوا بالموت وما سلموا !

(١) يراد بالنفساء ملكة الباتيا التى فرت مع زوجها ووليدها وهى على
هذه الحال !

وهذه فرنسا فلنضربها الضربة القاصمة ، ولو من الخلف ، ولو في ساعة قدر عليها الانهيار ، فذلك في تحقيق الحلم الروماني لاميّزان له ولا عيار .

إذاً فهلم يا ماريشالات ، وهلم يا جنرالات ، وهلم يا أميرالات ، وهلم يا سائر الضباط ، وهلم يا رجالات الفاشست ، هبوا هباً للقتال ، وامضوا للكفاح والنضال .

ثم إذا فرنسا تسقط سقوط البقلة الذابلة ، وما جرد أصحابنا سيفاً ولا شرعوا رحماً . وإذا فلقد عقد لهم النصر على فرنسا العظيمة ، وحقت لهم المغام التي لا يبلغها حصر ، وكفلت لهم تونس والجزائر ، جزاء هذا النصر الباهر ! ولا تنس أن تونس والجزائر تقعان في رقعة الحلم الروماني العظيم !

وهذه اليونان على رمية حجر من مستعمرتنا الجديدة ألبانيا ، ولا شك أن اكتساحها بجيشنا الباسل ، وسلاحنا الفاتك القاتل ، وعدتنا المجدجلة ، وآلات حربنا المزلزلة ، لا يستهلك أكثر من أسبوع واحد من عمر الزمن . ولكي تقطع عليها سبيل العذر ، فلننذرهما السحر أنها إن لم تجبنا دهنناها عند الفجر !

أما باقي الحلم الروماني فقد عقد الأمل في تحقيقه بسيف داعيكم الماريشال جرزباني وعسكره الذي لم يتيها مثله عدة وعدداً لا للأسكندر الأكبر ، ولا لهنيبال ، ولا لبوناوبرت . إذاً فلنفتح مصر حالا ، وليسلك منها فوراً إلى السودان .

والملتقى مع دوق داوست فى حدود الحبشة بمشيئة الدوتشى
لا بمشيئة الله !

ثم ماذا بعد هذا ؟

لقد أبت هذه اليونان الصغيرة الضعيفة لا تفتأ تولينا نكبة بعد
نكبة ، ولا تألونا كل يوم مائة ضربة وضربة . وكأما لقطت الأرحام
فى بلادنا الأولاد ليستأسروا لجنودهم ، وكأما قامت مصانعنا هذه
السنين ذات العدد على صب المدافع الثقيلة والخفيفة ، وصنع
الدبابات والسيارات وسائر أسباب الحرب ، لتكون مغام لهم ، وهذه
ألبانيا تسلم لهم أمنع مافيها من حصون ومعقل ، كانت أقوى درع
لمن وراءها من الكتائب والجحافل !

أما أفريقيا ، وما أدراك ما أفريقيا ! أفريقيا ، واخيبتاه ، هى
مناط الحلم العظيم .

فأما شهاها ، فهذه لوبيا قد طارت ، وهذه بنى غازى قد طاحت ،
وهذا طريق النصر الذى عبدناه لاجتياح مصر ، لقد أضحى لنا طريق
الهزيمة والفرار ! وربما سلمت طرابلس قبل أن يصل إليك هذا
الكتاب . وكذلك يخرج عن أيدينا آخر معقل على شط بحر الروم ،
أو بحر الانجليز ، لا بحر الطليان على كل حال !

وأما ملكنا الكبير فى الأريتريا والحبشة والصومال ، فهذا
ويفل ، الجنرال بالكفاية ، لا بالبذلة العسكرية . هل جاء نبأ
النمر الجائع ، وقد تمكن من فريسة يحمل لها الشر ويضمهر الاضطعان ؟

هاهو ذا يقرر بطنها بمخلبه ، وينهش رأسها بأنيبه . وتارة يضغم كتفها حتى تلتقي أسنانه ، ويلعق عظمها حتى يدمى لسانه . وكذلك يمزق ويفل ملكننا كل هذا التمزيق ، أو شرا من هذا التمزيق !

أرأيت ، يا سيدى المختار ، أن الحلم الرومانى إنما كان حقاً ؟ على أننا نهب اليوم من نومتنا تيك أهول هبوب ! تقول لى فى كتابك : إنك لو كنت ماريشالا فى رواية تمثيلية ، لكسرت ، على الأقل ، طبقاً ، أو صدعت كرسيّاً ، أو قرضت بأسنانك ستاراً ! ألا فاعلم ، يا سيدى ، أن الله قد عقد لسانى فى هذه الحرب ، ورمى يدى بالشلل . وهيهات الفعل أو القول لأشل اليد معقود اللسان !

وأخيراً ، فاذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علمتنا ، نحن معشر الفاشست ، شيئاً فقد علمتنا شيئاً واحداً ، هو أن الحرب ليست جيوشاً ترم الأفق ، ولو زودت بجميع القواتك المهلكات ، من مدافع وبنادق ودبابات . ولا هى أساطيل تزحم نواصى البحار . ولا هى طيارات تسد جو السماء . إنما الحرب أولاً وأخيراً هى . . . رجال !

ولقد أذكرنى هذا ماروى عن ذلك الشجاع العربى — يعنى عمرو بن معديكرب — وقد تهادن ابن الخطاب سيفه ، يعنى الصمصامة ، وقد طارت لها شهرة عظيمة . فقال له أمير المؤمنين : لقد رأيت الصمصامة ولكنك لم تر اليد التى تضرب بها !

سیدی المختار

لی إلیک حاجة لیس قضاؤها علیک بالأمر العسیر . تلك بأنکم
 أهل دار سؤالهم مقضى ، ودعاؤهم مستجاب . فأدع ربک أن یقبضنی
 ولكن علی فراشی ، فاننی لا أرى من العدل أن أموت كما یموت
 الجندی فی میدان القتال !

وإذا تفضلت وکتبت إلی ، فعنوانی الجدید : وادی لظى —
 جهنم . یحفظ بشباك البوستة .
 والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته .

المخلص

١٧ من ینایر سنة ١٩٤١

جرزیانی

[ترجمة طبق الأصل]

رمضان

أدر كنا رمضان وأهل مصر يستصبحون بالشمع ، إلى أن طغى عليه اتخاذ الكيوسين . ثم نحن هؤلاء اليوم نستضيء بالكيوسين وبالغاز وبالكهرباء ، فكيف كان حظ رمضان من الأضواء والأنوار في ذلك الزمان . وكيف كان حظه منهما في هذا العام ؟

لقد كانت القاهرة والاسكندرية وسواهما من الحواضر الكبرى تستحيل ، إذا جن الليل في رمضان كتلة من النور . النور في أفنية الدور ، وفي غرفها وحجراتها ، وعلى رءوس الأبواب . ثم في الشوارع من المصاييح العامة ، ومن المصاييح التي يضطرب بها الأولاد صبية وصبايا ، وأولئك يغنون : « يامادّ للوك ، يا وردة ، في السوق ، وباعوك ، يا وردة » الخ . وهؤلاء يغنين : « وحوى ، وحوى ، إياحة ، بنت السلطان ، إياحة ، لابسة القفطان » الخ .

ولا تنس أن السيدات كن إذا برزن إلى الطريق في رمضان لزيارة الأهل والصدقات سعين وبين أيديهن الخدم يحملون المصاييح الكبيرة يتألق كل منها بطائفة من الشموع ، فتزيد الطريق نوراً على نور !

أما نوافذ المناظر فمفتحة ، ينبعث منها نور المصاييح ، كما ينبعث منها النور الأعظم ، أعنى ترتيل القرآن الكريم . ولا تنس حظ المساجد الكبيرة ، على وجه خاص ، من ذلك النور والاشراق في طرفي الليل جميعاً ، ففي صدر الليل صلاة العشاء ، ثم صلاة التراويح ثم تلك الأناشيد البديعة التي يتغنى بها المؤذنون فرادى وجماعات . فإذا كان السحر ، فتحت أبواب المساجد وأضيئت فيها الثريات ، وأقبل عليها الناس بعد الفراغ من سحورهم ، فانتظموا في حلق يستمعون إلى دروس العلماء في تفسير كتاب الله ، وفي حديث رسول الله ، وفي أحكام الشرع الحكيم . حتى إذا قال العلماء : « والله أعلم » أذاناً بختام الدرس ، أسرع الناس فانتظموا صفوفاً ، مولين وجوههم شطر الدكة في بهرة المسجد ، ليسمعوا صوت أشهر قارئ في الحى . وناهيك بالشيخ حنفى برعى في مسجد السيدة فاطمة النبوية ، وبالشيخ أحمد ندا في مسجد السيدة زينب ، رضى الله عن السيدتين الكريمتين ، ورحم الشيخين العظيمين !

ومادام حديث رمضان قد استدرجنى إلى ذكر الشيخ أحمد ندا فلا بد لى من أن أقول فيه كلمة (١) .

لقد ولدت في حى السيدة زينب ، وسلخت فيه مدة الفتوة ، وصدرأ من سننى الشباب ، ولست أذكر أننى ، من عهد الصبا تخلفت في ليلة من ليالى رمضان ، إذا كان السحر ، عن طلب مسجد

(١) للكاتب مقال طويل عن الشيخ ندا نشر في جريدة « الأهرام » إثر وفاته ، ثم طبع في الجزء الثانى من كتاب « المختار » للكاتب .

السيدة زينب رضى الله عنها ، أستمع أولاً إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السالموطى ، عليه رحمة الله . حتى إذا فرغ منه فى الوقت المقسوم ، استوى الشيخ ندا على الدكة ، وأنشأ يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشتكى ، إلا تذكرة لمن يخشى . . . » (١)

وقد انصقل بقراءة الليل صوته ، وحلا نبره ، وسلس له منه ما كان جامعاً ، ولان ما كان فى أول الليل عاصياً ، وأطلقه فى آى السورة الكريمة أبيض ناصعاً كأنما صيغ من ذوب الفضة ، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه ، لقد أستمعه فى سورة طه كل ليلة ، وفى كل ليلة يخيل إلى أن جبريل ينزل من جديد ، بسورة طه على محمد ، صلى الله عليه وسلم ! وهو يحول فى فنون النغم فارساً خلا من هيبته الميدان ، وتوارى الحكمة خشية الضراب والطعان ، ولا يزال كذلك حتى يملأ الأذان طرباً ، ويشيع فى النفوس ما شاء الله أن يشيع من لذة وأريحية وفرح حتى إذا كان من مطلع الفجر على دقائق ، نهض فوقف على الدكة ، وصاح فى مقام الست بأعلى صوته : « يا أمة خير الأنام ، ومصباح الظلام ، ورسول الله الملك العليم العلام . تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال . »

وهنا يطمئن الشيخ اطمئنانة قصيرة ، أرجو ألا تحسبها استراحة من ذلك الجهد العنيف ، وإنما هي استجمام للجهد الأعنف . أستغفر الله ، أرايت إلى الليث كيف يجتمع للوثاب ؟ وكذلك كان الشيخ عليه رحمة الله . فسرعان ما تراه قد وقف على أصابع رجله كأنه يريد أن يطول مالا يطال ، ويستأنف الدعاء : « وأدخلنا وإياكم الجنة » . فاذا صارت إلى حلقة كلمة « إياكم » يجعل يرتفع في مد « الياء » ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، متحدياً ما رسم أصحاب الفن لنهايات الأصوات في سموها ، إذ الناس شاخصون بأبصارهم إلى السماء لينظروا مشدوهين إلى أى مدى يبلغ الشيخ ، حتى إذا جاز هذه الطبقات جميعاً ، وبلغ « الجنة » ، زر حلقة على نونها فعصرها عصرأ شديداً ، وكأنه لا يتكلف في هذا الجهد المهول شيئاً . حتى إذا بلغ هذا المدى خيل إلى الناس أنهم والمسجد الذى يضمهم بأرضه وسائه ، وعمده ودككه ، ومنبره ومقاصيره ، قد ارتفعوا كتلة واحدة حتى وصلوا إلى جنة عدنان ، ونالوا أعظم ما ينال مؤمن من الرضوان !

ثم يهوى من فوره إلى القرار فيقول : « بمنه وكرمه وجوده ، دار السلام بسلام » ثم يعود إلى محلقه فيصيح : « طلع الفجر ! » الله أكبر ! الله أكبر ! ماذا صنعت لعمرى أيها الشيخ ؟ لقد رن رنة ملائكة الآفاق جميعاً ، حتى لو أنه أطلقها في غسق الليل لانفجر من حلقة الفجر ، ولحق على المؤمنين أن يخفوا لصلاة الصبح ، وما شاء الله كان !

ثم هتف في صوت هاديّ وادع : « فاستقبلوا الآن واستمعوا
الآذان بعده ... » ثم أذن للصلاة ...

هذه بعض الأنوار التي كانت تموج فيها ليالى رمضان حساً ومعنى ،
ولست أحب أن أقارن بين ما كان يكون في ذلك الزمان ، وبين
ما صارت إليه ليالى رمضان في هذا الزمان . إنما قصدت إلى العبرة
في المقارنة بين أضواء ليالى رمضان في عصر الشمع والكيروسين وبين
لياليه في هذا العام ، أى في عصر الغاز والكيروسين والكهرباء .
لا يخيم الليل حتى يكاد يستحيل ما بين آفاق الأرض من
مناجم الفحم ، ظلمة وسواد ، وعالم كأثما قد غط في المداد ، لاعلان
أبشع ألوان الحداد .

« ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ
يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . » (١)
صدق الله العظيم .

وهذا فوق عواء الصفارة ، إيذاناً بمقدم الغارة .

وبعد ، فهذا ما صنعت هذه الحرب ، وهو على ثقله كآهون
ما تتبلى به الحروب غير المقاتلين في هذا الزمان .

على أننا لا ينبغي أن نبتئس بمجرى القدر في هذا الشهر العظيم ،
فهو شهر الصيام ، والصيام كف النفس عن الطعام والشراب ،
أى عن غذاء الحياة بعد التنفس في الهواء . وذلك ، والله أعلم ،
ابتلاء للمؤمنين ، وامتحان لمبلغ جهدهم واحتملهم في طاعة الله ،
وتعويدهم الصبر على معاناة المشاق في هذه الحياة ، فلا يفسدهم
طول الترف والتقلب في المناعم والاسترسال في معاطاة اللذائذ ، فان
هذا العيش أدعى إلى تكسر النفوس ، واسترخاء العزائم وعدم
القدرة على احتمال الشدائد ، وإن أمة يصير بها الأمن والرخاء
إلى هذا المصير ، لحقيقة بالتقلص والضمور فالانقراض ، والعياذ بالله !
ونحن ، ذياداً عن الشرف والاستقلال والحرية ، قد تلقى المشاق
وأكثر من المشاق ، فمن الخير لنا ، لو تدبرنا ، أن نمرن النفس من
الآن في خوض المشاق ومعاناة الشدائد ، حتى إذا كان يوم الردع ،
لا أذن الله ، لاقيناه في رشد وعزم وصدق يقين :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ . » (١) صدق الله العظيم .

سعد الرجل

ولست أعنى بالرجل من ليس امرأة ولا غلاماً أو فتاة . ولست أعنى بالرجل كل من يضعون هذه الألوان من الثياب التي يمتازون بها عن النساء في كل مكان . إنما أعنى بالرجل ذلك الكفاء لأن يحمل هذا الاسم الضخم ، هذا الاسم النادر في ضواحي الزمان . إنما أعنى بالرجل ، ذلك الواثق بوجوده ، المؤمن برجولته ، المتكى على نفسه ، الذي لا يسمع إلا بأذنه ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يفكر إلا بعقله ولا يمضي في الأمر ، إذا مضى ، إلا بوحى من سلطان العقل والضمير !

وأخيراً فانما أعنى بالرجل ، ذلك الذى لا يتجاوز عن رجولته لأى غرض ، ولا ينزل عن سلطان نفسه لأى اعتبار . بل إنه ليمضى لوجهه طلقاً ، ولو كان صفاً وحده ، والناس جميعاً بازائه صفاً آخر . وكذلك كان سعد زغلول . لقد كان ، رحمة الله عليه ، رجلاً كل الرجل كان رجلاً بأضفى معانى هذه الكلمة . فأصبح من حقه أن يفسح له مكان فى أعلى جبهة التاريخ .

وبعد ، فليست الرجولة شيئاً يدرك بالكسب ، أو هى مما يضفيه الناس على المرء ، إنما هى غريزة كسائر الغرائز يفطر الله عليها من

يشاء من خلقه ، فهى من نفسه الباطنية بموضع جوارحه الظاهرة ،
 ما له فى وجودها ونشأتها رأى ولا خيار !
 نعم ، لقد تنمو هذه الغريزة وتشتد بطول المعالجة والمراس ،
 ومعاناة الصعاب ، ومواجهة شدائد الحياة ، لقد يكون الأمر كذلك
 ولكنها ، كما قلت ، لا تنال بالكسب ، ولا تجعل بالجعل ،
 ولا تكون بعد أن لم تكن ، ولا يسبغها الناس ، ولم يأذن بها الله !
 ولقد كان سعد زغلول رجلاً بأوسع ما يترامى إليه الذهن فى معنى
 هذه الكلمة ، ولقد تجلت فيه هذه الرجولة من أول نشأته إلى غاية
 حياته . ولا محيص من أن يكون الأمر كذلك ، اللهم إلا أن يتبدل
 الخلق ، ويحول الطبع ، وتنصل الغرائز نصول الخضاب . وهذا
 فى سنة الكون مما يتصل بالحال !

لم أعرف شيئاً عن نشأة هذا الرجل فى الكتاب ؛ ولكنى أعرف
 غير قليل عن نشأته فى الأزهر ، وما أعرفه ، فى هذا الباب ، فرواية
 عن لداته وقرنائته الذين لابسوه وعایشوه ، وانتظموا معه فى حلق
 الدروس ، وذاكره فى العلوم صدر الليل وأعقاب النهار . وهم ،
 ولا ريب ، ثقات عدول . وقد وكد الثقة برواياتهم ما شهدت بنفسى ،
 بعد ذلك ، أيام كان يواتينى الحظ بشهود مجالس هذا الرجل العظيم .
 وقبل أن أعرض لرجولة سعد طالباً فى الأزهر ، أحب أن أقرر
 شيئاً لعله ينفع فى هذا المقام وغير هذا المقام : ذلك بأن جمهرة الناس ،
 فى كل مكان ، درجت على أن تجرى أحكاماً معينة على قضايا معينة ،

لا ينحرفون بها عنها ذات اليقين ولا ذات الشمال ، ولا يجادلون فيها ألبتة ، ولا يرونها موضع الجدل ، كما نشأوا على عادات وتقاليد تنزل بعضها من نفوسهم منزل التقديس ، على أنهم لم يعتنقوها ويلتزموها عن تدبير أو تفكير . وإنما اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، لأن من تقدمهم ومن حولهم قد اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، وتلك القضايا تدعى ، في عرف أهل العلم ، بالمسلمات . وناهيك بأهل الأزهر خاصة ، في التسليم بهذه المسلمات ! على أن رجولة سعد الطالب الأزهرى ، أثبت عليه أن يخضع ، بادرى الرأى ، لما يخضع له من حوله ، ويسلم بما يسلم به من يأخذ العلم معهم ، ومن يأخذ العلم عنهم . فجعل يناقش كل قضية تعرض له من قضايا العلم ، سواء منها المسلمات وغير المسلمات . ويحيل فيها الذهن الحر لم يقيد قيد ، ولم يحد من جولاته ، في العلل والأسباب ، حد . وهكذا حتى يخرج له الحكم الذى هداه إليه البحث والتدبير ، وهكذا كان سعد من المثل الأولى في الاتكاء على الذهن أولاً ، ثم في حرية النظر والتفكير ، ثم فى الجهد بما يعتقد أنه لا يعتقد غيره من العالمين .

ولست أشك فى أن هذه الرجولة ، وإن شئت قلت هذه الألمعية ، أو قلت هذه الحرية التى طبعه الله عليها ، هى التى عدلت به إلى دروس السيد جمال الدين . وكذلك لست أشك فى أنه لقي بهذا وبهذا فى مطلع حياته عنتاً كبيراً ، على أن هنا العنت لم يثنه قط عن وضع السبيل ،

ولا شك عندى أيضاً فى أن هذا : طول النظر ، وتقليب الذهن ، وإثارة المناقشة فيما اطمأنت إليه جمهرة الناس واعتنقته ، بظهر الغيب ، هو الذى قوى روح الجدل فيه ، حتى بلغ منه غاية الغاية . فلقد كان سعد ، رحمة الله عليه ، أحد الناس قولاً وأسطاهم فى الحوار حجة . وهنا لا أجد على حرجاً فى رواية نكتة ظريفة عن سعد ، فلقد كان رحمه الله ، يحب النكتة فى موضعها ، ويرتاح إليها فى مقامها ، ويرسلها جزلة نافذة ، حتى وهو فى أحد سورة الخطاب !

حدثنى المرحوم محمد باشا صالح (المستشار السابق فى محكمة الاستئناف وكان من لدات سعد الذين يحضر دروس الأشياخ معهم ، ويستذكرونها وإياهم ، قال وعرض ذكر سعد وشدة جدله ، فقلت له ذات يوم : يا شيخ سعد ! إن هذه المناقشات الكثيرة تضع من وقتنا ، وتستنفد قدراً كبيراً من جهدنا . فلا تكاد تبقى لنا فضلاً للمطالعة والاستذكار . فهلا تركناها ، وأقبلنا على استذكار ما بين أيدينا من دروس ؟

فأجاب من فوره : وهل تظن أن هذه المناقشات أقل جدوى فى تفتيق الأذهان ، والفسح فى الملكات ، وطبع الذهن على النظر والتماس العلل من استذكار الدروس ؟ فقلت له : كلا ! بل هى مضيعة للوقت ، صارفة عن طلب العلم ! فقال : ما دام هذا رأيك فهلم إذاً نتناقش فى هل المناقشة ضارة أو نافعة !

وحسبنا هذا القدر فى رجولة سعد طالباً فى الأزهر . ولنخلص منها إلى رجولته فى الحمامة . فلقد كان فى رجولته وجراته فى الجهر

بقوله الحق مضرب الأمثال . أما رجولته قاضياً (مستشاراً في محكمة الاستئناف) فقد يعتمد في قضائه الحق ولا يعتمد غير الحق . ويحكم بالعدل ولا يحكم بغير العدل ، لا يبالي غضب من يغضب ، بل لا يبالي أن يخالف رجال القضاء إلى غير ما اطمأنوا إليه من فهم ظاهر القانون ، لأنه إنما تهدي إلى تحقيق العدل بفهم روح القانون . أما سعد الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد ، وإن شئت تعبيراً أشد وأقوى ، قلت كان الرجل كل الرجل .

لقد أبت عليه رجولته أن يخضع لقول المعارف (دنلوب) كما خضع له جميع الوزراء (النظارة) من قبل ، بل لقد سطت هذه الرجولة بدنلوب وما زالت به لا تألوه رداً وصدأً ، حتى قبع من الديوان في أخوصة ، لا يسمع له قول ، ولا يمضي له في شأن المعارف رأى ! أما رجولة سعد في الزعامة فهذا ما أدع تفصيل القول فيه لأصحابه الذين كانوا لاصقين به في كفاحه العظيم ، وإن كنت أعرف من ذلك الشيء الكثير .

لقد كان سعد زغلول رجلاً حقاً ، رجلاً يعز أكفأؤه في التاريخ الطويل . وصدق شوقي بك ، رحمه الله ، في قوله : « والرجال قليل . »

غَدُوَّةٌ وَرَوْحَةٌ

لقد يؤسوا منه كما استيأس هو منهم ، وبلغ برهم به ، واصطغأوهم عليه غاية المنتهى . ولم يبق في علاجه بما يريحهم منه حيلة ، فلقد عرضوا عليه أن يملك عليهم ، أو أن يصفوه بجلائل أموالهم ؛ فأبى إلا مضياً في شأنه . إذاً فلا بد من أمر يكفيهم كل هذا ، ويكفل الدعة والراحة لهم ، وها هم أولاء يحشرون في ناديبهم ليأتمروا به . وهذا الشيخ النجدى يطلع عليهم من غير موعد ، فيكون نصيحهم وجماع أمرهم . وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، فقال قائل منهم : أحبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . فلا يرى الشيخ النجدى هذا الرأى !

ثم يقول آخر : نخرجه من بين أظهرنا ؛ فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذ غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . وإذا الشيخ النجدى لا يرى هذا الرأى أيضاً !

ثم يقول ثالث : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً

وسيطاً^(١) فينا . ثم نعطى كل قتي منهم سيفاً صارماً . ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً . فلم يقدر معشره على حرب القوم جميعاً ، ويقول الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، ويتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

وينزل الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فى هذا اليوم : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . »^(٢) ويقول عز وجل : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ^(٣) . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ . »^(٤)

ولما هبط الليل جرد أولئك الفتيان إلى داره ، فى أيديهم سيوفهم مشهورة . وأقاموا يرتصدون له على بابها حتى يخرج . ثم إذا هو يخرج فيعفر بالتراب وجوههم . وفى غشية أبصارهم يتسلل إلى دار صديقه ما يراه منهم أحد .

فاذا صار فى بيت صاحبه أخبره بأنه مهاجر لساعته وأخذه معه ، فاذا سأل صاحبه عن وجهه تعذر أولاً لأن بنتيه حاضرتان . ثم اطمأن فباداه بمهجره .

وخرجا من خوخة فى ظهر الدار . ولم يمضيا قدماً إلى وجههما ،

(١) الوسيط : الشريف فى قومه . — (٢) سورة الأنفال .

(٣) ريب المنون : ما يريب أو يعرض من الموت . — (٤) سورة الطور .

فان الأقوام لا بد طالبوهما في كل سبيل ، بل عدلا إلى غار يعصمهما من العيون حتى تسكن حدة الطلب ويترسل بينهما وبين البلد بعض الأبناء ، ويأتونهما بالطعام ، ويفضون إليهما بما يتسمعون في شأنهما ، على الأعداء .

ولما فتر حد الطلب بعد ثلاثة أيام ، انطلقا ومعهما دليل يبتغي بهما من السبل ، ويسلك من الدروب ، ما لا يبتغي السيارة ولا يسلكون ، بل ما لعل جمهرة الناس لا يعرفون .

وبعد بضع عشرة ليلة طال فيها الترقب وحذر الطلب ، يبلغ وصاحبه المأمن . وهذا المأمن المعز المانع هو يثرب .

وكذلك كان خروج محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من بلدة مكة بعد ما عانى من قومه ما عانى ، واحتمل من أذاهم وعنهم ما احتمل . وكذلك أنجاه الله تعالى من القتل الذي بيتوا لم تخالجهم فيه رحمة ، ولم تحشمهم منه رحم !

نحن الآن في يثرب ، وقد مضى على تلك الهجرة المهولة ثمان سنين ، ثمان سنين لا أكثر . فليت شعري ماذا نرى وماذا نسمع ؟ نرى شيئاً لا يكاد يتسع له البصر ، ونسمع جلبة لا تكاد تحتل موقعها طبلية الأذن . . .

هذه صلصلة السيوف ، وهذه قعقة اللأم ^(١) والدروع ، وهذا صهيل الخيل ، وهذا هدير الابل ، وهذا لجب يحكى جرجرة الآذى ^(٢)

(١) اللأم : بفتح اللام وسكون الهمزة : جمع لامة وهي الدرع .

(٢) جرجرة الآذى : صوت موج البحر .

في اليوم العاصف ، وهذه الرايات المرفوعة . وهذي كتائب الجند
تتلوها الكتائب ، من رجال وفرسان ، كأنهم لم يخلقوا إلا للقراع
والطعان . وعلى كل كتيبة علم من أعلام القادة ، وكى من السكاة
الزادة ، والغطازيف السادة ؛ وهذا محمد صاحب تلك الهجرة على
جيش كثيف من المهاجرين والأنصار :

يمشون في زَغف كأن متونها	في كل معركة متونُ نهاء
بيضٌ تسيل على السكاة فُضوها	سيل السراب بقفرة يبداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها	فيها خيال كواكب في ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم	تحت المنايا يوم كل لقاء

ولكن أين الطلبة وأين المنتهى ؟ الله ورسوله أعلم !
وما لأحد يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن هذا ، وهو
إما قاتل فناقض من بناء الشرك حجراً ، ومقيم في صرح
التوحيد حجراً . وإما مقتول وقد علم أن الجنة تحت ظلال السيوف ؟
ثم تتبين الطلبة ويسفر الوجه ، فاذا هو البلد الذي خرج منه
النبي ذلك المخرج منذ ثمان سنين ، هو مكة مشوى قریش الذين
آذوه وصدوا عن سبيله ، وكادوا له ولصاحبه الأقلين ، بكل ما اتسع
له ذرعهم من الكيد ، واثتمروا أخيراً بقتله وتفريق دمه في القبائل ،
فلا يطلب بالشأر له أحد !

ومكة البلد الحرام ، الذي يقوم فيه بيت الله العتيق ، وهو قبلة
المسلمين في صلواتهم أنى كانوا من شرق الأرض وغربها ، والذي

فيه وما حوله تقام فرائض الحج ، التي أوجب الله تعالى ، على كل
مستطيع من المسلمين .

ترى ما عسى أن تصنع قريش ، وقد قدم إليهم في عقر دارهم
عدوهم القديم ؟

تالله لقد كانوا أضعف من أن يخرجوا الحربة ، وأذل من أن
يناصبوه كيداً أو عداوة . بل لقد ابتغوا النجاة بأنفسهم من حيث
أوماً هو إلى مواطن النجاة ، فكانوا بين ثلاثة رجال : إما لائذ
بالبيت الحرام ، وإما عائذ بدار أبي سفيان ، وإما مغلق بابه عليه ،
فهو جلس الخدر مع النساء ! (١)

« الله أكبر ! الله أكبر ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن
محمداً رسول الله . . . » وهكذا قام بلال يرفع بها صوته في قلب
البيت الحرام بعيون آلهة القوم (أصنامهم) وأسماعها إذا كانت لها
عيون وكانت لها آذان !

الله أكبر الله أكبر ، إن في ذلك لعة العبر !
أنظر كيف خرج محمد من بلده وكيف عاد إليه ولم يطو من عمر
الدهر أكثر من ثمان سنين !

(١) لما تشفع أبو سفيان إلى رسول الله صلى عليه الله وسلم بعمه العباس
رضي الله عنه ، ثم أسلم بين يديه في مقدمه إلى مكة فاتحاً ، قال العباس : يا رسول
الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر . فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل
دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

لم يرق جيشه للجب دماً ، اللهم إلا نطاقاً قطرتها حماقة بضعة نفر لم يكونوا أكفاء لحياة الاسلام !

لقد طالما تحدث قريش رسول الله وسألوه أن يسأل ربه أن يمتحنهم بالآيات الكبرى ، التي امتحن بها الأمم قبلهم ؛ ولكن الرسول لم يفعل ، بل لقد آثر احتمال الكيد والأذى ، علماً منه بأن رسالته أجل من أن تؤيد بالخسف والدمدمة والعصف والتدمير التي كانت أليق بخوالى العصور . بل هي رسالة الحجة والمنطق وخطاب العقل ، ولفته إلى ألوان العبر ، وتمييز النفع من الضر ، والتفريق بين الخير والشر ، وهكذا .

على أن من هؤلاء الذين سألوا محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، أن يدعوا ربه أن يهلكهم ، ويأخذهم بما أخذ به الأمم ، قبلهم ، مبالغة منهم في التحدى وإظهار التكذيب للدعوة — من هؤلاء من جاهدوا في الله حق الجهاد وأبلوا في سبيل هذه الدعوة أحسن البلاء . أما أولادهم جميعاً وحفداتهم فهم رافعوا راية الاسلام ، ومذكو حضارته الغالية النبيلة في كل مكان .

ولعمري لم تفتح السرايا ولا الجيوش كل هذا الفتح ، وإنما كان الفاتح الأول هو القرآن .

بين الحرب والسلام

لست أرتاب ، ولعل كثيرين من القراء لا يرتابون كذلك ، في أن دعاية تقوم الآن في مصر ، تحفزها إلى الدخول عاجلا في الحرب . وهذه الدعاية تظهر قوية أنا وضعيفة أنا ، صريحة حيناً وقائمة على التعريض حيناً آخر .

ولست أرتاب في أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، لا يستروح منها أى ربح أجنبية .

ولست أرتاب في أنه ما بعث هؤلاء الدعاة إلى دعايتهم إلا الشعور بالكرامة القومية .

ولعمري ، ما دعائى أن أقرر أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، إلا أن المصدرين لها ممن لم تحص عليهم في وطنيتهم شبهة ، ولم تلحقهم تهمة ، بل إن منهم لمن له ماض فى الجهاد جليل .

إذا فالأمر لا يعدو ، أولا ، الأنفة والشعور بالكرامة الوطنية ، والعزة القومية . وكيف لا يثور ، بادی رأى ، شعور المصرى الحر ، وهو يشهد الجيش الانجليزى يقوم وحده بقتال من يحاولون غزو بلاده واقتحام أرض الوطن ، إذ أبناء هذا الوطن نفسه قابعون فى أعقار دورهم ، قانعون بهذا الضرب الرخيص من السلامة من أذى الحروب !

ولو أننا نكتفى بهذا الموقف ، موقف المتفرج بشهور الصراع بين المتجمع لغزو وطننا وبين مدافعه عن هذا الوطن ، لو أننا نقف هذا الموقف فحسب ، لكان الخطب بعض الشيء ، ولنا فى المستضعفين فى رقاع الأرض بعض الأسوة . ولكننا لا نفتأ فى نهارنا وليلنا نتشادق بدعوى الكرامة ، ونتغنى بما أصبنا من الاستقلال والحربة ! فإذا أضفنا إلى هذا تلك الأناشيد الحماسية التى بنى أكثرها من لفظ بارد ، وجرى فى تلحين فاتر ، تتكسر فيها أصوات المنشدين وتسترخى وتترايل وترايلا ينبو عنه أصلب راقص مخنث ، هذه الأناشيد التى تصبحنا وتمسينا كل يوم مرات ومرات ، تدعونا إلى تقلد السلاح ، والمهولة إلى الصراع والكفاح — إذا أضفنا هذا إلى هذا ، كان شأننا فى هذه الدنيا عجباً !

وبعد ، فلست أشك فى أنه ما بعث أولئك الداعين إلى الحرب ، المستنفرين أبناء وطنهم للقتال ، إلا الشعور القوى بأن هذا الموقف لا يليق بالرجال ، ولا يتسق لهذه الدعوى العريضة فى الحرية والاستقلال ! هى ، فيما أرى ، دعاية قد سمت على كل اعتبار . دعوى أثارها مجرد الشعور بالكرامة . والحر إذا أحس أن كرامته قد خمشت ، أو أنها معرضة لأن تحمَش ، هب للصراع دونها ، ما يتربص لتفكير ولا تدبير ، ولا يدير الذهن فى فرض أو احتمال ، ولا ينتظر ما يخرج له القياس من نتيجة الصراع والقتال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً!

وإذا كانت الدعوة إلى دخول مصر في الحرب ، من غير إبطاء ، هي المثل الأعلى للحفاظ للكرامة الوطنية ، فإن من الخير أن نجرد صدىً من همنا لدرس المسئلة من الجهة العملية .

وقبل أن أعرض لما سقت له هذا الحديث ، أقرر أن مصر لن تعبأ بما عسى أن يحول في وهم واهم من أن إيطاليا إذا غزتها ، لا أذن الله ، فانها لا تغزوها كيداً لها أو طمعاً فيها ، ولكن قهراً للانجليز !

وإنه لوهم سخيف وضع ! فالغزو هو الغزو ، وإذا اختلفت الأسباب ، ولو قدرنا أن انجلترا أجلت عسكرها عن مصر ، ونحت أساطيلها عن مياهها ، ما أعوزت الطليان الحجة في المبادرة إلى احتلالها ، ولو بدعوى التمكن من قناة السويس ، لتسد في وجه الانجليز الطريق !

وهل من الحزم أن أقف مكتوف اليدين لأننى لست المقصود بالحجارة التى أرشق بها ، إذ المقصود بها غيرى من الناس !
لقد حق علينا الآن أن ننصرف عن هذا الفكر السخيف الوضع ، ونقبل على ما هو أحق بشغل العقول والأفهام .

وبعد ، فهناك مسألة أو مسائل خطيرة ينبغى درسها ، ولو درساً سريعاً ، قبل البت في هذا الحدث الجسام ، على أن تكون الكرامة الوطنية من هذا الدرس فى أسمى مكان .

١ - هل حان الوقت الذى تدخل فيه مصر الحرب مع الطليان أو غير الطليان ؟

اللهم إن مصر لحريصة شديدة الحرص على الوفاء بعهودها لحليفها العظيمة . ومن هذه العهود أن تشترك معها في الدفاع في داخل حدود البلاد . فهل وطىء الطليان أرض مصر حتى تهب طوعاً للعهد المسئول ، للنضال والكفاح ؟

٢ - لنذع هذا العهد فهو موفى ، إن شاء الله ، إذا وطىء عدو حدود هذه البلاد ، لا أذن الله ، ولننظر نظرة أسمى وأخلق بأمة تنشد المجد ، وتضرب على التضحية في سبيل الكرامة أبلغ الأمثال . نذع هذا العهد وتقبل على أنفسنا بهذا السؤال أترى هذا مما يتسق لكرامتنا القومية أن تظل في موقف المتفرج على هذا الصراع بين من يحاول الاغارة على أرض وطننا ، وبين من يدافعه بقوة السلاح عنها ، إلى أن ينكشف له بعض الثغور ، فتقتحم جيوشه علينا إقتحاماً ؛ وحينئذ نهب للقتال والصيال ! فاذا لم يكتب لهذا المغير فتح ولا غزو ؛ بل لقي اندحاره في جوف الصحراء ، فماذا يكون شأننا ، بعد ذلك ، وبأى وجه ، لعمري ، تلقى الأمم العزيزة ، والأمة الانجليزية ، على وجه خاص ؟

٣ - وأخيراً ، ترى هل فكر أولئك الداعون إلى إعلان الحرب فيما تستهلك هذه الحرب من جليل الأموال . وإذا كانت المجترأ تنفق في سبيلها الملايين في كل صباح ومساء ، فلا أقل من أنها تقتضينا كل يوم مئات الآلاف أو عشراتاتها ، على أوضح تقدير ! إنى لأرجو أن يكون أولئك الدعاة إلى الحرب قد فكروا في هذه الناحية وأحسنوا التقدير .

هذه هي أمهات المسائل التي ينبغي أن تدرس ولو درساً سريعاً قبل البت في هذا الحدث الجسام .

ولعل خير ما يصنع أن تسرع الحكومة إلى عقد مجلس ينتظم الأقطاب من رجال الحكم ، وقادة الحرب ، وزعماء الرأي ، حتى إذا انتهوا بعد تشاور إلى رأى ، مضت على اسم الله ، والبلاد من وراءها صفاً واحداً ، مزوداً بالفوز العظيم ، سواء في الحرية أو في السلام .

كتبت في بوش في ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠

كيف نتقى أهوال الحرب

حين أعلنت هذه الحرب ، ودخل في التقدير العام أن مصر قد تكون هدفاً من أهدافها ، جعلت أفكر وأطيل التفكير فيما عسى أن تدرأ به عن نفسها ، وتدافع المغير عن أرضها ، وتسكف بالأمن والسلامة للوادعين الساكنين ما أذى من يعتريهم من الجو في هذه الحروب الحديثة من كل مدممة قاصفة ، ومزلزلة خاسفة ، ومن كل كاوية حارقة ، ومن كل سامة خانقة .

جعلت أفكر في هذا وأطيل التفكير . وكان أول ما انخط إليه الفكر ، بالضرورة ، هو إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة ، من تجهيش الجيوش ، وإمدادها بالسلاح والعتاد ، وتغذيتها بالوسائل التي نصح بها العقل ، وتمخضت عنها التجارب ، وانتهى إليها الفن الحربي ، سواء في إلحاق الأذى بالعدو وفي اتقاء أذى العدو .

وهذا ما تتمضي فيه الحكومة جادة جاهدة . فوق ما تأخذ به الأهلين من الرياضة على النظام في أوقات الشدة ، وتدريب الكثيرين منهم على حسن المعونة في الأحداث .

ثم ماذا ؟ . . .

اللهم إن هذا كله وأضعاف أضعافه لا يقي البلاد ، ولا يكفل

السلامة والنجاء ، وإلا لكان أضمن لهذا وأكفل ، أولئك الذين أعدوا للحرب ، والسلامة من ويلات الحرب ، مالا يتصوره العقل ، ولا يكاد يتعلق به الخيال . وهذه الطائرات المغيرة تدمدم عليهم فى أعز مآمنهم ، فتنسف الدور عليهم نفساً ، ولا تألو حتى الشيخ والمرأة والطفل فتكا وعصفاً !

إذاً فلا نجاء ولا سلامة ، وإذا فلا بد من أهوال تذكر أهوال القيامة ؟

يا ويلتا ! أترى العقل الانسانى قد عجز عن أن يستحدث ما يقى حتى الوادعين من غير المقاتلين ذلك البلاء ، ويعصمهم من هذه المحن والأرزاء ؟

هذا العقل البشرى الذى استحدث ، فى الزمن اليسير ، كل تلك الفواتك المدمرات القاصفات سواء منها ما يتخذ سبيله سوياً فى جحر ، وما يزلزل الأرض ، وما يرمى الخلق بما لا تبلغه ثورة البراكين وما يدمر حتى الحديد المصفى من جو السماء — أترى العقل البشرى قد عجز حقاً عن أن يبتكر ما يكفل الأمن والعافية ، ولو لهؤلاء الوادعين العاجزين عن الخروج إلى معترك القتال !

إذاً فقد أصبح هذا العقل البشرى أداة لا تصلح ألبتة إلا للافتتان فى ألوان الشرور والآثام ! وإذاً فقد حق على الانسان أن يسخر من أنه إنسان ، وأن يتمنى لو يكون حيواناً من بعض الحيوان ! ترى أوصلت الانسانية إلى هذا الحد ، وبلغ العقل الانسانى هذه المنزلة من العجز ؟

أظن أننا نظلم العقل الانسانى إذا نحن أنزلناه هذه المنزلة وألزمناه هذا المكان الوضيع .

فمن القدم فكر الانسان فى دفع مثل هذا الأذى واتقاء هذه المكاره بمقايلة القوة بالقوة ورد العدوان بالعدوان ، على أنه فى العصر الحديث زاد من أسباب الوقاية على قدر زيادة الموبقات فى معدات القتال . فانه فوق دفع شرور الطائرات المغيرة بالطائرة الحارسة فقد استحدثت المدافع المضادة للطائرات ، كما استحدثت الحابى لموراة سكان المدن ، وأجدت القناعات الواقية ، وضوعفت الهمة فى وسائل الانتقاذ والاسعاف .

على أن هذا كله لا يغنى الوادعين ، إن أغناهم كثيراً ، إذاً فلا زالت كفة الشر هى الراجحة ، وصفقة البلاء هى الراجحة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فحين يؤست فى هذا الباب ، من الالتقاء بالوسائل المادية ، التفت إلى الوسائل المعنوية ، فاذا هناك ما هو أحصن وأمنع ، وأكفى وأدنى ، وأجل وأعظم ، وأجمل وأكرم .

بين هذه القوى المعنوية قوة لو أن الجماعات والأفراد أخذت النفوس وراضتها عليها لأمكنها ، فى سهولة ويسر ، أن تتقى كثيراً من الأخطار ، وتخفف كثيراً من المضار وتهون ما حتمته الأقدار . هذه القوة المعنوية التى كثيراً ما تقهر القوى المادية وتظفر بها ، وتفسد عليها حسابها ، وتغلق دون الفوز أبوابها ، هى الصبر والاحتمال .

فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه عدداً ، وأجزل عدداً ، وأوفى مدداً . وقديماً قيل : « الشجاعة ، صبر ساعة » .
على أننا كيف قلبنا النظر لا نجد أن شدة انجلت ، وأزمة انفرجت ، ولا أن مسعى نجح ، وعملا كتب له الفلاح ، إلا إذا كان الصبر هو العدة ، وهو الزاد ، وهو المتكأ .

أرني عالماً أو مؤلفاً ، أو مستحدثاً أو مستكشفاً ، وصل إلى مراده ، فنفّع الناس ، وزاد في بناء الحضارة ، وأجدى بآثره على الإنسانية جميعها ، دون أن يكون الصبر هو عدته وملاكه ؟

أروني غنياً وصل إلى الغنى وأغنى من طريقه المعبد ، إلا ببناء النفس على الصبر الطويل ؟

في الحق أن الصبر من أجل ما أنعم الله ، على من أنعم من الناس . فليس أدفع للشر منه ، ولخرج الصدر نصيباً في كل ما تسوء مغباته (١) .

قلب نظرك في جميع أسباب هذه الدنيا تجد للصبر أثراً في كل ما تحمد غاياته ، ولخرج الصدر نصيباً في كل ما تسوء مغباته (١) .
ومما يسترعى النظر حقاً أن القرآن الكريم لم يهتف بخلة كما هتف بخلة الصبر ، تكررت فيه ولم يدع إلى فضيلة ، على أكثر ما يدعو إلى الفضائل ، كما دعا إلى فضيلة الصبر . حتى لقد تكررت فيه كلمة الصبر ومستقاتها من : صبر ، يصبر ، أصبر ، الصابرون الخ

مائة مرة ومرة ، تدور في أربع وأربعين سورة ، وحسب الصبر فضيلة .

أن يقول الله تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . . . » (١)

ويقول فيه : « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . . . » (٢)

ويقول كذلك فيه : « وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . » (٣)

و « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . » (٤)

وناهيك بمن كان الله معه . ولا شك أنه حقيق بأن يكفى الشر كله ويلقى الخير أجمعه .

والواقع أن القرآن العظيم ما كرر حديث الصبر هذا التكرير ، ولا وكد الدعوة إليه كل هذا التوكيد ، إلا لأنه مادة الفوز وعدته في الدنيا والآخرة جميعاً .

وإذا لم تكن سبيلاً في هذا المقال هي حصر فضائل الصبر ، واستقصاء مزاياه ، فلنقتصر الحديث على ما يشاكل ما يعانيه العالم في هذه الأيام .

والآن فانظر كيف يقول الله تعالى قوة الصبر وبأس الصابرين من المقاتلين :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ

(١) سورة البقرة . — (٢) آل عمران . — (٣) البقرة . — (٤) البقرة
وآل عمران .

مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مَائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ . « (١)

ثم انظر كيف يقول : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا ، فَلَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ،
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ . « (٢)

فقد رأيت أن المجاهد المؤمن الصابر يغلب عشرة من عدوه ،
فاذا كان فيه ضعف غلب اثنين بإذن الله القوى العظيم .

وقال تعالى في كتابه العزيز : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . « (٣)

وأنت ترى كيف قدم الحث على الصبر والمصابرة على المراقبة
والاستعداد للقاء العدو . وذلك إشادة بفضل الصبر ، ولما يعلم الحكيم
العليم من أن كل استعداد للقتال ، مهما يعظم شأنه ، إذا لم يكن مقروناً
ببناء النفس على الصبر وأخذها بشدة الاحتمال لا خير منه ولا
غناء فيه .

وبعد ، فلو قد مضى الكاتب في ترديد الآيات الكريمة التي

تحض على أخذ النفس بالصبر ، وخاصة في ساعات الروع ، وجعل يضيف إليها الحكم والأسباب ، ويردنها بالظروف والملايسات ، لاتسع كثيراً نطاق الكلام عن المساحة المقسومة لثل هذا المقال ، وفي القدر الذي قدمناه الكفاية إن شاء الله .

على أنه لا يفوتنا أن نزن مبلغ حاجتنا إلى الصبر في الأيام التي نخوضها الآن ، وفيما عسى أن نلقى في مستقبل الأيام . نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء . وقد تلحق بنا من الأذى قليلاً أو كثيراً :

ومن ظن ممن يلاقى الحرو ب بألايصاب فقد ظن عجزاً ولنقدر ، لا أذن الله ، أن يأخذنا الهلع والفرع ، فماذا تكون الحال ؟

لعمري ، ليس شراً على نفسه وشراً على غيره من المهلوع الذي ضل رشده ، وفقد صوابه . وكيف لمثل هذا بالنخاس أحسن السبل لاتقاء الأذى والنجاة منه . أو استنقاذ الغير أو إسعاف المنكوب بما يهون من بلائه ويعصم عليه الحياة ؟

اللهم ليس لهذا السليب العقل ، المستطار اللب ، بشئ من ذاك يدان ، بل إنه بهلعه واضطرابه وتخبطه هنا وهناك ، لحقيق بأن يوقع نفسه في خيلاء ، وقد يكون بعيداً عنه . ويزيد في ويل سواه ، وقد يكون على شرف الخلاص منه . والأمثلة على هذا أكثر من أن يلحقها العد أو يحيط بها الاحصاء .

أما هذا الذي أخذ نفسه بالصبر ، فجمع في ساعة الروع رشده ، وملك ناحية تفكيره وتدييره ؛ فهو الجدير بأن يحكم التيقية قبل نزول البلاء ، ويلتمس المخرج وقت وقوعه . ويسرع إلى نجدة المكروبين ممن عسى أن يكونوا قد أحيط بهم . وإلى إسعاف من عسى أن يكون قد مسهم الضرر بما يرد الآلام ، ويعصم من العواقب الجسام !

وأخيراً ، فإذا كانت الأمم المتحاربة الآن تحسب حساباً كبيراً لما يدعونه الطابور الخامس ، فليس عندي أى شك في أن الهلع والذعر في مثل هذه الأوقات ، هما آخر هذا الطابور وأنفذ وأفتك .

الهلع والذعر ، هما من أفتك الآلات في يد العدو ، بل لعلهما أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح . ولا غرو على إذا دعوتهما من الآن بالطابور السادس .

فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال . ولا ندع للجزع إلى أنفسنا السبيل . وأن نستبقى الرشد ، مهما يحشمننا من جهد . فهذه هي وسيلة النجاة والتخفيف من ويلات هذه الحياة .

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا ، ويشد متوننا ، ويكشف عنا هذا البلاء ، ويهون علينا مواقع الأرزاء ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

لم يجر قلمي قط ، طوال حياتي ، بكلمة واحدة ، في شأن من الشؤون الخارجية ؛ اللهم إلا ما كان سوقاً لعبرة ، أو ضرباً لمثل من أحداث الزمن الغابر . على أن كارثة فرنسا ، بهذه السرعة قد رجنتي كما رجحت الناس جميعاً ؛ وكيف لا ترجني وترج غيري ، والعالم كله ، أعني قواصيه وأدانيه ، إذا ذكر في أية رقعة منه (العالم) تمثل الغرب ، وإذا ذكر الغرب ، حضرت ، على الفور ، فرنسا . ففرنسا هي لب العالم الحديث وجوهره ، وهي روحه ومصابه . هي مشابة العلم ، وموطن الحضارة ؛ وهي منبع الفن ، وهي حصن الحرية والمساواة . اللهم إن من شأن هذا ، بل من شأن بعض هذا ، أن يبعث الذهن مع التفكير والتدبير ؛ ففرنسا تسلم السلاح بهذه السرعة العجيبة ، ولا يزال لها من حليفتها العظيمة عدة أية عدة ، ومدد أي مدد ؟ ومن ذا الذي يلقي السلاح بين يدي العدو ، ويحكمه في عنق الدولة كل هذا التحكيم ؟ هم كبار القواد الذين شابت نواصيهم في خوض المعامع ، وقضوا العمر تحت ظلال السيوف ! لقد فكرت برغمي ، كما فكر الناس . ولقد قدرت كما قدر الناس . فخرج لي من هذا التفكير ما يهول من الاحتمال وما يروع .

وأرجو ألا تتعجل فتظن أن هذا الذي يهول ويروع هو اندحار فرنسا عسكرياً ، فإن الاندحار العسكري مما يجرى على الأمم جميعاً ، وهو مع ذلك إذا حط من هيبتها ، أو تنقص من مالها ، أو قبض من سلطانها سنين ، طالت أو قصرت ، فإنها مستردة هيبتها ، متعوضة عن مالها ، بأسطة سلطانها ، مهما تكن قد أنزلت بها تلك الحرب من خسار ودمار . وهذه المثل كثيرة ، منها الحاضر للأذهان ، ومنها ما لا يزال ماثلاً للأعيان . ففرنسا التي ضربت الضربة القاصمة في سنة ١٨٧٠ وسلخ من إيالاتها ما سلخ ، وفرض عليها من الغرم ما فرض ، قد ظهرت على ضاربها في سنة ١٩١٨ ، وضربته الضربة القاضية ، وفرضت عليه ما فرضت من ذخيرة ومال ، وضربت عليه ما ضربت من سوء حال ، بل مهانة وإذلال ، لا يقدر انبعاثه بعدها أجيالا إثر أجيال ؛ ومع هذا لم تمض بضع وعشرون سنة حتى صنع بها هذا المغلوب ما شهدنا . وليس يعلم إلا الله تعالى كيف يكون المصير !

وكيفما كان الأمر ، فإن انهزام فرنسا بمثل هذه السرعة ، حربياً ، إذ هو هال وراع فإن مما يعزى فيه أن هذه سنة الحروب في طول الزمان :

فيوم علينا ويوم لنا فيوماً نُسَاءُ ويوماً نُسَرُ

ولا بد أن تنجلي غمرتها بعد حين ؛ ولقد مر عليك من الأمثال ما فيه مقنع للمعتبرين !

إِذَا ، فلست أخشى ما أخشاه على فرنسا من هذه الناحية ؛
ولكنى أخشى على هذه الدولة العظيمة ما هو أجل وأعظم ، وما هو
أكثر وأفدح .

اللهم إني لأخشى أن يكون هذا التسليم أذناً بانحلال هذه الأمة
إلى آخر الزمان ، أو إلى بعيد من الزمان .

ولست أحيل هذا الخوف على ضرب من التنبؤ ، أو على لون
من الحدث والتخمين . إنما هي المقدمات الواضحة التي تفضي إلى
النتائج الواضحة . فان يكن قد ند على ضبط بعضها ، فلي إلى العذر
سبيل !

وبعد ، فليس عندي أى شك في أن للآدم أعماراً ، كما للانسان
والحيوان والنبات أعماراً . وهذه الأعمار تطول وتقصّر أولاً في الحدود
المقسومة لكل نوع من الأنواع . وأما بالنسبة للأشخاص في كل
منها ، فيرجع طول العمر وقصره إلى أسباب وعوامل لا يكاد يحيط
بها الاحصاء .

وعلى كل حال ، فان نشأة الأمم تبدأ بطفولة كطفولة الانسان ،
فاذا قدر لها الاطراد في النمو صارت إلى فتوة فشباب ، فكهولة
فشيخوخة ، فهزم فانحلال وفناء . هذه أطوار كل أمة ، ولكل أمة أجل .
وإنما يكون الانحلال والفناء إذا بلغت الأمة الغاية من الحضارة ،
واتجهت بأجل العزم إلى الغلب في فنون الترف والنعيم . وهذه
الشواهد ما تزال ماثلة في الأمم الغابرة . ولا أريد في التمثيل على
أم اليونان ، والرومان والعرب ، في الشرق وفي الغرب معاً .

فليت شعري ، هل حان حين فرنسا اليوم كما حان حين تلك
الأم جميعاً ؟ وهل تراها قد دخلت في دور الانحلال والفناء ، كما
جری علی من تقدمها من الأمم الانحلال والفناء ؟
هذا هو السؤال الذي يشغل الهم ، ويضطرب بين جوانب
النفس .

وأرجو ألا يظن قارئ أن حظ أمة ، مهما يكن عظيماً من العلم
والفن والصناعة والمال ، وغير أولئك من وسائل العظمة ، مما يعصمها
من هذا المصير . فانه لم يقض على من سبق من الأمم جهل ولا ركود
حس ولا خمود عاطفة ولا شلل أيد ولا إعواز . إنما قضت عليها
عوامل أخرى ، ترجع كلها إلى شيء واحد ، هو الأخلاق !
وإنما أغنى من الأخلاق ، أولاً وقبل كل شيء ، تلك الصفات ،
أو على الأصح ، تلك الفضائل ، التي تصل بين المراء والمجموع من
إيثار المنفعة العامة والتضحية ، والفناء ، في النهاية ، في هذا المجموع ،
وهيئات لأمة تستحق هذا الاسم أن تكون كذلك ، إلا إذا كان
مجموع أفرادها كذلك . فاذا أقبل كل على شأن نفسه ، وآثر الدعة
والتقلب في ألوان الترف ، بقدر ما يتيسر له ، وخص بأجل مساعي
الحياة النفس والولد ! إنفرط ، ولا ريب ، عقد المجموع ، وأصبح
الأفراد نثاراً يغدون ويروحون على وجه الأرض ، وهؤلاء لا يمكن
أن تعدهم أمة ، وإن حصروا في رقعة معينة من الأرض ، وإن
ضمتهم جنسية واحدة ، وإن أخذوا جميعاً بقانون واحد أو بطائفة
من القوانين !

ونعود فنتساءل : هل كان انهزام فرنسا وإسراعها بالتسليم إلى عدوها انهزاماً عسكرياً خسب ، أو أن هذا الانهزام والتسليم ، إنما كان عرضاً من أعراض الشيخوخة التي تضرب أعضاء الجسم بفنون العلل والأسقام ، والتي لا رجاء معها في قوة ولا احتمال صدام ، بل إنها النذير الحق بالموت الزوأم ؟

لقد انتصرت فرنسا في حروبها وانهزمت مرات ، كما انتصر غيرها من الأمم وانكسر مرات . ومع هذا فسرعان ما استردت الأمم المهورة قوتها ، ووالت سعيها الحثيث في سبيل الحياة ، وذلك بفضل حيويتها وما انطوت عليه من الرغبة القوية في إعزاز الوطن والتضحية بالنفس والولد والمال في سبيل مجدها ، وإنكار الذات ، بل إفنائها في المجموع .

وإنما حرك في نفسى هذه المرة ، ذلك السؤال ، وشبه فيها كل ذلك الشبوب ، ما استشرى في كثرة الفرنسيين في السنين الأخيرة من إيثار الدعة ، والافراط في حب الذات وعدم الاكتراث ، وقلة المبالاة بالمنفعة الوطنية من قريب أو من بعيد ، والظن بالتضحية في هذه السبيل بقدر كبير (١) .

وأخيراً فإن علينا ألا ننسى روح النشوز والتمرد التي طغت بنوع

(١) مما أصبح شائعاً على ألسنة الفرنسيين ، أن زوجاً إذا سئل ، أو زوجة إذا سئلت : هل لك أولاد ؟ فيكون الجواب الحاضر السريع : أنجىء بأولاد نشئهم ونزبهم لينجحوا في ميدان القتال ؟

خاص ، على طبقة العمال (١) . والشواهد على هذا وهذا وهذا
 مما يفوت جهد الاحصاء !
 ذلك هو السؤال ، فهل لى أن أطمع من بعض العالمين فى جواب ؟

(١) حدثنى ثقة جليل القدر ، أنه كان إذا هبط باريس نزل فى فندق معروف
 يتصل به مطعم كبير . فلم يرعه إذ شخص اليه فى صيف سنة ١٩٣٩ إلا أن يرى
 هذا المطعم مغلقا . فقال لمدير الفندق فى هذا ، فأجابه بأن الخدم لا يد وأن ينصرفوا
 إذا كانت الساعة التاسعة . فمد الاطعام إلى غاية وقت العشاء يقتضى طائفة أخرى
 من الخدم . وفى ذلك من النفقة ما لا يحتمله المطعم بحال .

والادهى من ذلك والاعرب ما حدثنيه هذا الصديق عن صديق آخر ثقة
 كذلك جليل القدر قال : فى ذلك الصيف نفسه ركب (فلات) سيارة أجرة
 (تاكس) ، وسمى للسائق المكان الذى يطلبه ، وكانت الساعة الثامنة مساء إلا
 خمس دقائق ، فضى به . على أنه لم تكتمل الثامنة حتى وقف السيارة وأوماً اليه
 بالنزول . فاستغرب صاحبنا الامر وراجع السائق فى هذا العمل الشاذ . فكان
 جوابه الهادى المطمئن : لقد انقضى وقت عملى ، وعلى ان انصرف لشأنى لا أتخلف
 دقيقة واحدة !

والادهى فى هذا أن صاحبنا حين دفع لذلك السائق أجره الذى رقه العداد ،
 سأله الرضيع (البقشيش) فأبى « بالضرورة » ، فضى السائق لا يألوه تهكما
 به وزرارة عليه !

إصلاح

من بضعة أيام وجه صديقي الكاتب الجليل القدر الأستاذ محمد توفيق دياب في صحيفة الأهرام كتاباً إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء . وهذا الكتاب يدور حول « الشؤون الاجتماعية » . ولا أكتّم القراء أن هذا الكتاب لم يعجبني فحسب ؛ بل إنني لا أجد حرجاً من القول بأنه أطربني ، لأنه أحسن الترجمة عن خاطر طالما شغل نفسي ، واجتاز صدرأ من همى .

ولا بد أن يكون كثير من قراء « الثقافة » قد قرأوا هذا الكتاب على أننى ألخص موضوعه تلخيصاً شديداً لمن عسى أن تكون قد فاتتهم قراءته ، ليكون حديثنا بعد ذلك بيناً ، واضح المعارف بين يدي الجميع .

استهل الكتاب بشكر صاحب المقام الرفيع على عنايته الجليّة بالشؤون الاجتماعية في بلادنا ، حتى أنشأ لعلاجها وزارة خاصة ، وبلادنا أشد ما تكون حاجة إلى العناية « بالشؤون الاجتماعية » ، ففي الحق إننا محتاجون ، من هذه الناحية ، إلى فنون كثيرة من الإصلاح .

على أنه ذهب في كتابه إلى أن الإصلاح المادى لا يكفي وحده

فى إدراك الغرض المنشود ؛ بل لا بد من الاصلاح الروحى أيضاً ،
 ويعنى به إعداد نفوس الشعب لتقبله ، وتجريد العزائم لتحقيقه
 والمعاونة عليه ، وضرب لذلك الأمثال مشتقة من الواقع المشاهد
 الملموس .

ومن هذه الأمثال ، أنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم
 البرك ، لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التى يعترهم بها
 البعوض ؛ فانه إذا قدر وردمت البركة أو البرك حول القرية
 فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو لحاجة زروعهم
 إلى التراب يخلط بالسماذ !

ولا يكفى أن يجرى الماء النقى إلى دورهم ليشربوا منه ، ويتقوا
 كثيراً من الأمراض والأسقام التى تصيبهم من شرب الماء الكدر
 الذى كثيراً ما يلوث بألوان المكروبات ؛ ففى الغالب أنهم سيعدلون
 عنه إلى التروى من هذا الماء الكدر ، إيماناً بأن الماء إذا صفا من
 الطين لا يجدى على الأبدان .

ولا يكفى أن تقام المرافق فى القرى ليكفل للفلاحين قضاء
 حاجاتهم وتطهرهم ، وكف الكثير من عادات الأمراض عنهم ؛
 فأكبر الظن أن الفلاح مُتَسَوِّلٌ ، فى قضاء حاجته ، إلى الجلاء ،
 مؤثر الاستحمام فى التربة أو الجعفر الصغير إذا طلب ، يوماً ما ،
 الاستحمام ، وهكذا !

إذاً ، لا بد من أن يقترن هذا الاصلاح المادى بالاصلاح النفسى ،
 الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد فى نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن

هذا الإصلاح الذى يراد له أمر نافع جداً ، لا بد منه ، ولا محيص عنه لمن يريد الحياة السعيدة ، ولو بمقدار ، الحياة الخالصة من التعاسة والأسقام والأكدار ، ولو بمقدار .

هذا الإصلاح الذى يطبع الفلاح والعامل على إدراك ما ينفعه وما يضره ، ويستكرهه استكراهاً ، يدافع من نفسه لا بقوة خارجية ، على ترك ما ألف من مكروه العادات ، ولو كان هذا الألف إراثاً منحدراً من ألوف السنين .

وأخيراً ، هذا الإصلاح الذى يشعر الفلاح والعامل ، أو فى الشعور أنه عضو ، بكل معنى الكلمة ، فى هذا المجتمع ، لا خير له إلا فى خيره ، ولا سعادة لشخصه إلا بسعادته ، يشعر أنه عضو حقاً فى هذا المجتمع ، ويملا قلبه إيماناً بأن عضواً من الأعضاء لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان البون معتلاً سقياً .

فاذا جرى هذا الإصلاح فى طريقه ، وسلك من النفوس مسالكه ، حينئذ لا يخشى أن يقاوم الفلاح أو العامل ما يراد لعيشة من حماية وترقية وإسعاد . بل لا يخشى أن يعتل على هذا أو يتثاقل عن الاستجابة لدعوة العاملين المصلحين . بل إنه ليرجى ، حينئذ أن يطلب الإصلاح جاهداً إذا أبطأت عنه وسائله . وإنه ليعين على تحقيقه بكل ما يمتد إليه عزمه . بل إنه ليوجه السعى فى الحياة ، أو يوجه صدره عظيماً من السعى فى الحياة إلى ما يجدى المجموع لشدة إيمانه بأن جزء متصل تمام الاتصال بهذا المجموع ، وأن كل خير يصيب هذا المجموع هو خير له ، ولو لم يعد على شمله ، من الجهة المادية ، بكثير ولا قليل !

وبعد ، فلقد يأخذك أشد العجب إذ ترى بلادنا ، والحمد لله على السراء ، سباقة إلى اقتباس أحسن النظم فى أكثر مرافق الحياة ، وسن أحكم القوانين وأدق اللوائح ، ووضع أجل المشروعات فى مختلف نواحي الإصلاح ، مما من حقه أن يكفل لنا الأمن ، والدعة ، والرغد ، والغنى ، ورفع المستوى العلمى والثقافى ، وتحريك الأيدى المعلقة ، ومنع التشرذ والتسول الخ . . . مما لا تطمع أمة على ظهر الأرض فى مزيد عليه ، أو تتطلع إلى سعادة تتراعى وراءه ؛ ومع ذلك فنحن نحن ، والحمد لله على الضراء ، لا نكاد نتزحزح فى شئ أو نريم .

سر هذا ، فى مذهب الأستاذ دياب ، أن الإصلاح لا يجدى إلا إذا تهيأت لتقبله النفوس ، بحيث يتلقاه الجمهور راضياً مغتبطاً . وهذا حق لا ريب فيه ، على أن هناك علة جوهرية تتقدم هذه العلة ، وهى التى أحيس عليها بقية الكلام ، وهذه العلة هى أن الخمسين أو الستين عاماً التى عشناها محرومين السلطان ، معفين من الاضطلاع بالعظائم ، مقالين ، بالضرورة ، من احتمال التبعات — هذه السنون الطوال التى عشناها عيشاً آلياً أضعفت فينا الشعور الحق بالواجب إلى حد كبير !

نعم ، لقد أضعفت فينا هذه السنون الشعور الحق بالواجب إلى حد أن أصبح العامل منا إذا عمل ، سواء فى الأسباب العامة أو الخاصة ، لا يكاد يشعر بأنه يؤدى واجباً ؛ وإنما يسوقه إلى علاج ما يعالج خوف المسؤولية ، وحسبان العواقب المادية . وكذلك جعل

سعيينا يتحول إلى الاشكال والأوضاع ، ما دامت هذه الهياكل تسقط
 عن المرء التكليف ! أما اجتماع النفس ، وحد العزم ، وتجريد المهمة
 لأدراك الأغراض ، وإصابة الأهداف التي شرع لها المقنن ما شرع ،
 وأعد لها المصلح ما أعد ، فلقد صرنا من ذلك أبعد ما نكون .
 الأمر كله لا يزيد عندنا ، مع الأسف العظيم ، على ملء الاستمارة ،
 أو سد « الخانة » ، أو « تخليص القلم » كما يقولون ، وعلى ذلك يستحيل
 كثير مما نعد من وسائل الإصلاح هياكل لا يدب فيها شئ من الحياة ؛
 ولأضرب لك ، يا سيدي القارىء ، بعض الأمثال ، لا أعدو فيها
 ما يقع لسمعك وبصرك في كل صباح وفي كل مساء .
 تصدر الأوامر المشددة إلى رجال البوليس بمنع التسول في
 الطريق ، وكف الغلمان المشردين من جامعى الأعقاب ونحوهم ،
 فإذا الشرط يجدون ويجهدون ، حتى تكاد تشعر بأن القاهرة مثلاً
 قد خلت من كل متشرد أو شحاذ . وقد تظل على هذا الشعور أياماً ،
 وقد تظل كذلك أسبوعاً ، ثم إذا المتسولون والمتشردون يظهرون
 لعينيك رويداً رويداً ، وهم يقومون بمهمتهم الشريفة بعين جندي
 البوليس .

ذلك بأن رئيسه كان يشدد عليه ، ويطالعه الحين بعد الحين ،
 فلما فتر عنه فتر هو الآخر عن الآخرين .
 يقضى النظام الحكومى بأن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم في وقت
 معين ، وألا ينصرفوا عنها إلا في وقت معين ، بحيث يجزى من تأخر
 عن الأول ، ومن تقدم على الثانى ، وقد تضبطهم بدفتر أو « بساعة »

ترقم وقت حضورهم مثلاً ، وذلك رغبة فى سرعة إنجاز ما تعالجه المصالح من وجوه الأعمال ، وأنهم لينفذون هذا النظام راضين أو كارهين ؛ ولكنك ، مع هذا ، تجد المسألة ليس من شأنها أن تشغل من وقت الموظف ساعة ، أو بعض الساعة ، تلبث بين يديه الأيام ، بل الأسابيع ، بل الشهور فى بعض الأحيان ، وكذلك تعوق المصالح العامة ، وكذلك تتعطل مصالح الناس .

ذلك بأننا نحضر فى الميعاد ، وننصرف كذلك فى الميعاد ، ألسنا قد خرجنا من العهدة ، وأما حتى سوء المقال ؟
ولقد يكون بعض الموظفين مرهقين بكثرة ما يعالجون من الأعمال ، ولكنهم ليسوا كثرة على كل حال .

وقس على هذين المثالين ما تهبأ لك القياس على أننى لا أحب أن أدع الكلام فى هذا المقام قبل أن أضرب مثلاً ثالثاً قد يجهله كثير من القراء . ولعل فيه ما يروح عنهم بعد ذلك الحديث الأليم ، وإن كان هو أيضاً لا يخلو من العظة والاعتبار .

زعموا أنه فى عهد « السلطنة » صدرت الأوامر إلى رجال الإدارة بمصادرة جميع الأسلحة التى يحرزها الأهليون ، فجعل حضرات رجال الإدارة وعلى رؤوسهم حضرات مأمورى المراكز يتبارون فى تنفيذ هذا الأمر ، استباقاً إلى إدراك الخطوة ، وتبوى منزلة الرضا عند من فى يدهم السلطان .

ويسمع المأمور أن زميله فلاناً جمع من بلاد مركزه خمسة آلاف بندقية فى خلال الشهر ، فيأبى هو إلا أن يجمع ستة آلاف ، وهكذا ،

ويستمر التنافس بين حضرات المأمورين في جمع البنادق حتى أقبلوا على العمد والأعيان يكلفونهم الهبوط إلى القاهرة لشراء كل ما تيسر لهم شراؤه من الأسلحة القديمة في سوق السلاح !

وأخيراً ، عز على أحدهم ، ألا يعزهم جميعاً ، ويظفر دونهم من الخطوة بأعلى مكان ، فحشر إليه كل النجارين والحدادين في مركزه ، وكان في الوجه القبلى . وتقدم إليهم بأن يتفرغوا من كل ما بأيديهم إلى صنع بنادق لا تزيد على كعوب وأنابيب ، وشئ يشبه الزناد . وكذلك تم له أن يورد في خلال عام ، وبعض العام ، نحو مائة ألف بندقية مصادرة من الأهلين !

ويشاء الله أن يرقى هذا المأمور ، في إثر ذلك ، إلى منصب وكيل مديرية ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأعزز على أن أجلو عن نفوسنا هذه الخلال ! وما بي ، شهد الله ، إلا أن نتفطن إلى أمراضنا لنسعفها بالدواء الناجع إن شاء الله ، والله در القائل : « أمر مبكياتك لأمر مضحكاتك » ، فان من أبطال اليوم أضحكك في الغد ، وإن من يضحكك اليوم لمبكيك طول الأبد . على أنني لست اليوم متشائماً ، بل إنني متفائل ، والشكر لله ، أعظم التفاؤل ؛ متفائل لأننا أنشأنا ندرك واجبنا ، ونمهد لألوان التبغات عواثقنا من يوم صار إلينا السلطان في بلادنا ؛ متفائل لأننا جعلنا ندرك ما فاتنا في تلك السنين الطوال ، فرحنا نستدركه في قوة وعزم ، وأرجو لها مزيداً على الأيام ؛ متفائل لأننا الآن ،

ولا ريب ، فى نهضة ترسل الحياة دراكا فى جميع نواحي الحياة .
وحسبنا أن كنا إذا سيق الشاب من أبنائنا إلى الجندية ، شيعة
أمه وإخوته وعماته وخالاته ، كما يشيع أعز الموقى ، وماذا بعد
النواح والعويل ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب ؛ حيث لا حرب
ولا قتال ، ولا توقع حرب ولا قتال ؛ إن هو إلا تدريب عسكرى
لاستعراض فى هذا المهرجان أو ذلك المهرجان ؟

أما اليوم والسيوف مسلولة ، وأفواه المدافع مفعورة ، والموت
يتخطف بلا حساب من البر والبحر والهواء ، فهؤلاء شبابنا ، بل
هؤلاء كهولنا يتبارون جاهدين فى إدراك الشرف بحمل السلاح ،
فاذا شيعهم أهلهم فكما تزف العروس ، وماذا أبعد أن (الزغردة)
وأحلى الغناء ؟

نحن فى نهضة قومية جلييلة ، أرجو أن تجدى علينا ، أول ما تجدى ،
قوة شعورنا بالواجب ، ومسارعتنا ، بباعث من أنفسنا ، إلى القيام
به لأنه الواجب ، لا طمعاً فى ثواب ، ولا خوفاً من عقاب . وأن
يكون ذلك الفتح فى القريب جداً ، إن شاء الله .

في الإصلاح أيضاً

سمعت من الراديو في ليلة من ليالى هذا الأسبوع أن زعماء الأحزاب في إنجلترا ، وقادة الرأى فيها ، قد اجتمعت نيّتهم على أن يقوموا بحملة شديدة في جميع أرجاء الجزيرة يشرحون فيها للشعب الانجليزى أغراض الحلفاء من الحرب ، وكيف خاضوها ولماذا غامروا فيها ؟

أما أن زعماء الأحزاب على اختلاف مذاهبهم وتفرق نزعاتهم ، يتفقون على هذا ويبادرون إليه ، فذلك ما لم يقع عندى موقع عجيب ، لأن وطنية الانجليزى هكذا ، وخاصة في الأيام الشداد ؟ وإنما الذى استرعى كل عجبى أن الشعب الانجليزى المثقف المستنير ، ما برح في حاجة إلى من يقفه على السبب الذى حمل دولته على الاشتباك مع الألمان في هذه الحرب الضروس .

على أن عجبى لم يطل ، فان الحلفاء إنما أعلنوا الحرب باسم الديموقراطية ، وإنما حشدوا جميع قواهم وكل كيدهم لقمع الدكتاتورية الصائلة المعرّبة في الأرض ، والتي إذا تركت وشأنها لا تنتهى عربدتها وعصفها بالأمم الوادعة عند حد . فمن حق هذه الديموقراطية على الرجال المسؤولين أن يراجعوا الشعب نفسه ، ويدلّوا إليه بحجتهم

فيما أقدموا عليه ، وما يحشمنه في سبيله من التضحيات الضخام ، وأن يبينوا للناس ما عسى أن يكون قد تبهم عليهم من العلل والأسباب حتى يحيطوا بالجليل والدقيق مما لا ضرر في علم الجمهور به وظهوره عليه . وفي هذا فوق ذلك ما فيه من زيادة الاستحسان للحرب ، والشدة على الغرائم للقضاء على العابثين بالحضارة ، المفسدين ، وأقول زيادة لأنه بحسب وطنية الانجليزى أن يسمع من حكومته وبرلمانه النفير إلى القتال ليركب رأسه أو يحتويه ميدان ، سواء في البحر أو في الأرض أو في السماء !

ولا يذهب عنا بعد ذلك أن من أخطر الأسلحة التي يقاتل بها الألمان ، إن لم يكن أخطرها جميعاً ، هو سلاح الدعاية الذي لا يتحسب ولا يتوقف ، ولا يسكن ولا يبرد ، ولا يهدأ ولا يفتقر ، والذي يسلكون به كل بلد ويرمون به كل قرية ، وينفذون به بالرديو إلى كل بيت ووسيلتهم فيه هي الكذب المتوالى ، والأفك المتدارك ، مصوراً في صور ، ومجسماً على أشكال وأوضاع ، قصداً إلى توهين العزائم وإضلال النفوس باليأس . ولا تنس النصيحة الترايبية القائلة : أكذب ، ثم أكذب ، ثم أكذب !

وإذا كان الانجليز هو آخر من تبلغ فيه مثل هذه الدعاية أو تنال من عزمه الجبار على الصراع ، وخاصة إذا كان صراعاً لمجد الامبراطورية فلا شك في أن من الخير ألا يترك هذا الوطنى الشجاع امتطوع وفي نفسه من أغراض الحرب ، التي يحتسب فيها بدمه شئ أو أشياء ! إذاً فليس من العجيب ، أن يجرد من زعماء الأحزاب الانجليزية

وغيرهم من أعلام الرأي حملة لهذا الغرض أو حملات . ولكن العجيب كل العجب ألا نصنع نحن مثل هذا ونحن أحوج إليه بأكثر من الكثير !

وإني أبادر فأقرر أن حملاتنا التي من هذا الطراز لا تحتاج ، والحمد لله ، إلى تظاهر الزعماء السياسيين واشتراكهم في هذا السعى ، لأننا لسنا بحاجة إلى من يدلى إلينا بالأغراض التي من أجلها دخلنا الحرب ، لأننا لم ندخل بعد حرباً ، أما إستحسان الجماهير وشدة عزائمه لخوض الحرب ، إذا أذن النفير ، فانه ليغنيننا في ذلك : « يا قاعد في دارك والعالم في نار » وأخواتها . فلقد انتفخنا استحساناً بكثرة الاستماع إليها كل يوم ، في الصباح ، والظهيرة ، والأصيل ، ومغرب الشمس ، وفي جوف الليل ، حتى أصبحنا لا ندري أين ننفت بعض هذا الذي يغلى في صدورنا من شدة الاستحسان !

اللهم إن الحملات التي تحتاج إليها بلادنا أشد الاحتياج إنما هي حملات إجتماعية مجتة لا صلة لها بالحرب ، ولا سبب لها إلى الحزبية ولا الأحزاب .

نحن ألقينا حرباً أم لم نلق حرباً ، محتاجون إلى الإصلاح في شتى نواحي الحياة . وإذا كان توقع الحرب والاستعداد ، بكل ما في الطاقة ، للحرب لم يلفت نهضاتنا العظيمة عن التطلع إلى كثير من النواحي ، ولم يثن القائمين على الإصلاح عن معالجة ألوان من المشروعات ، قصداً إلى الإصلاح المنشود ، والحتيقي بأمة تتوثب للمجد توثباً ، وتبقى الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة — إذا كان هذا

هكذا ، فإن من الحق علينا ألا نغفل ، أولاً وقبل كل شئ ، حقيقة ثابتة ، هى أساس كل بناء ، وجوهر كل إصلاح ، وهذه الحقيقة هى الثقة ، فإذا لم تكن ثقة فلا بناء ولا تعمير ، ولا إصلاح ولا فلاح . وأحوج ما يحتاج إلى بث الثقة وعقدها فى النفوس هى بلاد الريف على وجه خاص .

وبعد ، فأنت خير بأن أى علاج بعمل أو بتشريع ، يراد به إصلاح شأن الجماعات ، ورفع مستواها العقلى والخلقى ، والخط من أعباء تكاليف العيش عنها وإتياؤها خطأ من أسباب السلوى والرفاهية لا يمكن أن يؤتى ثمرته ناضجة أو فجأة ، فى بعض الأحيان إلا إذا تعاونت عليه الجماعة . ولا يمكن أن تتعاون الجماعة على عمل ما إلا إذا سادت الثقة ، ثقة الأفراد بالأفراد ، وثقة الأفراد بالجماعة ، وثقة الجماعة بالجموع . وهذا كلام بديهى لا يحتاج إلى نظر واستدلال ، على تعبير أصحاب المعقول . وإلا فكيف يتهيأ للأفراد أن يتعاونوا على خير يعمهم ، ويعود على شملهم ، فى حين لا يثق أحد منهم بأحد ، ولا يقدر فيه صدق النية ، ولا رغبة الخير لغيره ، فرداً كان أو جماعة ؟

وهنا أرى من واجبي الوطنى أن أصارح بحقيقة مؤلمة ، ولكنها هى الحقيقة ، الحقيقة الواقعة ، التى لا يجدى فى زوالها تجاهلنا ، تخففاً من ألم الشعور بها ، أو تظاهراً بالوطنية المزيفة المزورة . هذه الحقيقة هى أن حكم الاستبداد والظلم الذى خلت به القرون الكثيرة ، قد طبعته على سوء الظن وفقدان الثقة ، سواء بالأفراد ، أو بالجماعات ،

أو الحكومات . ولذلك تراه شديد الحذر في غير موضع لأى حذر ، حتى لقد يستشيرك في بعض شأنه ، فتشير عليه بالرأى صادقاً مخلصاً ، فيعدل فوره إلى عكسه لأنه لم يقدر فيك إلا غشاً وخديعة وكيداً . إذاً فالخير كله في العدول إلى مانهيته عنه ، وحذرتة منه .

ولا شك في أن أبلغ ما يقعد بالفلاحين المصريين عن التعاون على ما يجديهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويعود بالخير الكثير عليهم ، هو فقدان الثقة بينهم ؛ ولقد تراهم يساهمون في أعمال تعاونية ؛ ولكننا نكون كذابين وغشاشين ، ومدافعين لكل إصلاح اجتماعي يراد إذا زعمنا أنهم يخفون إليها من تلقاء أنفسهم ، أو بباعث من شعورهم وتقديرهم لما فيها من نفع وخير . ولكن فتش عن العمدة ثم فتش عن المأمور ، ثم فتش عن المدير ، ولعلك محتاج إلى التفتيش أيضاً عما وراء المدير !

ولعل في غنى عن إيراد الأمثلة على هذا ، فهي من الكثرة والحضور بحيث يعد إيرادها ضرباً من العبث ليس فيه غناء ! على أننى أروى في هذا الباب حكاية لا تخلو من تفكيه ، أرى القارئ محتاجاً إليه بعد كل هذا الجد الأليم ، وهو على كل حال من باب « وشر البلية ما يضحك » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! من ثلاثين سنة أو تزيد قليلاً بدا لبعض مديري الأقاليم ، أو أنه في أغلب الظن قد أوعز إليه من بعض السلطات العليا ، أن يدعو من قبله من الأهليين إلى المساهمة في عمل ذى صيغة اقتصادية ، تغل المائة من رأس ماله أربعة في العام . ويلح المدير كما هي العادة

على مأمورى المراكز ، ويلج هؤلاء على عمد القرى ، ويلج هؤلاء على الأهلين . ولم يكن فى يد هؤلاء فاضل من مال ، إذا لم تكن السنة سنة رخاء . فإذا لعمري يصنعون ليتعاونوا على هذا الخير الاقتصادى العظيم ؟

اللهم لا حيلة لهم إلا فى أن يعوذوا بالمرايين ، فيقتربوا منهم المائة بخمسة عشر ، وبعشرين ، وبثلاثين ، ليشرروها فى هذا المشروع المبارك الذى تغل مائته فى العام الأربعة لا تزيد !

وهذه الحكاية ، ولا ريب ، ستذكرك حديث جمع السلاح فى عهد السلطة ، وقد أوردته عليك فى « الثقافة » من بضعة أسابيع . وهذه وتلك إذا اختلفتا فى الموضوع فكلتاهما تلتقيان فى الدلالة على الأسلوب الذى يجرى عليه حكام الأقاليم فى تنفيذ المشروعات التى يراد بها الإصلاح من أى نوع كان ، وهذا من شأنه حتما أن يزيد خلة سوء الثقة التى طبع عليها الفلاح المصرى من الزمان البعيد !

ومن أغرب الحوادث التى صادفتنى فى هذا الباب ، أننى ذات عشية ، وذلك من نحو اثنى عشر عاماً ، طلبت ميدان السيدة زينب ، رضى الله عنها ، لأستقل الترام إلى محطة مصر ، إذ كنت أسكن فى خط المطرية ، فرأيت خلقاً كثيراً ينتظرون ، وتبين أن الترام تعطل فى بعض الطريق لأمر ما ، وطال انتظار الناس ؛ وكلما تقدم الزمن كثر المنتظرون . وجعلوا ينتظمون جماعات يتحدثون فى أمر الترام ثم فى غير الترام . وفيما هم كذلك إذ يقبل اثنان من الفلاحين ،

تضطرب أسنانهما بين الأربعين والخمسين ، فيسأل أحدهما أول رجل من أول مجموعة يلقاها عن موقف الترام الشاخص إلى باب الحديد ، فيدله عليه ، ويشير بيده إليه ، فيسأل من يليه السؤال نفسه فيجيبه بالجواب نفسه ، ثم يسأل من يليه كذلك ، فيكون الجواب ، بالضرورة كذلك . حتى إذا فرغ من سؤال هذه المجموعة فرداً فرداً ، تولى عنها وأقبل على غيرها يسألها هكذا ، وهكذا . وأنا في أثناء ذلك ألاحظه ودمي يغلي من الغيظ في عروقي . ورأيت من الخير أن أبعث الطمأنينة في نفسه ونفس صاحبه ، فاكسب الأجر في هداية السائل الضال من جهة ، وأريح نفسي من شهود هذا اللاحاح الشنيع من جهة أخرى .

وتقدمت إلى الرجل وأخذت بيده ، وجررته إلى الموضع الذي كنت أنتظر فيه . وقلت له : يا سيدي ! أنا أيضاً ذاهب إلى الباب الحديد فاركب أنت وصاحبك معي ، وسننزل في الميدان معاً . ويشاء الله ويقبل الترام . ويشب الناس إليه وثباً متسابقين في إحراز المجالس ، ويشب الفلاحان كذلك ، وصادف أن وقع مجلسهما في الدكة التي أمامي من المركبة مباشرة ، ولم يكدا يستقر بهما المقام حتى مال ذلك الرجل السال إلى من على يمينه يقول له : صحيح يا خويا العربية دي رايحه باب الحديد ؟ فيجيبه جاره : أن نعم . . . فيمط عنقه إلى الجالس بجواره ويوجه إليه السؤال نفسه ، فيبادره بالجواب نفسه . فينتقل بالسألة إلى الدكة التي أمامه ، حتى إذا فر الجالسين عليها بالسؤال واحداً

فواحداً لم يرعنى إلا محاولته التعلق بمتكأ الدكة التى أمامه ليبلغ رأسه التى أمامها ، فجذبتة من فضل عباءته وقلت له : يا رجل ! ألم أقل لك إننى أنا أيضاً ماض إلى باب الحديد ؟ فاطمئن وكن حيث أكون !

ووالذى بيده نفسى ، لقد كان جوابه الحاضر العاجل : « ومنين جانى إن ذمتك نضيقة ؟ »

ولقد يكون هذا الرجل غالباً مسرفاً فى سوء الظن بالعالم كله ، ولكن هذه الخلطة على أى حال ، شائعة فى سواد الفلاحين المصريين .

وبعد ، فيأبها العاملون ! إذا كنتم تبغون الإصلاح حقاً ، ولست أشك فى أنكم تبغونه حقاً ، فعليكم أولاً أن تقتنعوا الفلاح ، على وجه خاص ، أنه ليس وحدة منفصلة مستقلة ، بل إنه عضو من المجموع ، شأن اليد أو الأذن أو الأنف من الجسم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه ، ويموت بموته ، وينعم بنعيمه ، ويشقى بشقائه ، ويعز بعزه ، ويذل بذله !

وعليكم ثانياً أن تشيعوا الطمأنينة فى نفس الفلاح ، وتردوا الثقة بالناس عليه ، فلا يعود ما يرى أحداً من الناس إلا قدر فيه عدواً يكذبه ويغشه ، ويسعى ، جاهداً ، إلى المكر به والكيد له ما وجد إلى ذلك سبيلاً !

وعليكم ثالثاً أن تكونوا موضع الحكام من قلبه ، فلا ينظر إليهم نظر الضحية للجزار ، أو نظر الطير للصائد ، على تعبير الزعيم الأعظم ،

رحمة الله عليه ، بل ينظر إليهم على أنهم كفلوا أمنه ، ومتعهدو رفاهيته ويسره ، ومرشدوه إلى طرائق خيره ونفعه .

فهلم ، جردوا الحملات من الدعاة القادرين ، حتى يمتلخوا من صدور الفلاح ما غرست عهود الظلم والاستبداد . فاذا بلغتم هذا الذي فانتظروا من مساعيكم خير الثمار ، والله تعالى نصير العاملين .

في الطفولة المشردة

من بضعة ليال خلت سمعت من الراديو صدىً من الأحاديث القيمة والأزجال الطريفة التي أقيمت في حفلة « الطفولة المشردة » . وما إن انصرف الراديو إذاعة أخرى ، حتى شغل حديث هؤلاء الطفل المشردين ذهني ، وملك على نفسي .

هذا بصرى يتعثر فيهم في كل شارع من شوارع القاهرة ، وكل جادة من جوادها ، وكل زقاق من أزقتها ، لا يخلو منهم مكان ، في ليل أو نهار !

ناحلو الأجسام ، بادو العظام . حتى كأنما شدت الجلود عليها شداً ، فلم تفسح بينهما لغير العروق مسلكاً . وهذه وجوه مغبرة ، كأنها بعثرت لتوها من جدث . وهذه عيون حيرى ، لا تكاد تقع على شيء حتى تتحول بسرعة ، خشية أن يعتريها المكروه من الناحية الأخرى ، فهي في فزع دائم وروع مقيم . دائمة الوثب والتواري خلف الجدران ، تحسب كل صيحة عليها . ولا تحسب عيناً مفتوحة إلا لتصيبها ، ولا رجلاً ماشية إلا لتركلها ، ولا يداً مرسلتين إلا لتتبيها للبطش بها .

ولقد تحسب ، في بعض الأحيان أنها أصابت من هذا العدو

(جمهرة الناس) الفرة ، ووافقت منه الغفلة ، فسرعان ماتنقّص
إنقضاض العقاب على عقبة سيجارة . فاذا هي التقطتها ولت مسرعة
تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فراراً من الطلب الدّراك ليس
له انتهاء ؛ ولقد تراها في تلك اللحظة ، لحظة الأمن ، وهي تنبش الزبل
في وعائه القائم في بعض الطريق ، لعلها تصيب كسرة أو فضالة
من طعام !

هي أشباح تغدو وتروح كأنها أضغاث حلم ثقيل ! وكثيراً ما تسمع
منها سعالاً ينبيك عما يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع !
جرمٌ يُجنّ أخبت الأمراض ، عليه خرقة تحمل بذور أفتك
الأمراض ، فشأنه شأن ضغت من الهشيم قد اشتعلت فيه النار ، والرياح
ترمي بشره هنا وهناك ، فلا تأتي عليه النار إلا وقد تسعرت في كل
ما حولها من الأشياء .

مخلوقات معدبة ، وهي في الوقت نفسه حشرات سامة تنفشي
العلل والأوباء في جماعات الأصحاء .

والآن يحسن بنا أن نلم إلمامة يسيرة بالناحية الخلقية من هؤلاء
الطفل المشردين . فليس الخطب في الصحة بأشد من الخطب في
الأخلاق . وأنت خير بأن هؤلاء لا يخرجون إلا من أخط البيئات ،
وأشدّها جهلاً ، وأعظمها إمعاناً في الفقر والأعواز . وهل يبعثهم على
عيش التشرّد إلا أن كافليهم قد ثقلوا بهم ، وصفرت أيديهم عما يرزقهم
ويجمع شملهم ؟ ولقد يكون هؤلاء لكافلون من الآباء أو الأعمام

أو الأخوال أو الأخوة الكبار أو أزواج الأمهات — قد يكونون ممن يؤثرون الدعة ، ولا يحشمون النفس سعيًا ، فلا يرون إلا أن يتركوا هؤلاء الأطفال في الطرق ليشحذوا ويجمعوا أعقاب السجائر ، ويسلوا من جيوب الغافلين ما تطوله أيديهم ليظلوا هم في أكسار الأكواخ ضاجعين هائئين !

لم تفتح قط عين مخلوق من هؤلاء على دين أو على خلق أو قانون أو أى شئ من آداب السلوك في هذا العالم ؛ فهو إنسان ، إن صدق هذا التعبير ، مفقود الضمير . هو مخلوق لا يفرق بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ولا يميز الحرام من الحلال ولا يعرف ما يسوغ في العرف وما لا يسوغ . وإذا كان مسوقًا ، بحكم الغريزة الحيوانية ، إلى ما يسد الجوع ، فانه يلتمس القوت بكل ما يتهيأ له من الوسائل ، من تكدي وجمع ما يعود على شمله من أعقاب السجائر ، والفحص عن فضلات الطعام ولو في المزابل ، والسرقه ما وجد إليها السبيل . فاذا رأيتَه مكفوفًا عن السرقه والتلصص ، في وقت ما ، فما كان ذلك لأن له ضميرًا يزجره ، ويخوفه عاقبة السرقه عند الله وعند الناس ، بل لأنه يرى بعينه أن من يؤخذ في سرقه ، يعاقب بالحبس المرهق ، أو بالجلد الموجع الأليم !

ولقد ترى هذا المخلوق ، إذا خلا بأمثاله ، يكثر بما اكتسب في يومه من الرذائل من سرقه أو غش أو إيقاع أذى بمن لم يلحقه منه أذى ، أو بتضليل من استهداه السبيل . يفعل هذا في زهو يشبه الافتتان !

فاذا رأيت هذا منه فاعذره ، فهو لا يدري ألبتة أنه يجرم ، بل أنه لا يدري ألبتة ما الاجرام !

وبعد ، فاذا جاشت في صدر هذا المخلوق عاطفة ، فالحقد الشديد على هذا المجتمع الأثيم الذى لا ينفك يؤذيه أو يحاول أذاه أنى وجده ، ويجهد فى الحيلولة بينه وبين الكسرة يمسك بها الرmq ، ولو اتسمها فى وعاء السرجين ، وينفس عليه حتى بالضجعة فى ظل جدار على عذار الطريق !

هو مملوء حقداً واضطعائاً على هذا المجتمع ولو وجد السبيل لخرقه بنار السعير . فاذا كتبت السلامة من العلل لهذا الشقى الصغير ، وقدر له أن يشب ويكبر ، فانظر أى صائل فاتك من هذا الغلام يكون ؟ فاتك حاشاً له أن يزجره عن أعظم الاجرام زاجر من ضمير أو دين أو من رحمة أو من قانون !

وبعد ، فان هذا الصنف من الأطفال يشغلون مع الأسف العظيم ، نسبة غير يسيرة من مجموع الأمة . فلا ينبغى أن يزهينا إطاراد الزيادة فى العدد ، إذا كان قدر عظيم من الزائدين من هذا الطراز ! على أنه لو تيسر لنا أن نسقط جميع هؤلاء من التعداد ، لأنه لا جدوى منهم على الأمة ، بل لأنهم غير أكفاء للحياة . لو تيسر لنا أن نستطهم من الحساب لهان الخطب ، ولكنهم فى جسم الأمة عضو متأكل ، لا يلبث أن يمتد بالفساد وأسباب العطب إلى ماحوله من الأعضاء . فهم أداة متنقلة جواله لنشر الأوبئة فى الصحة

وفي الأخلاق . إلى ما يؤذون به غيرهم من السرقة والعدوان .
إذا فكيف الحيلة في دفع هذا البلاء الكبير عن البلاد ؟
اللهم إننى لا أظن أن العلاج النافذ في أن نبث الجمعيات ، ونجمع
الأموال لتتلقط هؤلاء الغلطة من الطرق والأزقة ، ونحشرهم في
الملاجئ والمصحات .

نعم ، ليس يجديننا هذا كثيراً في دفع هذا البلاء ، مادامت هذه
البيئات قائمة على هذه الصورة ، وما دامت الأرحام فيها تدفع الأطفال
من غير حساب !

إن الداء لا يجسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحشر ،
مهما تنهيا لنا الملاجئ ويحصل في أيدينا من جلائل الأموال .
لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بايوائهم إلى الملاجئ ،
وتعليمهم ما يفتح عقولهم ، وينير بصائرهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وتمرينهم
في ألوان من الحرف تجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة . لست
أزعم أن هذا القدر لا تجدى ولا يفيد . بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة
على أن هذه الفائدة لا تعدد تلطيف العرض ، ولكنها لا تحسم العلة
ولا تجتث جرثومة الداء .

إن من تدفع الأرحام كل يوم من هذه البيئات هم أضعاف أضعاف
من يستطيع الخيرون السعى إلى إنقاذهم على هذا الوجه ، بحيث يرى
المصلحون أن سيلهم سيظل متدفقاً على المدن لا ينقطع له مدد .
والرأى الذى أرى ، أن يبدأ المصلحون العاملون يبحث هذه
المعضلة الخطيرة من عند أولها ، لا من عند آخرها ، بالنظر في رفع

المستوى العقلى والصحي فى تلك البيئات الوخيمة ، وتقيد الزواج
بالقدرة على كفالة الولد ، أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه
الحياة ، مادامت هذه سبيله فى الحياة . على أنه يحيز ذلك أئمة
الشرع الكريم . ولا خير ، بل من الخير أن يظل هذا الانتقاز
قائماً حتى يكتب لجسم الأمة البرء والشفاء ، من هذه العلل
والأدواء .

في الاجراءات

في آخر تقرير أصدره اللورد كرومر ، المعتمد البريطاني ، عن مصر ، وكان ذلك ، على ما أذكر ، في سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ ، أراد أن يشهر الادارة المصرية تشهيراً قاسياً ، فروى الحادثة الآتية ، قال : ضلت أتانة صغيرة لرجل من أهل قرية في الصعيد الأعلى ، فبادر بابلغ العمدة ، وهذا أبلغ « النقطة » وهذه أبلغت المركز ، وأنشأ المركز يتخذ الاجراءات اللازمة في مثل هذه الحال ، من التحقيق مع الرجل أولاً ، ومع الجيران ثانياً ، ومع من عسى أن يكون قد رأى من الناس أو سمع ثالثاً . ثم جعل يرسل المراكز الداخلة في سلطان المديرية ، وهذه تراجع في الأمر ما دونها من نقط البوليس . وبعد لأي جعل يرسل ، بواسطة المديرية ، المحافظات والمديريات الأخرى . وهذه تراجع ما يدخل في سلطانها من الأقسام والمراكز . وهذه تراجع ما دونها من نقط البوليس فعمد القرى ، وهكذا . ويدوم البحث عن الأتانة الضالة ، على هذا الأسلوب ، بضع سنين ! ولقد فاتني أن أذكر لك أن صاحب الأتانة قوّمها ، في أثناء التحقيق ، بثلاثين قرشاً صاغاً لا تقل ملياً !

ولقد بدا للورد كرومر أن يحصل الجهود والأموال التي بذلتها

الحكومة في هذه السبيل ، وكيف سوت أكواماً من الملفات « الدوسيهات » ، وما برى فيها من الأقلام ، وما نقد من المداد ، وما سود من الورق ، وما اضطرب به البريد في أرجاء البلاد ، وما استهلك من وقت الموظفين الذين لا يحصون عدداً . ومع هذا لم تهتد الإدارة ، إلى تلك الحماره . وهذا مع الأسف العظيم .

وحدثني الثقة الصادق ، وذلك من ثمانية عشر عاماً ، قال : ضلت حماره (أيضاً) لرجل يقيم في قرية من أعمال إحدى المديريات في الوجه البحرى ، فأسرع إلى إبلاغ المركز ، وهذا أحال التحقيق على أحد حضرات معاونى الإدارة ، ولم يمض غير قليل حتى قدم إلى ديوان المركز ، رجل آخر وهو يقود حماره قال إنه رآها على « السكة الزراعية » وليس يقودها أو يسوقها أو يرعاها أحد . فأحيل التحقيق في هذا البلاغ على حضرة معاون إدارة آخر ، وظل ذلك يحقق إبتغاء الاهتمام إلى الحماره ، كما ظل هذا فى الحجرة المجاورة ، يحقق ، إبتغاء الاهتمام إلى صاحب الحماره . وطالت الحال على هذا أشهراً ، ولعلها كانت تطول سنين ، لولا أن المصادفة السعيدة وحدها كشفت عن الصلة بين الحماره وفاقدها ، فردت عليه بعد استيفاء الاجراءات أيضاً !

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالأياب المسافر

وإليكم ، يا معشر القراء ، ما هو ألد وأبدع . . .

لاحظ مأمور قسم ثانى أوقاف ، وذلك فى سنة ١٩١١ ، وكنت يومئذ موظفًا فى سكرتارية ديوان الأوقاف — لاحظ هذا المأمور أنه كلما مر فى ميدان العتبة الخضراء وجد دكانًا بعينه مغلقًا ، وهذا الدكان داخل فى وقف المكاتب والمدارس . فلما كثر ذلك وطال عليه الزمن ، كتب إلى الديوان العام يسأل عن السبب فى انغلاق هذا الدكان تلك المدة الطويلة ، فى حين أنه مما يغل أغلى الأجور ؟

وانتهت المكاتب إلى القسم المختص ، ولكنه بعد البحث والتفتيش الأسابيع أو الأشهر ذات العدد ، لم يهتد إلى السبب أيضًا . فجعل يراجع الأقسام الأخرى التى يقدر فيها علما بالخبر ، واحداً بعد واحد ، فلم تهتد هى الأخرى إلى شئ أبداً !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، تنبه أحد الموظفين إلى أن دكاناً من دكاكين وقف المكاتب والمدارس فى العتبة الخضراء كان يقوم فى شأنه نزاع بين الديوان وبين المستأجر ، وهو من رعايا إحدى الدول الأجنبية .

وهنا جد القسم فى الطلب ، وأنشأ يقص الأثر أعنى أثر الورق ، حتى انتهى إلى أن ذلك النزاع رفع إلى المحكمة المختلطة وموضوعه تأخر المستأجر عن أداء الكراء . وبعد الحكم ابتدائياً عليه بأداء المتخلف والاخلاء ، رأى أن الرجل قد يبعد أجل التسليم باطالة مدة النزاع ، ولا يعرف له مال يرجع عليه ، وهو لم يدع فى الدكان إلا بضعة كراسى ونضداً (تراييزة) من القش ، وكل ذلك لا يقوم بأجر أسبوع واحد من أجر هذا الدكان . فرأى قسم القضايا ، إقتضابا

لهذه الخسائر أن يصلح هذا المستأجر على تسلم الدكان . أما المتأخر من الكراء فالعوض فيه على الله !

المفتاح في الدسييه

ولما اهتدى أخيراً إلى حضرة المحامي الذي تولى الصلح عن الديوان ، وسئل كتابة عن مفتاح الدكان ، وقع « أشر » على الورق رحمة الله عليه ، « المفتاح في الدسييه » ! وكذلك تهيأ فتح الدكان ، بعد ما أصداً غلقه طول الزمان !

على طرف وقفه

على أن الرواية لم تتم فصولاً ، فانه لم تمض بضعة أسابيع على هذا الكشف الأثرى الخطير « المفتاح في الدسييه » حتى رفعت إلى المجلس الأعلى مذكرة توج جبينها بهذا العنوان : « أطلب رفع مبلغ . . . على طرف وقفه » ، وهذا تعبير مصطلح عليه ، كما عرض ما يدعوا إلى التجاوز عن قدر من المال عجز الديوان عن تحصيله لافلاس أو هرب أو نحو ذلك .

أتدرون ، يا سادتي القراء ، ما مقدار هذا المبلغ الذي رفع على طرف وقفه في هذه القصة الطريفة ؟ إنه لا يزيد على بضع عشرات وأربعمائة وألف جنيه فقط لا غير !

ولقد كان هناك إلى وقت قريب ، تقليد مأثور ، مقدس مرعى

عند الكثرة من موظفى الحكومة . وهذا التقليد المقدس هو « ركن » الورق فى الأدرج قبل إنجازہ والنظر فيه . وهذا « الركن » تتفاوت مدته بتفاوت العوامل التى تضطر الموظف إلى استخراجہ وتحريكه . فإذا ما بادر أحد الموظفين بانجاز ما بين يديه من غير قوة مرغمة قاهرة ، اتهم من هذه الكثرة بالغفلة ، وعد « غشياً » حيناً ، ومجازفاً أحياناً !

وبسبب تعطل مصالح الناس ، بحكم هذا الحال ، وضياع المنافع عليهم ، فى بعض الظروف ، نجمت فى مصر مهنة لا أحسبها معروفة لأية أمة من أمم العالم ، وكانت تدر على محترفيها المال بقدر غير يسير . ذلك بأنك إذا طفت فى الصباح بالمقاهى التى تقرب من دواوين الحكومة ، رأيت طوائف من الأفندية يجلسون وعيونهم تشك كل صادر ووارد من الناس ، ومن سكان الريف على وجه خاص . وهم يدعون : « الأفندية اللى يجرؤوا وراء الورقة » .

فإذا ما كانت لأحد حاجة فى بعض الدواوين أتخف أحد هؤلاء بريال أو بنصفه مقدماً « ليجرى عنه وراء الورقة » وسرعان ما يشمر عن ساعده ، ويهبط على حضرة الموظف الذى بين يديه المسئلة ، أو على الصحيح فى درج مكتبه . ولا يزال به حتى يستخلص الأوراق منه . ثم يمضى وراءها إلى موظف آخر ، ثم إلى آخر ، وهكذا لا يزال يحجل بين سى مرسى أفندى ، وسى عبدالتواب أفندى ، وسى خلة أفندى ، وسى متى أفندى يلح فى رجاء هذا مرة ، ويضحك هذا مرة ، ويروى لذلك حديثاً طريفاً ، ويتشفع إلى آخر بأحب الناس

إليه وأكرمهم عليه ، حتى يفضى بالمسئلة إلى الرئيس المختص ، وكذلك ينتهى الأمر بسلام . ويشترى الرجل وقته ، ومنافعه وكرامته التى تبذل كلما طلع على موظف بين يديه أمره يشترى الرجل كل هذا بدراهم معدودات ، ويستخرج حقه من لهوات الآساد ، والله على كل شئ قدير .

وبعد ، فلقد كان هذا كله ، وكان أعجب من هذا كله ، فى وسائلنا الادارية ، إلى وقت قريب . أما الآن فلا أدرى ولا أظن . فإذا كانت قد بقيت منه بقية فأحر بهذه النهضات القوية أن تكتسحه بين يديها ، وتطهر الدواوين الحكومية من هذا التعفن الذى يضرب فى مصالح الناس بهذا القدر الجسيم .

خواطـر في الصيف

بين الصيف والحر

قبل كل شئ ينبغى أن نفرق بين الصيف والحر . فالصيف هو صدر من العام له من الأيام مبدأ ونهاية رسميان ، يعرفهما أصحاب الفلك ، وتدل عليهما التقاويم ، أما الحر فهو وقدة الجو وسخونة الهواء . على أن بين الصيف والحر علاقة هي أن الصيف ظرف والحر مطروف ، أعنى أن الحر يقع ، عادة في فصل الصيف ، كما يقع البرد ، عادة ، في فصل الشتاء ، وإن كانت تختل هذه العادة في بعض الأحيان ، فيلغح الحر في هذا كما يقرس البرد في ذاك .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقرر أن من التجوز الشديد تقسيم الفصول في بلادنا إلى أربعة ، أسوة بكثير من البلاد الأخرى : صيف ، فخریف ، فشتاء ، فربيع . وأقول : من التجوز الشديد ، لأننا لا نكاد نحس هنا إلا حراً وإلا قرأ ، فإذا اعتدل الجو في بعض الأيام فذلك نادر لا يستقيم به القياس في الأحكام . وإلا فخبرنى بعيشك أين الربيع في مصر ؟ اللهم إن أكثره لمحدود في وقدة الحر ، وصدره منكمش في قبضة الشتاء !

ثم أين الخريف ؟ أستغفر الله ، فالخريف في بلادنا أعرف من

أن تلتبس له وجوه التعريف ، فهذه الحميات أشكال وألوان ، وهذه الأوباء صنوان وغير صنوان ، من تيفود وتيفوس ، ومن أنفلونزا تقصف الأعمار وتحترم النفوس .

الصيف

ولقد تسألنى : أى الفصلين أحب الفصلين إلى أهل مصر ؟ فأجيبك من فورى غير متردد ولا متفتر : إن أحب الفصلين إلى المصريين ، على وجه عام ، هو الصيف . الموسرون والبائسون فى هذا الايثار بمنزلة سواء ، وإن اختلفت فيه السبل ، وتباينت الأسباب والعلل .

فالموسرون يحبون الصيف لأنهم يشدون فيه الرحال إلى أوربا ليصيبيوا من اللهو واللذة إلى منتهى الجهد ، ويبلغوا الصبا أو التصاى غاية الأثر ، فاذا صرفهم عن الشخصوص إلى الغرب صارف ، فهناك المتسع فى قصور الرمل ، والتقلب فى المتع على سيف البحر (البلاج) . وأما ثلاثة أرباع الموسرين وأنصافهم ، وأعنى جمهرة الموظفين ، فيحبون الصيف لأنهم يتحررون فيه من كد العمل ، ويخرجون فيه بالاجازات السنوية إلى الغرب أو إلى الثغور المصرية ليصيبيوا مايصيب الموسرون ، فمن لم يستطع هذا ولا هذا فحسبه الراحة والدعة ، وهيهات أن تضيق به الدنيا وفى الضواحي سعة . وطلاب العلم وسائر التلاميذ ، فى الصيف عتقهم من رق المذاكرة والدرس ، وإطلاقهم من إसार الجسم وإसार النفس .

هذا ما كان من أمر الموسرين وأشباه الموسرين ، والوجه في
في إيثارهم للصيف وتعجلهم لمقدمه طوال العام . أما المقترون البائسون
فلعل حبههم للصيف أشد ، وإيثارهم له أعظم . فقد علمت ، حفظك الله
أن برد الشتاء يحتاج إلى التدثر وتلفيف عامة الجسم بمختلف الثياب ،
وقد لا يغني منها إلا المتين الصفيق ، كما يحتاج إلى اتخاذ الفراش
وإثقال الغطاء ، والتماس وسائل الدفء خلاصاً من حدة البرد وتقديماً
من أذى الضر .

ثم إن البرد كما تعلم ، يفتح اللهاة ويهيج الشهوة إلى الطعام ،
ويسرع بالهضم ، وتدعو الطبيعة فيه إلى موالاة الأكل تحريكاً للدم ،
وبعثاً للحرارة في الجسم ، وكيف للمعسر ، إذا واثق نفسه بكل هذا
بمواتاة الولد ، وسد جوعهم ونهمهم ، ومطوعة شرهم وقمرهم ،
إلى ما يقتضي من النفقة في الثوب والرداء ، والفرش والغطاء ، والقدة
والاصطلاء ؟

أما الصيف وحبذا وقدة الحر في الصيف ، فهي كما تعلم أيضاً ،
كما يسد اللهاة ، ويقبض شهوة الطعام ، ويفتر الجسم ، ويخذل
المعدة ، ويأبى عليها الحركة إلا بقدر يسير . فهي في هضم الطعام
محتاجة إلى الزمن الطويل ، فإذا زاد الطعام في المقدار أو أكثر فيه
الدم أثقلها وأبهظها ، وأغناها بالوجبة الواحدة في اليوم الأطول .
وأما الرداء فخير له أخفه وأشفه . وأما المنام فعلى جلدة السطح
أو بين يدي الباب ، وإلا ففي عذارى الطرق متسع للجميع .
أصدقت الآن أن الصيف أحب إلى الفقراء أيضاً ، وآثر عندهم

لرفقه فى أبواب المعيشة بهم ، وتخفيفه فى وجوه النفقات عنهم . ولا تنظن أن وقدة الحر ترهقهم كما ترهقك ، وأن شدة القيظ تبلغ منهم بعض ما تبلغ منك . فانه لا يصنع بك هذا إلا تعود الترف وإرسال النفس فى فنون النعيم . وحسبك أن تتفضل بزيارة شارعنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم حلقت حرارته إلى السادسة والأربعين ، لترى هذا الذى يحمل على رأسه هرمًا من البرتقال أو الموز أو التفاح . وهذا الذى يدفع بين يديه قطارًا من « الشام » أو « العجور » أو « الخيار » . وذاك الذى يقود برزونًا يجر عربة بترول ، وهو لا يفتأ يلهمه بالسوط ليتحرك ، لأن هذا البغل إنما يضيق بالحر ويتخاذل به بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن صاحبه . بهذا لو جزت بشارعنا فى تلك الساعة وسمعت من حناجرهم ذلك الصرخ ، لتشفق على النوام من سكان الأرض والايقاظ من سكان المريخ ، ولجزمت من آن واحد من هؤلاء لو كان يستشعر قيظًا أو يحس حرًا ، ما استطاع دفعًا ولا استطاع جرًا ، ولكن جهده نفثًا ، وصياحه لهثًا ! آمنت بالله المعين !

مصايف

على أن الله الذى قدر الأرزاق على بعض عباده قد مد لهم أسبابًا من المتاع والسلوى والتفرج من كد الأيام . وإن للمعسر من أهل القاهرة وغيرها من كبريات المدن لمصايف جميلة لا يكلفهم غشيانها من النفقة جليلا ، بل إن شاءوا لا يحشمهم فتيلًا . وحسبك

أن تسلك في ساعة الغروب من أيام الصيف هذه « الكبارى » التي
تصل بين شقى القاهرة ، لترى أفاريزها تموج موجاً بالواقفين
المطلعين على النيل ، المتسمين نسيمه العليل . وأكثرهم من الشباب
وأكثرهم هؤلاء تجدهم ! *chacun avec sa chacune* ومن سنين
يسيرة كنت ترى جميع هذه « الشاكينات » ملففات في الملاء .
أما الآن ، فترى كل ملاءة قد انحسرت عن فستان أو شبه
فستان !

وقلت لك إن هذه المصايف لا تجشم الرواد شيئاً ، فالرجل هي
المركب في الغدو والرواح . والمرتع ظهر « الكوبرى » فاذا أتحتف
« الشاكينة » من الحلوى بما يساوى « تعريفة » ، فخبذا الهدية الثمينة
والتحفة الطريفة !

وأخيراً فأننى لا أحب أن أنصرف عن هذه الخواطر العجلى دون
أن أثبت ملاحظة ، أو على الأصح ، دون أن أدل على ظاهرة طبيعية
اختص الصيف بها مصر دون سائر بلاد الله .

هذه الظاهرة العجيبة أن هناك اتفاقاً وثيقاً لا شك أنه أوثق
من اتفاق دولتى المحور ، بل إنه لأشد وثاقة من الاتفاق بين إنجلترا
وفرنسا القائم فى هذه الأيام . وهذا الاتفاق الوثيق المتين معقود
بين الطبيعة و « وابورات » الشلج فى مصر . ومقتضاه أنه بمجرد ارتفاع
درجة الحرارة إلى الحد المرهق تنكسر « وابورات » الشلج من تلقاء
نفسها كسرا لا يجبره إلا اعتدال الجو وابتعاد الهواء . و برغم أصحاب
تلك « الوابورات » و برغم الشلاجين المساكين يرتفع ثمن « اللوح »

إلى العشرين والثلاثين والأربعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم .

أصدقت الآن أن هذا الاتفاق أوثق خمسين مرة من الاتفاق
بين من ذكرنا من الدول !

وحاشا أن يبلغ اتفاق الساسة مهما كانوا من الأبرار ، إتفاقاً
تعقده الطبيعة وتبرمه الأقدار !

في التليفون

لقد أدر كنا من صدر نشأتنا جمعيات كانت هنا وهناك من أحياء القاهرة وغيرها من المدن الكبرى . وهذه الجمعيات كان يغشاها كل من يشاء ، إذ تلتقى فيها الخطب ، وتعقد المناظرات ، يتولى أطرافها في الغالب ، متقدمو الطلاب ، وحديثو العهد بالتخرج من المعاهد والمدارس .

ولعل أهم الأغراض من قيام تلك الجمعيات ، إذا لم أقل غرضها الفذ ، إنما كان التمرين في الخطابة ، وتعويد الألسن الانطلاق في الجوامع والمحافل . فكنت تسمع المحاضرة في منافع الهواء ، وفي مزايا الشمس ، وفي فضل الماء على الخليقة مثلاً . كما تسمع المناظرة في المفاضلة بين السمك واللبن ، ولا تنسى « فيض المنى » في تفضيل السمك على اللبن » ، والموازنة بين القطار والتلغراف « السلك والوابور » .

وأرجو أن تصدقني إذا زعمت لك أنه كانت تعقد المناظرات أيضاً في المفاضلة بين العلم والجهل ؛ على أنه كان يتقدم للكلام في تفضيل الجهل على العلم من يظن أنه أنطق المتناظرين لساناً ، وأطلقهما بياناً ، وأسطاهما قولاً ، وأحضرهما حجة . حتى إذا ما ظهر على خصمه ،

وأدحض على فضل العلم دليله ، كان ذلك دليلاً على فضله هو وسبقه فى حلبة البيان ! وما ضر مادام الغرض التمرين فى الخطابة ، وشحذ ملكة الجدل ، والتماس وجوه الأدلة على صحة الرأى واقعاً حيث وقع من الصواب والسداد ، أو من البطلان والفساد ؟

وبعد ، فلا ريب فى أنه أصبح سمجاً كل السمج بكاتب أن يقول اليوم فى منافع التليفون ، وما يوفر من الوقت فى الكثير من قضاء الحوائج ، وما يسرع بالأسعاف فى الكوارث ، ويعين على ضبط الأمن وكف العوادي ، ويؤذن بالأسعار ، لوقتها ، فى التجارات الهامة فلا يغبن بائع ولا شار ، وييسر المشافهة بين الأقرباء ، والأصدقاء ، والأحباء ، على بعد المسافة ، وطول المدى ، الخ . الخ . الخ . إذا كان سمجاً بكاتب أن يعرض لمثل هذا فى الزمن الذى نعيش فيه ، فما أحسب أنه سمج بأحد أن يشكو التليفون ، وما يبلغ من أعصاب الناس هذا التليفون !

ولعل قائل يقول : ما بال فلان يعبر عن هذه الأداة بكلمة « تليفون » ، ولا يعبر عنها « بالاريز » التى اختارها الجمع اللغوى ؛ وهو أول الناس باتباع ما يقر الجمع من تسميات ؟

وفى الحق ، لقد كانت هذه الكلمة شؤماً على الجمع ، وكانت مفتاحاً لكل ما أمطر من تندر وتقليل لا أشك فى أنهما كادا يعوقان سعيه ، إذا لم يكونا قد عاقا منه بقدر عظيم أو يسير ؛ إذ الجمع برىء ، برىء ، برىء ؛ فلا هو أطلق على التليفون إرزيز ، ولا هو نظر قط فى لفظة « إرزيز » ، ولا عرض ، ولا عرض ، إلى هذه الساعة ،

لتسمية التليفون وكيف يدعوه . وكل ما فى الأمر أن للمجمع مجلة يصدرها طوعاً لحكم الرسوم الصادر بانشائه . وهذه المجلة مقسومة إلى قسمين : قسم رسمى ، وينشر فيه ما يصدره المجمع من قرارات ، وما ينتهى إليه رأيه فى التسميات والتعبير عن المصطلحات . وقسم غير رسمى يكتب الكتبون فيه من أعضاء المجمع وغيرهم ما بدا لهم من بحوث لغوية ، ويقترحون فيه ما يشاءون من تسميات ومصطلحات ولا يعد المجمع مسئولاً ، ولا يمكن أن يعد مسئولاً عن شئ من هذا ، ولا يقال إنه صادر عنه مجال . وكلمة « الارزيز » ، خيبة الله عليها ، هى من هذه المقترحات فى القسم غير الرسمى ، لا أكثر ولا أقل ، أما « شاطر ومشطور وبينهما طازج » وأخواتها ، فهى من بدع النكتة ، ومن خلق المقلسين !

نعود ، بعد هذا ، إلى التليفون ورزاياه ، بعد أن آمن كل الناس بمنافعه ومزاياه :

التليفون : عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف ، أداة سريعة للتخاطب ، سواء فى قضاء الحوائج ، أو فى دفع الكوارث ، أو فى الاستنجاد فى الأحداث ، أو نحو ذلك ؛ على أن الكثيرين منا نحن المصريين ، والسيدات على وجه خاص ، لا يفرضون له ذلك ألبتة ، بل إن بعضهم وبعضهن لينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية ، كالعود والقانون والبيان ، كما دعاه المجمع اللغوى ، والسمكان مثلاً . فإذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير

صديق ، جعل يتحدث ويتحدث ، ما يسكل ولا يمل ، ولا يتعب
ولا ينصب ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نفس ،
بل لعله فى لذته واستمتاعه أصرح من مستمع إلى عود صناع ، أو
قانون ضارب حسان !

ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته ،
تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام ؛ وما بلغت الدار قط إلا عدلت
من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ثم تكلمت . حتى إذا أذن الله للكلام
بختام ، رفعت السماعة ثانياً ، وافتتحت مع آخرين حديثاً آخر ، وهكذا
حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة ، قامت فجلست إلى صواحبات
الدار ، وما إن تفرغ من شرب القهوة بعد السلام وبث الأشواق ،
وما إلى ذلك ، حتى تهرع إلى التليفون أيضاً ، فتعيد ما بدأت ،
وتستأنف من الأحاديث ما قطعت ، وهكذا ! . . .

قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم ، وأنا جالس
فى غرفة قريبة من آلة التليفون ، بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر ،
فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النير » التى
تطلبها ، فإذا هى ست عشرة ، قد استهلكت جملة الأحاديث فيها
ما يقرب من الساعتين . وأنى أستطيع مطمئناً على دينى وضميرى أن
أحلف لك ، بكل ما يحلف به البار والفاجر ؛ على أنه ما سقطت إلى
أذن من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة ، أو تبعثها حاجة ،
أو تنفع فى أى شئ ، أو تضر فى أى شئ ، أو يترتب عليها فى يوم
من الأيام أى شئ !

وحدثني صديق من الظرفاء قال : كنت جالساً في مقهى (كذا)، وكان ذلك في شهر يولييه ، وكان اليوم شديد الحر ، وبدأ لي أن أتحدث في التليفون إلى صديق في شأن عاجل ، فاذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهداً ، ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، كما يوقع به على نبر الكلام ، أو يمسك « الواحدة » على تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلاً عليه ينتهى ، فلم ينته ، فعدت إلى مجلسي حتى مضى نصف ساعة أيضاً ، ثم نهضت فنقرت له على الزجاج أتعجله فالتفت إلى ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله ، وأشار إلى بالتمهل ، فأمهلت ، حتى سمعته يحيي صاحبه تحية الختام ، ثم لم يرعنى إلا أن يستأنف الحديث فيقول لصاحبه : « إلاقلى » ويمتد الحديث شوطاً آخر ، فاذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلاً ، فتنفست الصعداء ، كما يقولون ، عاد فقال : « لكن ماقلتيلش على كذا » ، وهكذا حتى كدت أخرج من جلدى ، ولم يغضنى أكثر من أن أسمع يقول في وداعه لحادثه : « بكره إن شاء الله نتقابل في محل كذا » ، فاقتحمت عليه المقصورة ، وقلت له : « يا أخى ! لقد سرقك الكلام ، فلقد صرنا بعد بكره ! »

ولاتظن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين ، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الاطالة التليفونية قد تجر أحياناً إلى أخطار ، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار . فلقد يطلبك قريب أو صديق ، أو أى إنسان بينك وبينه عمل ، ليحدثك في أمر عاجل ، فلا يصل إليك ، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة ، وتضيع المنفعة أو تقع المضرة !

ولقد يحدث لبعض أهل الدار حادث من جرح ينزف الدم ، أو يكسر العظم ، أو تسمم ، أو نحو ذلك ؛ فيلتمس طبيب الأسرة في المقهى الذى اعتاد أن يقضى فيه بعض الليل ، فاذا التليفون يتر الساعات الطوال ، مايسكن فى أثنائها لحظة ولا ينقطع ، ذلك بأن « دُعُفًا » من زبائن القهوة يحدث صديقاً . . . فاذا شاء الله ، وبدا له أن ينتهى ، تلقفه منه آخر من طرازه وضربه . وهكذا . . .

هذه بعض رزايا التليفون من ناحية الاطالة فى الحديث فى غير جدوى ولا ضرورة أبداً .

وهناك رزايا أخرى ، نعرض نماذج يسيرة منها ، والله المستعان :

لقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر ، وأهل الدار نيام ، فى السادسة إذا كان الوقت شتاء ، وفى الخامسة إذا كان صيفاً ؛ فيهبون مذعورين ، وقد جفت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، وتداركت أنفاسهم لأن التليفون ، فى مثل هذه الساعة ، لا يمكن أن يفضى بخبر ، بل قل أن يفضى فيها إلا بالبشر الكبير ، والعياذ بالله . ويتقدم أشجع أهل الدار ، ويتناول الساعة بيد مرعشة ، ويقف سائرهم وقفه منتظري الحكم فى الجنايات الخطيرة . ثم إذا هم يسمعون : « لا ، النمرة غلط » ، فينصرف كل منهم إلى سريريه ، أو إلى بعض شأنه ما يتكلمون ، فقد عقد الذعر ألسنتهم ، واشتف دماءهم ، فما يقوى أحد منهم على الكلام .

وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون ، فى هذا

الوقت ، لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب ؛ ثم إدارة الآلة طوعاً له ، فيكفى الآمين كل هذا البلاء !

ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :
— أنت س عطوة ؟

— لا !

— أمال أنت مين ؟

— أما مش س عطوة وبس !

— طيب ما تقول أنت مين ؟

— يا أخى ! أنا لست س عطوة الذى تطلبه وكفى !

— ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجراً أو مصنعاً .)

— لا يا سيدى ، هذا منزل !

— منزل مين ؟

— منزل لا شأن لك به يا سيدى !

— أما شئ بارد ! أما ابن . . . صحيح ! ويسرع إلى قطع

طريق الحديث . والحمد لله !

ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان ؟ فاذا سألته اسمه ،

أبى أن يجيبك ، أو تبدأ أنت أولاً بالجواب عما سأل ، وتراجعه فى هذا

فيلح ويأبى ، إذ العرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو أولاً ،

ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه .

ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فاذا سأل الخادم

عن اسمه ، كان جوابه :

— بس قل له واحد عايزك . ولا يأذن باسمه أبداً !
 ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك بعضهم ، وقد تكون مشغولاً
 جداً ، فاذا استوثق من شخصك ، بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن
 منها أو مثلها ، ثم كررها على ألوان وصور شتى ، ولا يسعك إلا
 أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم ما يروعك إلا أن يفاجئك بهذا
 السؤال :

- طيب أنا مين ؟
- يا سيدى ، قل لى حضرتك مين !
- بقى مش عارف أنا مين ؟
- بماذا تأمر يا سيدى ؟
- لازم تقولى أولاً أنا مين !
- لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل
 معروف وقل لى من أنت ؟
- طيب افكر كده !
- ولا يزال يلون لك هذا العذاب ، أو تخبره من هو ، أو بعبارة
 أخرى لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصه ، وتعرفه نفسه !
 وكيفما كان الحال ، فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأفسد
 تفكيرك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك ، وهكذا
 يكون التظرف ، وكذلك يكون الظرفاء !

أما حوادث الخدم ، إذا كنت غائباً عن الدار ، أو كان متعذراً

عليك الوصول إلى التليفون لوقتك — أما حوادثهم فى تسجيل أسماء المتكلمين فى ذاكراتهم ، وفى تسجيل رسائلهم ، وفى التبرع بالأجوبة عنك ، فأيسرها ما يكدر بين الأخوين ، ويفسد ما بين الصديقين ، ويحبط ما عسى أن يكون لك من سعى ، ويبطل ما عملت من عمل ، لعلك نطت به أعظم الأمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! وبعد ، فإذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئاً ، فانى أسأله أن يعلمنا كيف نمشى فى الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، وأن نلتزم فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام .

وما ذلك على الله بعزیز !

كيف نمشي في الطرق

من الملاحظات ، أو التشهيرات التي كان يتحفنا بها اللورد كرومر في تقاريره السنوية ، أن أكثر الركبان في المدن (يعني ركاب الدواب من الجمال والحمير) إنما يسرون على الطوار (الرصيف) .
أما الرجال (الذين يمشون على أقدامهم) فلا يحلو لأكثرهم السعي إلا في وسط الطريق !

ولو قد بسط في عمر اللورد إلى هذه السنين ، لرأنا قد برئنا ، والحمد لله ، من نصف هذه العلة ، وليس بمستنكر على الله أن يبرئنا من النصف الآخر في بضع سنين !

وإذا كنت أعرض للأخطار التي يستهدف لها السابلة ، في القاهرة على وجه خاص ؛ فليس معنى هذا أنني أعرض الساقة ، على اختلاف آلائهم ، من المسؤوليات ، فهذا سائق سيارة يطير طيراً ، لا يبالي أحداً ولا يبالي شيئاً ؛ كأن الله تعالى قد بسط هذه الأرض كلها وحده ، وصقل له وجهها مستقلاً ، فلا تعترضه حفرة ولا نتوء ، ولا يعوقه شجر ولا حجر . وما تقوله في ساقة السيارات تقول أشنع منه في قادة « الموتوسيكلات » . وأما الغلمان الذين يججلون بالدراجات فأولئك ندع حديثهم إلى القول في سالكى الطرق على وجه عام .

أما الترام ، وما أدراك ما الترام ؛ فكثيراً ما يرى «الكمسارى» بعينه الرجل ، وقد يكون شيخاً كبيراً ، وقد يكون رجلاً مريضاً ، وقد تكون امرأة حاملاً ، وقد يراها تحمل طفلاً ، وتأخذ بيد آخر ؛ قد يرى بعينه أحداً من هؤلاء يهيم بالصعود إلى المركبة ، إذ رجله الثانية لما تنزل ثابتة على الأرض ، فيسرع إلى النفخ في صفارته ، وسرعان ما يتحرك القطار ، وأنف أرواح الناس ، وسلامة جوارحهم من البتر والتهشم ، راغم !

ودعنا من سائق السيارة يضرب بجهد سرعته في زحمة الناس ، إذ هو مقبل بالحديث على من بجانبه أو مولٍ ظهره وجه الطريق ، مستغرقاً في الحديث مع من في داخل العربة .

هذا كله معروف مشاهد ، لا نرى محلاً للاطالة فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، وما لهذا سقنا الحديث ، إنما سقناه لهذه الكثرة الكثيرة التي لا يحلو لها السعى إلا في وسط الطريق ، برغم احتشاده بالمهلكات المتلفات .

ولقد يلتمس ملتمس هؤلاء عذراً بأن الطوارات (الأرصفة) في القاهرة أكثر حفرًا من وسط الطريق ، فهي أدنى إلى عثرة القدم ؛ ولعل آخر يلتمس العذر في أن طواراتنا دائماً أشد وساخة وأكثر قاذورات من عرض الطريق ؛ وهذا ، مع الأسف العظيم ، مالا أحسبه يقع في بلد آخر ! وكيفما كان الأمر ، فإن هذا وهذا لا يصلح عذراً للتعرض ، على هذه الصورة ، لكل ذلك البلاء الحيق !

وإذا تمثلنا هذه الكوارث التي تقع كل يوم في شوارع القاهرة

وجوادها ؛ فان من الظلم الواضح أن نضيفها كلها إلى جنون السائقين ، أو إلى عجلتهم ، أو إلى قلة كفايتهم ؛ بل إن من الانصاف أن نفرض قسماً كبيراً من أسبابها إلى أولئك الساعين على الأقدام ، وإلى أولئك الذين يجعلون بالدراجات في مزدحم الطريق .

وبعد ، فلعل بعض قراء « الثقافة » ما برحوا يذكرون أنني ختمت مقالى السابق « فى التليفون » ، بالابتهاال إلى الله تعالى أن يعلمنا كيف نمشي فى هذه الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، كما يعلمنا فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام . والآن أعرض نماذج مما يجرى فى طرقاتنا وبعضها مما « يشيب الطفل من قبل المشيب » . ولقد عرفت ، بل لقد رأيت ، إن كنت من سكان القاهرة أو ممن يغشونها كيف يهجر الساعون مع أقدامهم الطوارات ، ويتدفقون فى عرض الطريق تدفقاً ، ما يبالى أكثرهم ما عسى أن يعتريه من قدومه أو من وراء ظهره ، أو من يساره ، أو من يمينه من تلك القواتك بالأعمار ، والمفرقات للأعضاء ، والمحيلات للأجسام الصحيحة فى لحظة إلى أشلاء بجانب أشلاء !

ولقد ترى الماشى بين شريطى الترام ، وهو يسمع دويه من وراء ظهره ، إذ السائق جاهد فى دق الجرس وموالاة هذا الدق ، وصاحبنا لا يعدل ولا يتحول ، كأنه استحال هو أيضاً تراماً لا يستطيع السير إلا على الشريط ؛ وفى اللحظة الأخيرة ، اللحظة التى يعقبا البلاء الفاتك ، يسمح حضرته بالتحنس فى تشاقل عظيم ، ثم تراه يعود إلى سبيله ، وهكذا ! . . .

وكثيراً ما ترى ناساً يمشون فى يمنى الطريق وتقبل السيارة فى جريها ، من ورائهم ، والسائق ينيبهم جاهداً إلى إخلاء السبيل بالاعتصام بالطوار ، أو على الأقل ، بالمشى بجانبه ، ينيبهم جاهداً بالبوق مرة ، و«بالكلاكس» مرة ، فلا يسمعون ولا يحفلون ، إذ السائق المسكين أحياناً ، بين ثلاث : إما أن يسرع إلى وقف السيارة فجأة ، وقد تنقلب فى هذه الحالة ، وخاصة ، إذا كانت مسرعة ، وفى ذلك هلاكه وهلاك من معه من الراكبين ، وإما أن يعدل هو عن الطريق مفاداة لهذه العمد الساعية على الأرض . وقد يصطدم بجدار أو حامل مصباح ، أو يدوس من لا جناية له من السائقين ؛ وإما أن يتوكل على الله ويدوس فى طريقه من يدوس من هذه العمد . ولعل هذا أرفق الحلول ، إذا لم يكن من إحدى تلك الحالات الثلاث محيص !

ولقد أذكر أننى كنت ذات صباح شاخصاً إلى الحيزة ، فاذا الترام مزدحم جداً ، وأكثر زاحميه من الطلاب الذاهبين إلى مدارسهم ومعاهدهم هناك ، فلم أصب لى مكاناً إلا وقفة بجانب السواق . ولم يرعنى ، ونحن فى بعض الطريق ، إلا أن أرى رجلاً مقبلاً على الترام من قدامه ، وقد تحرى المشى بين الشريطين ، والسائق يجهد فى دق الجرس له ، وهو لا يعدل ولا يتحرّف ولا يثنى ، حتى إذا اقترب منه الترام ، أو على الأدق ، حتى إذا اقترب هو من الترام ، اقشعر جسدى ، وقف شعر رأسى ، فأسرعت إلى المفتاح ، ورجعته فى عنف ليقف القطار ، فالتفت إلى السائق وقال لى ، فى شئ

من الغضب : ما الذى دعاك إلى هذا ؟ قلت له : ألم تر كيف أن الرجل كان عازماً على أن يدوس القطار في غير إشفاق ! فاشكر لى أن نجيتك كما نجيت نفسى وسائر الركب من هذا الخطر العظيم !

أما الذين يحاولون قطع الشارع من العبر للعبر ، فأولئك شأنهم أعجب وأغرب ، وصنيعهم ألد وأطيّب . ومن الظواهر التى تسترعى النظر حقاً في هذا الباب أنك تجد هؤلاء دائماً مستعجلين جداً ، وشجعاناً مقاديم ، لا يهابون أشنع الموتات في سبيل . . . لا شئ مطلقاً من الأشياء ! . . .

يريد أن يعبر الشارع ، فسرعان ما يعبره ، ما يحشم نفسه الالتفات ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ ولعل أكثرهم يفحص عينيه من وقت العبور ، لكيلا يرى الفواتك الجارية من هنا ومن هنا ، وهذا ممكن ، ولعله في بعض الأحيان حسن . على أن هناك أمراً غريباً ، لا بد أن يكشف العلم عن سره في يوم من الأيام . ذلك بأن الانسان يستطيع أن يفحص عينيه لكيلا يرى ، فهل ترى لآذان هؤلاء الناس جفون أيضاً ، يستطيعون أن يطبقوها لكي يستريحوا من استماع دوى الترام وجرسه ، وزمر الأتومبيل وكلاكسه ؟

وإنك يا سيدى القارئ لترى في كل شارع ، في كل يوم ، وفي كل ساعة ، وفي كل دقيقة ، من لا يرضون أن يطمئنوا في مواقفهم حتى يجوز الترام ، أو تجوز السيارة ، مهما تكن سرعتها وقربها منهم ؛

بل لا بد من القفز أمامها وقطع الشارع فوراً . ولماذا ينتظر المرء دقيقة أو بضع ثوان ، والوقت كما تعرف من ذهب ؟

ولقد كنت في يوم من أيام الأسبوع الماضي أمشي في شارع قصر ابن العيني ، على الطوار طبعاً ، وإذا الترام القادم من ميدان الاسماعيليه يجرى بأخر جهده ، وإذا شيخ مرسل اللحية ، محفوض الشارب ، يضع على قبائه (قفطانه) معطفاً ، وعلى رأسه طربوشاً ، وفي يمينه عكازة ، وفي يساره مسبحة تتلقط أنامله حباتها دراكا . وأنت خبير بما تفعل مع ذلك شفتاه ، أما ما يشغل القاب فلا يعلمه إلا الله ! — أقول وإذا هذا الشيخ يقفز من بين يدي الترام قفزة عنيفة نجابها ، والحمد لله ، وإذا كان ظله القصير لم ينج من وطء العجلات الأولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولقد لحقت به ، وقلت له :

— يا عم ! قد يجوز أن يكون حسابك دقيقاً مضبوطاً في قياس سرعة الترام ، ومقدار المسافة التي عليك أن تقطعها بين يديه ، ومدى جهدك في القفز ، والمدة التي تحتاج إليها في ذلك . لقد يكون حسابك في كل أولئك دقيقاً مضبوطاً ، ولكنك لم تدخل في هذا الحساب عثرة الرجل مثلاً ، أو اعتراض سيارة مفاجئة من شطر الطريق الذي تطليه ؛ فكيف كانت تكون الحال ؟ فأقبل على وقال :

— أي والله يا ابني ! صدقت . ولكن . . . ربنا يستر ! . . .

آمنت بالله ! . . .

وأرجو ألا تنسى أن هذه الكلمة « ربنا يستر » ، هي في هذه

البلاد شعار كل ملق بنفسه إلى التهلكة ، أو بغيره إلى الهلاك .
ومن بضع عشرة سنة ، كنت أركب الترام ، وكان مجلسي
خلف السائق مباشرة ؛ وبينما كان يجري بأقصى سرعته في شارع
كثوث بك ، إذا فتي يجوز من أمامه ، ولولا أن السائق أسرع فضبط
العجلات « بالفراصل » ضبطاً عنيفاً رج الراكب رجاً عنيفاً ، وأزعجهم
إزعاجاً شديداً ، لصار هذا الفتي (المستعجل) للحظته أنقاضاً على
أنقاض .

إذاً لقد وقف القطار ، ومر الفتي لم يكلم أى عضو من أعضائه
كلما ؛ بل لقد امتاز على هؤلاء الراكبين بالدعة ، فما وجف له قلب ،
ولا نبض فيه عرق ، ولا امتقع لونه ، ولا جف ريقه . ولقد بدا لى أن
أنزل فأتبعه لأرى ما الذى أعجله من جلى الأحداث العالمية ، حتى
خطر بحياته بهذا القدر المرعب الم هول .

وأتبعه حتى بلغ الطوار الثانى ، فاذا هو فتي متشرد من هؤلاء
الفتيان المتشردين ، خلق الثوب ، حافى القدم ، وسخ الوجه والقفا ،
ثم وقف بجذاء دكان تبيع الشمال^(١) ، وجعل يحك قفاه بيده ، ثم
قبض على دابة ، قصعها بين ظفرى إبهامه . ثم انكفاً يريد الطوار
الثانى ، فقلت فى نفسى : لا بد أن يكون قد صدر قانون بتوقيع أشد
العقاب على من يقصع ال . . . على غير هذا الطوار !

(١) الشمال : جمع شملة ، بفتح الشين : ما يتلفع به ويقال لها فى العامية
« التليفحة » .

بقى الحديث في راكبي الدراجات ، وأكثرهم ، كما ترى ، من الغلمان الحفاة . وهو ، ولا ريب ، حديث يطول . ولا يعود يحتمله هذا المقال ، بعد كل الذى مضى من الكلام . ومبلغ القول فيهم أن الغلام الخافى من هؤلاء ما يكاد يحصل على « قرش تعريفه » يهين له استئجار دراجة ساعة أو بعض الساعة ، حتى يفرض أن شوارع القاهرة وجوادها وميادينها ، وحواريها ، وأزقتها ، ومسالكها ودروبها ، قد أخلت له إخلاء كاملاً ، ونفض من فيها من الناس والدواب وسائر وسائل المواصلات نفصاً . فاذا لم يكن هذا متيسراً ، فلا أقل من أن يقف كل سائر ، ويتربص في مكانه كل عابر ، ويجمد كل متحرك ، حتى يجوز هو بسلام ، ما تكلف أن يدق جرساً ، أو يرفع بالتنبيه والانداز صوتاً !

ولقد ترى الخافى من هؤلاء راكبي الدراجات ، وقد اعترضته في سبيله سيارة من نوع « البويك » أو « الأستوديبك » ، أو « الدمير » بل « الرولز رويس » ، وهى تجرى فى سرعة عظيمة ، إلا بسط إحدى ذراعيه إلى سائقها يشير إليه بالوقوف أو بالتمهل ، على الأقل حتى يجوز هو ، فله حق التقدم على كل حال بها ، وسنده رجله الخافية بلا نزاع ولا جدال !

وكثيراً ما يفسد هؤلاء الغلمان الأمر على السائقين ، ويوقعونهم فى الحيرة والارتباك ، لقد يفضيان أحياناً إلى الأخطار الجسام . وبعد ، فانى أعود فأرغب إلى الله تعالى أن يخلصنا من هذه الآفاق ، ويعلمنا ، بفضلها ، كيف نحسن السعى فى الطرقات . آمين .

الانتقام اللذيذ

لقد تعرف أن من أسماء الله الحسنى « المنتقم » ؛ ولكن إياك أن تظن أن انتقام الله تعالى كانتقام الخلق : أخذ بالشر ، وإرضاء للحقد ، وشفاء لغلة الصدر ؛ فلقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . بل إن المراد من الانتقام بالاضافة إليه ، جل مجده ، هو لازمه من التأديب ، وبسط العقاب المستحق ، وإطلاق العبرة البالغة . والانتقام قد يكون من الأناسي ، وقد يكون من الحيوان ، وقد يكون مما لا يعقل ولا يحس من سائر الأشياء ؛ وأرجو ألا تعجل بالعجب ، فستعلم نبأ هذا بعد حين !

وأحب ، يا سيدي القاري ، أنؤكد لك أنني بحمد الله تعالى ، ما انطويت قط على حقد ، ولا بت قط على ضغن ، ولا سرتني قط مساة إنسان ولا حيوان ؛ فلقد وفق الله بفضلته ، صدرى من هذا الداء ، ونجاني ، برحمته ، من ذلك العناء .

على أنني ، ولا أكتمك ، أجد في بعض الانتقام ، وأعني انتقام الله تعالى ، لذة وطرباً ؛ نعم ، لقد أحس لبعض ألوان الانتقام لذة لا أكاد أحسها للفرج بعد الضيق ، وللين بعد الشدة ؛ بل لا أكاد أحسها وقد جلست في ساعة اطمئنان النفس وهدوء البال ،

للاستماع إلى غناء حلو يلتقى ببارع النبر على عود حسان صناع .
إذاً فمن الانتقام ما يلد ويضطرب ، كما أن من الانتقام ما يروع
ويهول !

ولقد تقدمت إرادة الله ، فى هذه الأحوال العالمية المهولة ،
بانتقامين بديعين لذيين ، لا أخفيك أن نفسى قد أصابت منهما
قسطاً كبيراً من الراحة والمتاع .

أما أول هذين الانتقامين البديعين فمن بعض الناس ، وأما
ثانيهما فمن بعض الأشياء . وإليك البيان .

١ - لقد جرت عادة الكثيرين من الموسرين وأنصاف الموسرين
من سكان القاهرة وغير القاهرة أن يقضوا أشهر الصيف فى رمل
الاسكندرية ، كما جرت عادة أصحاب الدور فى هذا الرمل ، ومن
فى حكمهم من مستأجرى دورهم للمدد الطويلة ، أن يشتتوا فى
الأجور ، ويبالغوا فيها مبالغة لم يكن يعبأ بها المصيفون بجانب استراحتهم
إلى المصيف ، واستمتعهم وأولادهم بماء البحر وتندم الهواء العليل ،
بعد ما عانوا فى عامهم ، كبيرهم من كد السعى والعمل ، وصغيرهم
من كد الدرس والاستذكار ؛ فلا بأس مع هذا بأن ينفق المرء فى كراء
إلييت ضعفى ما يستحقه ، ولا بأس بأن يشتري الخبز ، واللحم ، والسمك
والدبن ، والفاكهة ، والجبن ، والبصل الخ ، بأكثر مما يعلم أنه
جاره الاسكندري يشتري به بحجة أنه غريب « مصيف » ينبغى أن
يستغله التجار والباعة بعض الاستغلال !

بل لا بأس على ساكن القاهرة مثلاً إذا قال للفكاهانى الاسكندري

بكم الوقة من هذا التفاح ؛ وأرجوك أن تقرأها بكسر الواو ، وبإبدال القاف بالهمزة (على نطق أهل القاهرة) لا بأس على ساكن القاهرة إذا وجه إلى الفاكهاني في هذا السؤال ، فكان جوابه : « بعشرة جروش » . ثم يهبط اسكندري فيسأله : « بكم الوجة » ؟ فيكون الجواب : « باربعناشر جرش » يعنى تعريفه « ، يعنى سبعة قروش صاغ لا أكثر !

لا بأس بهذا كله ، فهو استغلال رقيق محتمل على كل حال ! أما الذى به كل الناس ، والذى استحق من الله كل هذا الانتقام البديع اللذيذ ، فهو أن ملاك الدور فى الرمل ما كادوا يطمئنون إلى أن أحداً من المصريين لا يستطيع قضاء الصيف هذا العام فى أوربا ، حتى أعلنوا تأرجهم فى الأجر واستطاطهم فى الكراء إلى الحد المرهق المضنى ، فمن لم يطلب فى كراء داره أربعة أضعاف ما كان يقتضيه فى الأعوام السابقة ، اقتضى ثلاثة أضعاف ، أما أشدهم قناعة وزهداً فمن يرضى بالضعفين والنصف !

سكان القاهرة وغيرهم مضطرون ، هذا العام ، إلى اتخاذ المصايف المصرية ، لأنهم لا يستطيعون تخطيها إلى البلاد الأجنبية ، وبهاها من فرصة عظيمة تؤتئ الغنى ، وتجلب الوفرة العاجل ! أليس لنا البحر وشواطئ البديعة ؟ أليس الله قد ورثنا نسيمه العليل ؟ فما لنا نبذله ، فى غير شئ ، لهؤلاء الفارين من حر القاهرة وغير القاهرة ، وطالبي الاستجمام فى هذا الجو المريح بعد العناء والكد فى العام الأطول ؟ ما لنا لا نقتضيهم عن روحة الموجة ، وهبة النسمة ،

ولو عصرناهم عصرًا ، وبعناهم النظرة إلى الأفق شبرًا فشبرًا ؟
هكذا شاءوا ، وعلى هذا جمعوا النيات والعزائم . وهكذا نسوا
دورة الفلك الدوار . ونسوا أنهم يقدرّون فتضحك الأقدار !

ولقد علمت أن المصريين جميعاً وأعني مياسيرهم ومتوسطى الحال
منهم ، قد أمسكوا عن الشخصوص إلى الاسكندرية هذا العام ، نزولا
على أمر الحالة الحاضرة ، ودور الرسل المهيأة للتأجير خزيانة تنظر !
بل لقد علمت بعد هذا أن كثرة مآلئها ممن تضطّهرهم هذه الحالة
الحاضرة إلى الهجرة إلى الريف ، حيث يؤدون هم أجور السكن
كارهين مرغمين !

أرأيت عدلا أحلى من هذا العدل ، وانتقاماً ألد من هذا
الانتقام ؟

٢ — هذا ما كان من أمر الانتقام من بعض الناس . أما ما كان
من الانتقام من بعض الأشياء فالليك الحديث : أنت ، ولا ريب ،
تعلم أن القاهرة هي أجمل المدن المصرية ، بل هي أجمل مدن العالم
كافة ، ولعلّ لم أحسن التعبير من الواقع تماماً ، فأى جو غير جو
القاهرة خائق يفر منه ، وينبغى لبس القناعات الواقية فيه
على الأقل ؟

وإذا كنت فى شك من هذا الكلام ، فارجع إلى شأن تسعة
وتسعين فى المائة ، أو تسعمائة وتسعين فى الألف من موظفى الحكومة
فى الأقاليم تجدهم يصلون الليل بالنهار جادين جاهدين ، فى التماس
النقل إلى القاهرة . فمن لم يسع له أبوه عند كبار الحكام سعت له

أمه عند نساءها ؛ وهذا أم فلان تبكى حتى تستعبر بين يدي زوج الحاكم أو بنته أو أخته ، فيرد عليها غربة ولدها المسكين الذي لا طاقة له بالغربة ، فلم يألّفها في حياته ولم يعرفها .

ولا تجد أحداً منا ، نحن الموظفين ، يعدم الحجة على طلب النقل إلى القاهرة ، فمن ليس له أولاد في المدارس ، فان له ، بحمد الله ، أباً في « الاستبالية » . ومن ليس له أم ضربها الفالج فان له أخوة تربي على العشرة . . . وهكذا ! . . .

وأما النقل من القاهرة فمصيبة دونها عندنا ، نحن الموظفين ، جلع الأنف ، وفق العين ، وصلم الأذن ، وقطع اليد اليمنى التي نأكل بها ونشرب ونكتب ، وتتناول بها أهم الأسباب ، ونبسطهم لمصافحة الأهل والصحاب ! . . .

وصدقني إذا قلت لك إن هذه الغربة تبتدىء عندنا نحن معشر المصريين من قليوب إلى الاسكندرية شمالاً ، ومن الجيزة إلى الدر جنوباً ، كلها غربة تستدعى الحسرة ، وتثير الزفرة ، وتبعث العبرة ، بل لا أكتفك إذا قلت لك إن بعض من نقلوا من الأرياف إلى شبرا مثلاً استأنفوا السعي لينقلوا إلى دائرة قسم عابدين . . .

أصدقني الآن في أن كل جو غير جو القاهرة ، بل سرّة القاهرة ، خانق وجدير بالفرار ، أو لبس القناعات الواقية ، على الأقل ، كما ذكرت ؟

والآن ، أين الريف يا عالم ؟ ومن لنا به ؟ وكيف السبيل ، واحسرتاه ، إليه ؟

الريف البديع هواؤه ، العذب مأؤه ، الجميل رواؤه ، من لنا به ؟
من لنا به ؟

أعوذ بالله ! ما أنكر وجه القاهرة ، وما أخبت مناخها ، وأوخم
هواؤها ، وأعكر ماءها ، حتى نورها الكهربائي لقد أصبح ثقيلًا
يرمش له الجفن ، ويجهد النظر !

أرأيت كيف كانت حكمة الله الباهرة ، وكيف انتقم للريف
المسكين من هذه القاهرة ؟

بين الصفارة والريف

مما يجري على ألسنة المصريين في دعاء بعضهم على بعض « رُوحُ جتسك غارة ! » وكنا نحسب أن القدر كان يرد هذا الدعاء أولاً فأولاً ، فلا يحل في موضع الاستجابة أبداً .

وها نحن أولاء نرى الآن أننا ، في هذا الحسبان ، كنا جد مخطئين ، فأن القدر ، فأن القدر إنما كان يجمع هذه الدعوات ويحفظها ، ولا يرد واحدة منها ، حتى إذا حل الوقت المقسوم ، استجاب دعوة الجميع على الجميع !

كل يوم عواء صفارة ، ينذر بمقدم الغارة ؛ فعلينا ، ونحن نحني ثمرات دعائنا بعضنا على بعض ، أن نثبت ونتجلد ونصبر ، فإن الله مع الصابرين .

وفي الحق إن صوت هذه الصفارات كرهه جداً ، وثقيل على الأسماع جداً ، ومضعض للأعصاب جداً ، حتى ليؤثر المرء وقوع الغارة نفسها على هذا النذير ، في صوته المزعج النكير .

وقد لا يحق لنا أن نطمع في أن تشد الحكومة إلى حناجر هذه الصفارات أوتار عود أو قانون ، أو أن تقيم في كل حي فرقة موسيقية ، أو أن تطيف بالبلد ، كلما جاء النذير بمقدم الغارة ، كبار المغنيات

والمغنيين ، يهيمون بنا ، بأصواتهم العذبة ، على النبر الحلو والتنغيم
البديع ، أن احذروا ، واتمسوا الخبايء ، واطلبوا النجاة بقدر ما
تستطيعون !

ولكن ألا من سبيل إلى التخفيف من هذا النكر ، ولو بعض
الشيء ؟ أو الاستغناء عن هذه الصفارات ، والتعويض عنها بالكثير
ممن نسمع ، في هذه السنين ، من مغنيات ومغنين ؟
وإذا زعمت أن من هؤلاء من هو أقسى حنجرة وأنكر صوتاً ،
فلا يذهب عنك أن آذاننا قد ألفت هذا الغناء من بضع سنين ،
ولا شك أن الالف والاعتیاد يلطفان كثيراً من موقع الأهوال الجسام !
بقي أن نراجع أنفسنا ، في شيء من الصفاء والدعة ، وهما موفوران
في عامة النهار ، والحمد لله ، نراجع أنفسنا ونسألها ، أمن الحق أن
صوت هذه الصفارات كره بهذا القدر ، مزعج إلى هذا الحد ؟ أم أن
اقتترانه بتوقع الأحداث المزعجة ، هو الذي يخلع عليه هذا الوصف ،
ويحله من الأعصاب في هذا المكان ؟

إن شئت الانصاف في القول ، والعدل في الحكم ، رأيت
لهذا التعليل نصيباً من الحقيقة غير يسير ؛ بدليل أنك لا تجد
للصوت المؤذن بانتهاء الغارة من الاستكراه والنبو على الآذن ،
وشدة شك الأعصاب ، ما تجده في الآذان بمقدم الغارة ؛ إذ
الصفارة واحدة ، والحلق الذي ينطلق منه العواء واحد ! . . .
إذاً فلظروف والملابسات دخل في الأمر كبير . ولو أن الصوت في
الحالين نكير نكير نكير .

إذاً فلا مفر من الفرار ، ولا من صفارات الانذار ، وطلب السلامة
للأعصاب ، من كل هذه الأوصاب ، وأين ، لعمري ، يلتبس الفرع
والملجأ الحصين ، إلا في ريف مصر الجميل الأمين ؟

وإذا كان أصحاب الأعمال في المدن لا يستطيعون أن يتركوا
أعمالهم ، فلا أقل من أن ينزح آبائهم وأسماهم وزوجاتهم وأولادهم ،
فلا تنالهم ، في الغالب ، الغارات ، ولا تؤذيهم النذر بالغارات ،
وبعض الشر أهون من بعض .

وكذلك أشخص من أحملهم من الأهل والولد إلى الريف ،
يتقدمهم ما يحتاجون إليه في عيشهم الجديد ، من المتاع
والعتاد .

ويشاء الله الكريم ألا تضيق صدورهم بالوحدة ، ففي مكان
قريب أهل وأصهار وأولياء كرام . كما شاء تعالى ألا يستوحشوا ،
إذا جن الليل عليهم ، فالريف ينام من العشاء الأولى ، فأنسهم
بالراديو ، يغنيهم ، ويفاكهم ، ويحضرهم ويسامرهم ، وينبئهم مختلف
الأنباء . فالقرية ، على دقة جرسها ، وقلة سكانها ، تستصبح لحسن
الحظ ، بالكهرباء ، يبعثها « واپور » كبير أقامه المجلس القروي
هناك ، فالحمد لله الذي قرن ما أجرى من القضاء بلطفه ، وأردف
ما قدّر من البلاء بكرمه وعطفه ، وصدق المثل العامى القائل :
« قبل ما يبلى يدبر ! »

ولا بد لي من أن أراهم وأشهد مشواهم ، وأشركهم في عيشهم
الطريف ولو حيناً بعد حين . وأتوكل على الله ، فأشدّ الرجال إليهم ،

لا بل أستقل من القاهرة القطار السريع . وبعد جرى غير طويل ،
 أنقلب إلى القطار البطيء . وسواء أكنت في هذا أم في هذا ، فلقد
 كان شغل عيني وشغل نفسى طول الطريق ، هذه السيارات الكبيرة
 والصغيرة التى تقل المهاجرين من المياسير وغير المياسير ، وسيارات
 النقل الكبيرة تحمل أمتعة النازحين . بل عربات « الكارو » يجرها
 جواد ، وقد يجرها حمار ، لا يعلم إلا الله مبلغ جهده فى هذا السفر
 الطويل الثقيل !

أما إذا كان هذا الحمار عاشقاً قد شفه الوجد ، وبراه طول القلى
 والصد ، فقد أولاه المبيت فى العراء خير ما يسعد العاشق المهجور
 على بلواه ، ويبرد من حرقة جواه ، بمناجاة النجم الساهر ، وشكوى
 صد الحبيب الغادر . فاذا تعذرت عليه رؤية الحبيب وقد قلى ، فهو
 ولا شك رائيه فى صفحة البدر إذا تجلى . ولقد يحمل البدر رسالة الوله
 والشوق إلى الأتانة ، والبدر خير من يبلغ الرسالة ويؤدى
 الأمانة .

أليس فى هذا بعض الفرجة من ذلك الضيق ، والتلطيف من
 تلذيع سوط السائق طول الطريق ؟

وكيفما كانت الحال ، فلقد يستطيع الشاعر أن يشبه السكة
 الزراعية بعقد ، وإن كان متلاحم الحبات ، فانه لم تنظمه يد جوهرى
 صناع : فهذى لأولؤة صغيرة ، إلى جانب خزفة كبيرة . وهذى حبة
 من ذهب ، تليها أخرى من خشب ، وسبحان مقسم الحظوظ
 والأرزاق !

وكيفها كان الأمر ، فسرعان ما أحضرني هذا المشهد قول المتنبي ،
رحمة الله عليه :

وهجان على هجان تواتي لك عديد الحبوب في الأقواز
صفها السير في العراء فجاءت فوق مثل الملاء مثل الطراز

حقاً ، لقد انتفضت القاهرة انتفاضة عنيفة ، فتطايير عنها أهلها
(تطايير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض) وراحوا يطلبون المشوى
ذات اليمين وذات الشمال . ولعل بينهم من لم يتخيروا المأوى ،
ولعل منهم من لا يعرفون الوجه ، وإنما هم يهيمون هيماناً حتى يأذن
الله لهم بالمستقر والمقام !

هذه ، ولا ريب ، حالة جد مؤلة ، وخاصة إذا كان هؤلاء
النازحون ممن يحرون بأيديهم غلمانهم ، أو يحملون على أكتافهم أطفالهم
الصغار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

على أنه بقليل من التسامح ، ويسير من التضحية ، يمكن إيواء
كل هؤلاء الفارين ، وإنالهم المأمن ، ومعونة المحتاج إلى المعونة منهم ،
(والناجي يأخذ بيد أخيه) .

هذه شدة عامة ينبغي أن تتظاهر على دفعها الأيدي عامة .
فمن كان في بيته سعة ، فلا ضير عليه في أن يودى إليه من لا يجد
المأوى ، ومن كان في حالة فضل ، فلا بأس عليه إذا رزق من فضل
ماله بعض من لا يجد إلى القوت سبيلاً . وإذا كان عدد هؤلاء كثيراً ،
فإن عدة سكان القرى ، واللاجئين من الموسرين ، أكثر كثيراً .

على أن ترك المعونة للمصادفات والحظوظ ، ليس من الحكمة
 فى شئ . بل لا بد من الأعداد والتنظيم المحكم ، فلا يتعذر المشى
 على لاجئ ، ولا يسرف الجوع على أحد من المهاجرين .
 نعم ، إن أهل الريف هذه السنين ، فى بؤس ظاهر ، وفقير بين .
 على أنه لن يتكاد أعيانهم ومتوسطى الحال منهم أن يخرجوا لهؤلاء
 العائدين بالريف ما يمسك الرmq ويعصم الحياة . فاذا بسطت الحكومة
 ولو يسيراً من المعونة لهم ، أينما كانوا ، فقد هان الخطب ، وكفيت
 البلاد الشرور الكبار .

وإذا كان لى ما أقترحه فى هذا الباب ، فأننى أرى التعجيل
 بفرض ضريبة على تجار الريف ، لا يعفى منها كبارهم ولا صغارهم .
 على أن ما يحجى من ذلك يرصد لتلك المعونة . فتجار الريف أصبحوا
 يجنون من الربح ، بفضل النازحين من الموسرين وأنصاف الموسرين ،
 ما لم يكن يدخل منهم فى الحساب !

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن الريف ، وهذين اليومين
 اللذين قضيتهما فى الريف . ولكن لم يبق فى مساحة المقال متسع .
 فلترجئه إلى مقال آخر ، إن شاء الله رب العالمين .

الأفندى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان كما صارت هذه الكلمة في مصطلح الزمان !
وقبل كل شئ لعك تعرف أن كلمة « أفندى » معناها السيد ، وهى من ألفاظ التشريف التى انحدرت إلينا عن سادتنا القدماء ، أعنى الأتراك . وعلى الرغم من أننا خلعنا عنا ، أو خلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفرنا باستقلالنا ، فإن أكثر ألقاب التشريف فى بلادنا ما برحت تركية ؛ « فأفندى » تركية ، و « بك » تركية ، و « باشا » تركية أيضاً !

وكل ما صنعنا فى هذا الباب ، عندما اختلطنا من سيادة تركيا ، أننا أصرنا ، فى توجيه الخطاب ، هذه الألقاب إلى النهج العربى ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركى وابن تركى . فبدلاً من أنه كان يقال مثلاً : « عزتلو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلاً من أنه كان يقال : « سعادتلو أفندم حظرتلرى » ، أصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن تلحق الأولى بلقب « بك » ، والثانية بلقب « باشا » .

أما « أفندى » فلقد علمت أن معناها السيد ، وأما الميم التى

توصل بها أحياناً فهي أداة الاضافة للمتكلم ، « فأفندم » معناها « سيدى » . ولهذا كان ولى الأمر إذا وجه الخطاب إلى رئيس « النظار » ، أو إلى من يقوم مقامه ، فى المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقاً : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، لما تعلم من أنه أجل محلاً من أن يدخل فى سيادة أحد على أى وجه من الوجوه .

ونعود إلى كلمة « أفندى » ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضمنون بها أعظم الضن ، ويغلون قدرها أيما إغلاء ، وذلك على العكس من كلمة « بك » ، فإن كل رجل هناك يكاد يكون « بك » ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياء ، فذلك هو المنطق الصحيح . أما « أفندى » فكانت لقب ولى عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الاسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الاسلام .

ولما كان منصب قاضى القضاة فى مصر لا يتولاه إلا تركى ، بحكم السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه « قاضى أفندى » ، وقد نضح العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضاً ، وأعنى بالضرورة القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصوراً فى دائرة هذا القضاء . ولا أدري أبقىته منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان يدعى المخاطب فى درج الحديث « بك أفندى » ،

ولكن « أفندى » مطلقة لا تكون ، كما أسلفنا ، إلا لأمثال من ذكرنا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما في مصر ، وأعنى في العصر الذى شهدنا أطرافه ، فإن لقب « أفندى » ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الاجلال غير يسير ، فهو فى الغالب الكثير لقب الموظف فى الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكومى فى تلك الأيام ! لقد كان هذا « الأفندى » موضع إجلال أهل الحق وإعجابهم . وكان أكثرهم يعود من « الديوان » وقد رشق قلمه البسط رشقاً أفقيّاً فى أعلى أذنه اليمنى أذاناً للناس بما صرف من الأمر ، وما قضى فى حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إذاً فإنه يقضى فى دمائهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشى متمهلاً متتايهاً ، يتلقى نظرات الاحترام والاعجاب .

ولم يكن حى من أحياء القاهرة تخلو رقاعه الكبيرة من بيت « ست أم الأفندى » ، وبيت « ست أم الأفندى » هذا كان شرعة الرائدات ، ومشابة القاصدات . إليه يحج نساء الحى ، وله يطلبن . لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ، كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل وكان لسائر البيوت الصوى والمنار ، فاذا استخبرت سيدة عن أحد المنازل ، دلتها صاحبها عليه ببيت « ست أم الأفندى » ، فتقول لها مثلاً : اجعلى بيت « ست أم الأفندى » على يمينك ، ثم انعطفى فى أول زقاق على يسارك وعدى من اليسار بيتين ، الشالث هو البيت الذى تطلين .

ولقد كان هناك أيضاً بيت « ست أم البك » على أن هذه البيوت

كانت نادرة جداً ، بحيث لا يقع في الحى كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فاني أرجو ألا يميل بك الظن إلى أن « ست أم البك » كنيته بذلك لأن ابنها « البك » موظف في الحكومة كشأن « ست أم الافندى » . العفو! العفو! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة « البكوية » في الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ يحسبه أن يسعى سعادته سعى الأحياء ، وإن ضربته السنون بمائتي داء ! « فست أم البك » إذا لم تكن أم موظف ، ولكن كانت في الغالب مرضعاً لولد من أولاد الذوات ! ولكي تزداد علماً بموضع كلمة « أفندى » من جمهرة الشعب ، أذكر لك ما روى لى ، من أنه من نحو خمسين سنة ، أراد بعضهم أن ينشئ في حى الحسين ، رضى الله عنه ، « قهوة » فخمة عصرية (مودرن) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، فلم يجد أكرم ، ولا أعظم ، ولا أفخم من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجميل « قهوة أفندية » !

وبعد ، فذلك بعض العز الذى ناله لقب « أفندى » في الزمان الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شر الهوان ، وعصمك من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ مجدك من غدر الزمان !

أفندى ! وهل أصبح يطبقها موظف أو طالب أو فتي يعيش بفضل إرث ، أو شاب تجرى عليه وظيفة من وقف ؟ فاذا دعوت

أحدهم « بالأفندى » تجهم لك ، وانعقد ما بين عينيه ألماً وغضباً .
 وربما ابتدرك من القول أو الإشارة بما يسوءك . فإذا هو قبلها منك
 لشأنك ولموضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيغ !
 لقد أضحي الجميع يتداعون بلقب « البك » ، صغارهم وكبارهم
 في هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا وليكن شأننا فيه شأن إخواننا
 الأتراك .

بقيت « الأفندى » التي ذلت في هذا العصر وهانت ولم يبق لها
 من أمل تعيش عليه إلا في جماعات الحجاب والسعاة في الدواوين ،
 فهم الذين يرضونها ، ويطمئنون بها ، ويستريحون إليها دون سائر
 المطربشين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت عسكرى الدورية ، وهل يستطيع حوذى
 من أى صنف ، أو بائع من هؤلاء المترققين بأبدانهم ، أو نحو هذين
 ممن يرهبون سطوة جندى النوبة ، أو يدعوه بيا عسكرى ، أو يا جاويش
 إنهم جميعاً ليدعونه « بيا أفندى » وكثيراً ما تكون هذه الدعوة
 المحببة سبباً في الاغضاء ، أو التلطف في القضاء !

أرأيت كيف صحت العبارة العامية في هذه الكلمة : « يقطع
 من هنا ويوصل من هنا ! »

ولا أرى ، قبل أن أختم هذه الكلمة ، بداً من الإشارة إلى كلمة
 أخرى ، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب ؛ فأضحت
 لأجل أصحاب المناصب أجل الألقاب .

لا أدري إن كنت تدري أو لا تدري أن ألقاب التشريف كانت
تجرى صعوداً على النحو الآتي : حميتلو « بتشديد الياء » . وهذه لأصغر
طبقات الموظفين . فرفعتلو ، فعزتلو ، فسعادتلو ، فعطوفتلو ، فدولتلو .
وترجمتها على الولاء : صاحب الحمية ، صاحب الرفعة ، صاحب
العزة . . . الخ .

فترى أن هذه الرفعة قد طارت من هذا المكان ، وحلقت حتى
أمست أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان !
آمنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد ، ومنها ما يشقى
ومنها ما يسعد ، (وكذلك الدهر حالا بعد حال) والله الأمر من
قبل ومن بعد .

في الضمير العام

يعتريك البياح من هؤلاء البياحين المضطربين في الطرق بسلعهم فيطرحها لنظرك ، وقد تجملها يده بين ذقنك وفيخذك إن كنت جالساً حتى يحك بالوعاء : صندوقاً أو عدلاً أو سلة ، صدرك . وقد تنازعك نفسك إلى أن تشتري ، فتسأله الثمن ، فتراه يحلف لك مبتدئاً مرتجلاً ، متبرعاً محتسباً ، ولم تكن قد باديته بشك في قوله أو جرح في ذمته . يحلف لك بكل مؤثمة من الأيمان أنه إنما اشترى بعشرة قروش ، ولا يطمع في أكثر من قرش واحد أو نصفه ربما لا يقوم بشئ من طول سعيه وكده ؛ وإنه لا يتخرج من أن يدخل في يمينه الطلاق ، وفقد الولد ، وذهاب البصر ، وبطلان الشق بضربة الفالج الخ . . . ! وتعرض عليه ثلاثة قروش مثلاً أو ما دونها ، فيتألى ويتعذر ، وقد يتركك ويمضي مهرولاً مفدأً ، ليدخل في وهمك أنه لم يكن غالياً في عرضه ولا متأرباً ، فان راجعته وإلا ظل في هرولته حتى يغيب عن نظرك ؛ ثم لا يلبث أن ينقلب إليك ، فيحط الثمن إلى ثمانية ، فإلى ستة ، وهكذا لا يزال يتدلى حتى يصل إلى ما عرضت عليه أول الأمر . وكذلك تعقد الصفقة في سراح ورواح !

إن ما يستدعي البحث حقاً ، بل إن ما يثير الفزع حقاً ، أن

يحاول هذا الرجل أن يغشك ثم لا يلبث أن تنكشف محاولته وأن يحلف بكل ما يحلف به ، وسرعان ما يظهر كذبه ومينه وحنثه . ومع هذا وهذا لا يبض جبينه بقطرة واحدة من خجل أو حياء ؛ بل إنه ليقاومك في ألوان من الحديث كأن لم يحمل وزراً ولم يقترب إثمًا ، ولم يأت أى شئٌ ومما يعاب به الناس !

وإن مما يستدعى العجب الأعجب ، بل إن مما يثير الفزع الأفعز أن أكثر الناس ، حتى المتعلمين المثقفين منهم ، لا ينكرون هذا على أولئك الباعة ولا يزجروهم ، ولا يظهرون الاشمئزاز منهم ، ولا ينهونهم عن العودة لمثله !

وإن اطراد ذلك من جمهرة الباعة ، واطراد هذا من جمهرة المشترين ، ليعت على الحكم ، مع الخجل الشديد ، بأن الغش ، والكذب ، والحنث بأغلظ الأيمان ، هو من العرف المعروف في هذه البلاد .

ومن الحق الذى لا يعتريه شك ، الحق المؤلم الموجه ، أن هذه الطبقة الدنيا في بلادنا ، على وجه عام ، لا تشعر ألبتة بشئ يدعى الضمير ؛ يغشك البائع في السلعة ، وإذا استطاع طفف السكيل أو أخسر الميزان . ثم تراه يكذب في القول ، ويحنث في اليمين ، ما يجد لشئٍ ومن ذلك ألبتة ، ولا يحس له خجلا ولا ندمًا ، إنه لا يحس شيئًا من ذلك ألبتة ، بل إن نجاحه في غشه وزيفه واستراحة الناس إلى كواذب أيمانه لما يبعث فيه عجبًا وأريحية . حتى إذا خلا إلى أمثاله وأكفائه ، جعل يباهى بذلك ويكثر كما يتبارون

هم أيضاً في التباهي والتكاثر بما وقع لكل منهم من مثله ! هذا هو الخطر الأعظم ، يحرم المجرم ولا يرى أنه أتى شيئاً ، ولو قد شعر ، حتى أضعف الشعور ، بأن في الجرم إثماً ، وأنه أمر مكروه لا يليق بالإنسان أن يقارفه ، فانه ولا ريب مما ييسر السبل إلى إصلاح هذه النفوس ، فان بعث الضمائر من الوقود أهون على الداعين من خلقها من العدم . قلت إن غش الباعة وحنثهم بأغلظ الأيمان هو من العرف المعروف في هذه البلاد ، وأذكر أن من قرابة ثلاثين سنة ، إذا كان موسم الخيار وأقبل الليل ، صف باعته عرباتهم بجوار مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . وعلى كل منها مصباح كبير ، وجعل كل منهم يصيح ملأهاته بسمع مأمور القسم ومن قبله من رجال الشحنة : « بالحلال خمسة وبالحرام ستة ، يا جمع العصارى يا لويبة » . ولقد رأيت هذا بعيني وسمعته بأذني ، وإنما خصصت هذا المكان لأن حى السيدة هو الحى الذى نشأت فيه ، ولا بد أن الأمر كان كذلك في سائر الأحياء .

بالحلال خمسة وبالحرام ستة ! ولست بحاجة إلى أن أبين أن المراد بالحرام الوزن الناقص . ومعنى هذا أن إختصار الميزان بما يجوز أن يقع عليه التعاقد بين البائعين والمشتريين ! وأحسب أن هذا مالا يقع له شبهة في أى بلد آخر من بلاد الله .

وأغلب الظن أن إمساك الباعة الآن عن عرض التصافق على الحرام إنما مرجعه إلى خوف العقوبة القانونية التى تغلظ عليهم هذه السنين في النقص من الموازين .

ولقد أبرزت في هذا الحديث جماعات الباعين ، لأنهم يطالعون الناس في كل ساعة ويعترضونهم بكل سبيل ، على أننا لو بسطنا في آفاق النظر لراعتنا أن نرى ما نرى من أكثر جماعات الصناعات يعالجون ألوان الحرف في هذه البلاد ؛ أما خلف المواعيد فهذا قدر مشترك بين الجميع .

وأما استبدال مادة رديئة بأخرى جيدة (وهى المتفق عليها في عقد الصفقة) ، وأما قلة العناية بتجويد صنعة ، وعدم التأنيق فيها طوعاً لمطالب الفن ، فهذه الخلال يقع فيها الاختلاف بين جماعات الصانعين .

وهذا الاختلاف يرجع في الغالب إلى يقظة المستصنع من جهة ، وإلى كفاية القائم على شأن الصناعات ومبلغ حرصه على السمعة من جهة أخرى . أما الضمير ، الضمير وحده فلاغرو عليك إذا أسقطته من الحساب !

وبعد ، فإن العلة الحقيقية لمعظم ما نشكو من التدهور الخلقى هى شيوع الكذب ، وإن شئت الدقة قلت هى أننا ، على الجملة ، لا تنزل الكذب المنزلة الحقيقية به من الأفكار والاستفطاع ، ولا نحتفل للنهى عنه ، فضلاً عن المبادرة بالعقوبة عليه .

وشيوع الكذب ، مع الأسف العظيم ، ليس مقصوراً على الطبقة الدنيا من الناس ، بل لقد عدا على الكثير ممن أخذوا بحظ من العلم والتهديب ، حتى لقد ترى الرجل أو الفتى يكذب في غير حاجة ملجئة

إلى الكذب ، أو لدفع ما إن دفعه بالصدق والصراحة لم يمسسه من غوائله شر كبير ولا صغير ! ولو أننا ننزل الكذب منزلته التى مهدتها له قواعد الأخلاق ما أسفناه فى هذا اليسر العظيم !

وأثر الكذب وعدم الاكتراث بالأقدام عليه يختلف باختلاف الناس ، وحظ كل منهم من التربية والتفكير والنظر إلى عواقب الأمور . ولهذا تراه فى بعضهم يسهل ارتكاب أفظع الجرائم إذ هو لا يعدو فى سواها إلا على التافه من المخالفة لقواعد الأخلاق ، وبين هذين الحدين مراتب تتفاوت طوعاً لتلك الخلال فى الناس .

البيئة عندنا لا تحارب الكذب ، بل لا تكاد تنكره . وإني لأكره أن أقول إن كثيرين من الآباء والأمهات فى بلادنا يحملون الولد عليه ، وقد يضطرونهم إليه .

وإذا قدرت أن قوام عيش الجماعات هو الثقة ، فانظر كيف يعيش معشر لا ثقة لأحد فيهم بأحد ، لأنهم بين كاذب ومكذب لا يركن من صاحبه إلا على حذر وارتياب !

فالنجدة ، النجدة ! يا معشر القائمين على تربية النشء وعلى حراسة الأخلاق .

فن الاعلان

وهل بقى من لا يؤمن بأن الاعلان أصبح فناً له كسائر الفنون ، قواعد وأصول ؟ بلى ! هو فن له أثر وله خطر ، يتدارسه طلابه ويستذكرون مسأله وقضاياه ، ويراجعون الأساتيذ فى ما كتبهم عليهم من تلك المسائل ، ويتبارون فى حذقه وتجويده ، حتى يبلغ بعضهم فيه رتبة العبقرية والنبوغ .

وما لفن الاعلان لا يكون له هذا الشأن وأجل من هذا الشأن ، وهو الوسيلة الفذة إلى تحريك التجارات ونفاق الأسواق ، وإيثار الفتى ، وذهاب الصيت فى كل مكان . بل لقد يكون إحسان الاعلان أهم الداعيات إلى ميل جماعات الدول إلى دولة ، وصفو قلوب الأمم إلى أمة ، واضطغائها على عدوها مهما يكن خطبه . ومن شأن هذا العطف وهذا البغض أن يبعث على الامداد بألوان المعونة المادية من جهة ، والكيد بالمنع والمضارة من الجهة الأخرى ، مما يسعد على النصر ، ويعجل للنضم الغلب والقهر .

وروى أن سائلا سأل المثرى العظيم المستر فورد صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه : لو تجردت من الغنى ؛ ولم يبق فى يدك إلا ألف جنيهه ، فما عسى أن تصنع ؟ فقال : أخرج منها أولاً

سبعائة وخمسين للاعلان ، وأستأنف السعى فى الحياة بالباقى !
ولقد أدركت مصر حظ فن الاعلان وأثره البعيد فى المطالب
الخاصة والعامة ، فجعل سكانها ، أو من يعينهم الأمر من سكانها ،
يتبارون فى تجويد الاعلان ومد رواقه ، وبسط آفاقه ، حتى بذوا
الأمريكان ، وكانوا مضرب المثل فى هذا الشأن !

وأرجو ألا تتعاطمك هذه الدعوى ، فتعجل بالحكم علىّ بالتزويد
أو الغلو ، فسأقيم لك الدليل ، إن شاء الله !

ولنمض أولاً فيما كنا فيه من أثر الاعلان ، سواء فى استخراج
الأموال ، أو فى استدراج العواطف بشتى الأساليب . ولقد تكون
ماخياً فى طريقك ، ما بك أن تشتري أى شئ ، فيميل بصرك إلى
معرض من معارض بعض الدكاكين (الفترينات) ، فيستهويك
بعض السلع المعروضة بجمال شكلها ، بل بجمال وضعها ، فى بعض
الأحيان ، فتتقدم لابتلاعها ، مهما يحشمك الثمن . وهذا كما أسلفنا
من أثر جودة الاعلان .

ولست بحاجة إلى من يقول لك إن جميع مدن المملكة المصرية ،
لا فرق بين كبيرها وصغيرها ، دانيها وقاصيها ، أصبحت تزخر بفنون
الاعلانات . فهذه الصحف السيارة ، والمجلات الدورية وغير الدورية ،
تسيل أنهارها بالاعلان . وهذه جدران المباني العامة والخاصة لا يكاد
يعرى متر مربع فيها من الاعلان ، بين مطبوع على الأوراق ،
أو مكتوب على الحائط ، أو متألق فى أعلى المباني بنور الكهرباء .
دع آلاف الاعلانات التى يلقاك بها الموزعون فى كل سبيلها . والاعلانات

الصوتية (الميكرفون) التي تجول بها السيارات في الطرق والأسواق الخ... ومن أظرف ما يذكر في هذا المقام أن للحكومة معهداً كبيراً ، يقع على شارع من الشوارع الرئيسية في قلب القاهرة ، وصور هذا المعهد يمتد إلى مسافة كبيرة من جانب الشارع . وقد بدا للقائمين على تكليسه (بياضه) أن يبالغوا في تزيينه وتبهيجه ، بتقسيمه إلى مربعات متساوية المساحة . ولم يمتض على هذا التزيين والتبهيج بضعة أسابيع ، بل بضعة أيام ، حتى كانت جميع هذه المربعات محلاة بالاعلانات المختلفة ، ما خلا مربعاً واحداً لا أدري لماذا ترك المسكين عريان ، لا أثر للنقش ولا للكتابة فيه !

فهناك المهلك ، والمبيد ، والبط ، وورنيش العمدة ، وطربوش النسرخ ... ومن العجيب أنها كلها مكتوبة بالخط الأسود وبأردأ الخطوط ، حتى يخيل إليك أنها منضوحة بوعاء الحبر نضحاً لم تجربها أنامل ، أستغفر الله ، بل أكف الكاتبين !

وطال الزمن على هذا ثم طال . وأخيراً يظهر أن القائمين على شأن هذا المعهد الحكومي قد عز عليهم أن يبقى ذلك المربع فذاً بين سائر المربعات ، فاستخاروا الله وكتبوا فيه : «ممنوع لصق الاعلانات» .

ولقد زعمت لك أن مصر قد برعت أمريكا ، فضلاً عن أوروبا ، في فن الاعلان ، واستنظرتك الدليل . فهاكه الآن .

لعلك تعرف ، ولعلك لا تعرف أن الأطباء لا يعلنون عن شأنهم بأية وسيلة من الوسائل في بعض البلاد الأوربية . ولا شك في أن

هذا من الجهل بفن الاعلان الناشئ عن الجهل بفوائد الاعلان ،
 فاذا أحلت الأمر على أن القانون فى تلك البلاد يحظر الاعلان على
 الأطباء ، فما كان عسيراً عليهم ، لو أرادوا ، السعى إلى إلغاء هذا
 القانون ، ليفيدوا ، ما شاء الله ، من طبيبات الاعلان .

أما عندنا فوق إعلانات الأطباء والمحامين فى الصحف السائرة
 وغير السائرة ، فلقد ترى « اليافطة » الطويلة العريضة مرفوعة على
 ساريتين تطاولان السحاب ، وهذه على جانب الشارع الرئيسى ،
 ثم أخرى على مدخل الشارع الفرعى ، ثم ثالثة على ناصية المنعطف ،
 ثم رابعة على صدغ العمارة ، وكلما انعطف بك السلم رفعت لبصرك
 « يافطة » ، وهكذا حتى تبلغ باب العيادة أو المكتب ، فاذا هو
 مرصع بجمهرة من « اليافطات » المختلفة الأشكال والخطوط والأحجام .
 ولا يبعد أن يتقدم فن الاعلان فى بلادنا حتى يخترع شياكا
 سحرية تصطاد الزبائن ، وتسحبهم فى لطف ودعة ، حتى تصل بهم
 إلى العيادة أو المكتب فى أمان ، وما شاء الله كان !

وأبدع من هذا وأبرع ، أن يعلن الطبيب أنه إذا لم يكشف
 من المرض فى ٤٨ ساعة فقط ، فانه يرد إلى العليل ما دفع من النقود .
 رأيت مثلاً أبلغ من ذلك فى الكفاية ، والثقة بالنفس ، والتمكن
 من الفن ، والقدرة المستيقنة على شفاء العليل ، مهما تعاضت فى
 ٤٨ ساعة لا تزيد ولو دقيقة واحدة من الزمان ؟

ولولا فضل الاعلان ما تسنى للذين ضربتهم العليل ، وقست
 عليهم الأسقام ، وألحت الأوجاع والآلام ، أن يبرأوا عن علمهم ،

ويتخلصوا من آلامهم وأوجاعهم في مثل هذا الزمن اليسير ، والشفاء مكفول ، وإلا فالمال مردود ، وموفى غير منقوص .

ومن الآيات التي تشهد لمصر بالبراعة والفوقان ، في فن الاعلان ، أنك ترى صاحب مصنع الأثاث مثلاً ، يجلو صورته هو بدل أن يجلو عليك صورة كرسى ، أو سرير ، أو ثريا ، أو صندوق ، أو منضد « تراييزة » ، فإِنَّ الانسان ، من غير شك ، أكرم وأشرف من كل ما على وجه الأرض من صنع الانسان . ثم أنه ، من غير شك أيضاً ، أحسن خلقاً وأجمل شكلاً من كل ما أخرجت مصانع الشرق والغرب ، من فاخر السرر والكراسى والصناديق والثريات والأنضاد . أليس قد قال الله تعالى في كتابه الكريم : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (١) ، صدق الله العظيم .

أما التبريز في العبقریات ، وإصابة غاية الغايات ، ففي التفات صاحب المطعم عن أن يصور في إعلانه عن طعامه حملاً مشوياً ، أو أرنباً برياً ، أو ديكاً رومياً ، أو سمكاً طرياً ، أو « طاجناً » فرنياً ، أو ثمرأً جنياً ، أو كعكاً شهيئاً ، أو نحو ذلك مما يزعمون أنه يبعث الشهوة إلى الطعام ، ويحفز المعدة للازدراء والالتقام . بل تراه يلتفت في إعلانه عن هذا الكلام الفارغ ، ويصور شخصه هو وعلى ثغره ابتسامة أحلى وأشهى من كل ما أنضجت الأفران من حلوى وسمك ولحمان ، ومن كل ما حملت الأغصان من فاكهة ونخل ورمان ! أصدقت ، بعد هذا ، أننا قد بذنا الأمريكان في فن الاعلان ؟

التأمين على الموت

وسياخذك العجب حين يقع بصرك على هذا العنوان ، وستوجه الأمر على الخطأ ، فتظن أنني أردت أن أقول : « التأمين على الحياة » فقلت : « التأمين على الموت » ، فبين الحياة والموت تضاد ، والتضاد من أقوى العلاقات . وقد يتبادر إليك الظن بأنني أعبت أو أمزح بقلب المعنى ، والدلالة بالنقيض على النقيض !

وإنني أوكد لك ، يا سيدي القارىء ، أنني لم تلاحقني خطأ ، ولم يزلقني غلط ؛ فقد تحريت هذا القول تحرياً ، وتعمدته تعمداً . وأؤكد لك ثانياً أنني لا أقصد إلى عبث ولا إلى مزاح ، فالأمر أجل من ذلك وأعظم . وستعلمن نبأه بعد حين !

فاذا استشرفت نفسك إلى علالة تبيل بها الصدا ، أو لجة (تصبيرة) تشد بها المتن حتى يأتي الوقت المقسوم للبيان ، فلا بأس على بذاك ، إذاً فاعلم ، علمك الله الخير وحجب عنك المكروه ، أنه لن يطوى من الزمن طويل حتى تقوم في مصر شركات « للتأمين على الموت » بجانب شركات « التأمين على الحياة » !

ولأول مرة تسبق مصر العالم جميعاً في ابتكار هذا اللون من النظم المالية ، بل إنها ستتأثر بهذا النظام دون العالم جميعاً !

وبعد ، فلقد تعلم أن فى مصر أزمة زواج تشتد عاماً بعد عام ؛ وهذه الأزمة تنحصر فى المدن ، لم تطرق القرى والحمد لله !
ولقد زعمت فى بعض مقامات الكلام (لا أدري أفى الراديو أم فى بعض الصحف أم فيهما كليهما) زعمت أن هذه الأزمة ترجع إلى أسباب عدة ، أهمها ما أصبحت تقتضى حياة الزوجية ، فى هذا العصر ، من جليل النفقات .

كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أوليائه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران ورداءان فى العام ، وما حاجتها إلى حذاء وهى حلس خدرها طوال الأيام ؟ إذاً فى الكوث (الشبشب) على رأى أستاذنا العلامة الشيخ مهدي خليل ؛ إذاً فى الكوث والقبقاب غنى وكفاية .

ثم إنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهى ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض ، ونفض الأثاث ، وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين ، وخدمة الطفل الصغار الخ . . .

والآن لا تحسن البنت الحضرية شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفت وأحسنته لا ترضى بأن تعالجه أنفة وحفظاً للكرامة ، ودعنا من الأنفة والكرامة ، وحدثنى بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة الحضرية بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم من غشيان السينما وغيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل

من أن ينام صدرًا من النهار . ولقد يتصرم سائرُه في الاختلاف إلى الخياطة ، ومتاجر الثياب والزينة ، وزيارة الأصدقاء والأتراب ، والتفرج في المتنزهات في صحبة الزواج أو بعض ذوى الأرحام ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يستهلك من الوقت ، بعض النهار ومهبط الليل ، في التجميل والتزين ، وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدع (مودة) ، سواء جرى ذلك في البيت أو في دكان الحلاق . ولا بد أن يكون لقراءة الروايات من مساحة اليوم حظ غير قليل . ثم إن هذا وهذا وهذا لقد ضاعف نفقات الزوجية أضعافاً كثيرة ، فليسينا وسواها من دور التسلية أجر ، وللكوب في الغدو والرواح أجر ، ولتنظيم شعر الرأس coiffure أجر . ولا تنس تشذيب أصابع اليدين وصبغهما manucure ، فلذلك كذلك أجر . وإياك أن تسقط من الموازنة بين نفقات المعيشة اليوم ونفقاتها بالأمس ، إن تلك المكدورة في الدار طوال الأيام في غير حاجة إلى الاستكثار من الثياب ولا تعديد الألوان ولا الاغلاء في الأثمان . أما سيدة اليوم وفتاته ، فان موجبات الأناقة ، أو على التعبير العامي الشائع « الشياكة » لتقتضيها ألا تختلف عليها الأنظار وهي في ثوب واحد ، بل لو استطاعت لاتحدت كل يوم من الثياب والأحذية جديداً ، ولبست مستحدثاً طريفاً ، بل إن من السيدات لمن تأنف أن تضع عليها من الثياب في الليل ما وضعت بالنهار .

والحاصل أنك إذا جمعت هذه النفقات الهائلة إلى الخسارة المالية الناشئة عن هجر السيدات للقيام بتدبير المنزل ، ونفورهن من الاضطلاع

بشئون البيت — تجلى لك وجه العذر فى إعراض الشبان عن الزواج فى هذه الأيام . وكيف لهم بالمال الذى يكفى هذه النفقات الجسام ، فوق ما تجشمهم تكاليف السكن ونفقات الطعام ؟

نعم ، لقد أعرضت عن الزواج كثرة الشبان الذين يجرون على عرق من التشقيف والتهديب ، لأن عائداتهم — أو مواردكم بالتعبير الحديث — لا تفى بحاجاتهم الكثار الثقال فى هذا الزمان . فاذا فكر أحدهم فى تحصين نصف دينه اقترن هذا التفكير بالتماس الزوج ذات المال ، لتعينه بما لها على شأنه ، وتضع عنه بعض حمله ، فاذا لم يكن لها مال حاضر فحسبه غنى الأب أو الأم وإنهما إذا لم يعيننا فى الحاضر ، ففي ميراث أحدهما أو كليهما عزاء وشد للمتن ، وعون على موالاة السير فى طريق هذه الحياة .

وإننى أعرف أن كثيرين من الشبان لم تطلب نفوسهم بتوثيق عقدة الزواج إلا بعد أن أخرج لهم الأحماء حجج أملاكهم ، إن أطياناً زراعية ، وإن أبنية قائمة ، فاطمأنوا إلى صحتها واستيفائها لشروط عقود الملكية . وربما مضى أحدهم فى سر من أولياء الفتاة إلى المحكمة المختلطة ، فاستخرج الشهادات العقارية الدالة على خلو الأعيان من كل رهن أو اختصاص أو امتياز ، حتى يقبل مطمئن الضمير على الزواج .

ولكن ! . . . آه ولكن ! . . . ولكن من ذا الذى يضمن أن تقصر آجال هؤلاء الأصحاء ، لتحقق التعزية ويعجل المقدور بالرجاء ؟

وما يدرينا لعل أعمارهم تطول وتطول ، حتى يقيموا هم المناحات على البنات وأبناء البنات ؟

إذاً فينبغي أن يضاف إلى الاطمئنان على صحة عقود الملكية الاطمئنان إلى أن الرجل قد أسن وهرم ، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب . ليضمن العريس أن أيام حميه في الدنيا غير محدودة ، وأن خطاه إلى الضريح أصبحت إن شاء الله معدودة !

وإني لأعرف رجلاً واسع الغنى ، ذا وقار ودين ، له بنت أوفت على غاية من الجمال والرشاقة وحسن الأدب . وقد أخذت بحظ من علوم العصر وفن تدبير المنزل . وأسرة ، هذا الرجل على استنارتها وقوة ثقافتها ، ما برحت تحافظ على جميع التقاليد التي تحرص عليها كل أسرة تشعر بالكرامة والاحترام في هذه البلاد .

ويتقدم شاب موظف في الحكومة لخطبة الفتاة ، وترضى الأم ، في سر من بعلها ، باخراج أسانيد الملكية للخاطب ، وأنت خير بلهفة الأسهات على تزويج البنات . وبعد إجراء اللازم من فحص هذه المستندات ومراجعة دفاتر المحكمة المختلطة ، والاطمئنان إلى أن الأعيان نظيفة لم يعلق بها شيء من الحقوق وحينئذ صرف عنان السعى إلى تفقد صحة حميه العزيز .

وأول ما بدا له من هذا أن يجعل لاحدى خدم الدار جعلاً على أن تريه مناديل البك التي في طريقها إلى الغسيل . فتظاهرت الخادم بالرضا ، وواعدته زماناً ومكاناً ، ومضت من فورها إلى سيدتها فأخبرتها الخبر . فأشارت إليها أن افعلى ، وحذرتها مطالعة سيدها بذلك .

وما أشد خيبة المسكين ، إذ يبسط المناديل كلها ظهراً وبطناً ، ويحد النظر فى خيوطها خيطاً فخيوطاً ، حتى يكاد من شدة التحديق ينقض نسجها نقضاً ، فلا يرى فى أيها أثر الدم من نفثة صدر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وما له يأس ؟ وما له يقنط ؟ أفكتب على الناس ألا يموتوا إلا بذات الصدر ؟ وإذا كان السل معجلاً للأجال ، فلا شك فى أن السكر والزلال من حبائل عزرائيل .

وهنا تقوم مشكلة . فان أخذ النماذج (العينات) من بول الرجل لتحليلها يقتضى ولا بد علمه ورضاه فليس للأبوال شأن المناديل . إذاً لم يبق إلا إتخاذ الصراحة . ولا شك أن كل زواج لا تقوم وسائله على الصراحة لا خير فيه . بل قل أن يكفل له بقاء . وما كاد الرجل يسأل فى هذا حتى تار ثأره ، وجن جنونه . وهم بالبطش بالرسول ، لولا أن أسعفته ساقاه بالفرار . وأرسل البك فى دعوة ابن أخيه غير المتعلم ، وعقد له على بنته لساعته .

وبعد ، فليس كل الناس بقادر على أن يرغم ابنته على الزواج من قريبه ، واقعاً شأنه فى الحياة ومن هوى الفتاة حيث وقع ، وليس كل الناس بقادر ، إذا طاب له ، على أن يعضل ابنته حتى تشيخ وتعنس . وليست الآجال بأيدي الخلق ، حتى يعجل الآباء الموسرون بأجالهم ، ليتقدم لبناتهم الخاطبون من شباب هذا الزمان . إذاً لم يبق إلا حل واحد لهذه المشكلة الاجتماعية التى تعانيتها

مصر في هذه السنين . حل واحد يستدرج الشبان للزواج ، ولا بأس به على البنات ولا على آباء البنات . بل إنه فوق هذا وهذا ليفسح في النظام الاقتصادي ويضيق من مساحة العطلة في البلاد . وهذا الحل الفذ الذي لا حل قبله ولا بعده ، هو أن تؤسس في مصر شركة أو شركات للتأمين على الموت تقوم بجانب شركات التأمين على الحياة . وهذه شركات التأمين على الموت ، وقاك الله البليات ، وعصمك من خطبة الشباب للبنيات ، تجرى في معاملاتها على عكس ما تجرى عليه شركات التأمين على الحياة ، وإليك البيان . يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه الموصر أو حماته الموصرة بمبلغ معين ، يؤديه هو للشركة إذا حم القضاء ، وحل إرث الأحياء . وذلك لقاء قسط شهري أو سنوي معين ، تؤديه الشركة للشباب المؤمن . وهذا القسط يقل ويكثر طوعاً لمبلغ التأمين من جهة ، وصحة الحم العزيز أو الحياة المحبوبة من جهة أخرى . وبهذا النظام يكفل اليسر العاجل للشباب ، والمغرم الآجل للشركة . في حين لا يوتر المرحوم أو المرحومة في زيف ولا صحيح ، اللهم إلا وهو ملحد في الضريح . وإن من قد دس في التراب ، لفى شغل بحساب غير هذا الحساب !

ولعلك قد وفقت على هذا النظام المالى البديع ، في غير حاجة إلى من يزعم أن أحسن « زبائن » الشركة وأولاهم بالأغلاء في الأقساط وأجورهم بعدم المبالغة في مقدار التأمين ، هم الذين شاعت فيهم الأسقام وألحت عليهم العلل ، ومن خنقهم الذبحة

أو أبطلهم الشلل . فاذا كان فى البول سكر أو زلال فقد تراءت
 المنى وتداننت الآمال . وإذا كان مع السكر أستون *acétone* فالخط
 مكفول مضمون . وإذا كان فى الزلال سلندر *cylindre* ، فذلك
 السعد الذى لا يقدر . إذاً فقد حق اليسر والبسط ، وهبط التأمين
 وارتفع القسط . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولو من طريق
 العلل والأسقام والأوصاب !

فليبتل إلى الله من شاء من ذوى اليسار ، أن ينعم عليه بالعلل
 التى تقصف الأعمار ، حتى يفرح بالأكفاء الظرفاء من الأصهار ، دون
 أن يوتر من درهم ولا دينار ، فاللهم قنا الغنى فى الدنيا وقنا فى
 الآخرة عذاب النار .

شركة تنشيف الريق

أكثر الصحف في هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب المعالي وزير الأشغال ، خاصة بتخفيض ثمن المياه في القاهرة ، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ! ولقد زعم لى زاعم من المؤرخين أصحاب الإحصاء ، أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ٤١١ و ٣٢٠ و ٦٢٤ و ٨٥٣ و ٤٧١ ! فترى هل آن أن ينجح المسعى ، وتخط الشركة من أثمان الماء ، فقد مضى على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ، وهم يغصون بماء النيل . وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريين وما يعانون من شركة المياه حين قال :

نفر إلى الشراب إذا غصصنا فكيف إذا غصصنا بالشراب ؟
ترى هل ينجح السعى هذه المرة ، ويحق لساكناً القاهرة أن
يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالماء الفرات ؟
يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غيرحانت ولا آثم ، إن الشركة

ليست تأتينا بالماء من إفيان ، ولا من إكس لبيان ، ولا من فيشى
ولا من بلاد اليابان حتى يلتمس لها العذر ، بنفقات النقل فى البر
والبحر ، وأجور الحزم واللف والتعبئة والصف ، والتأمين خوف
الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطب فى أثناء
الطريق . وناهيك بحساب ماقد يكسد فى الأسواق منه ، وما قد
يبور فى المتاجر بانصراف الهواة عنه . ومن يدري فلربما ظهرت
« ماركة » ماء جديد ، « موديل » سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩
فيها من المزايا ، ليس فى هذا الماء ، فى رى العطاش وبلى صدى
الظاء !

ليست تجىء بشئ من هذا حتى تغلو هذا الغلو فى الأسعار ،
توقياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذى يشق
مدينتنا ، والذى يجرى بين أيدينا ، والذى طالما طفى وزاد ، حتى
أغرق البلاد ، وأهلك العباد وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى
بربات الخدور إلى متن العراء . بل إن من يرى متدفقة فى دميّ
أو فى رشيد ، ليحسب أنه ماض لرى العالم القديم والعالم الجديد .
وتراه يغدو فى شمالنا وجنوبنا ألف ترعة ، فاذا جاز بنا ضيقت الشركة
ذرع ، وباعتنا ماءه « بالشربة » والجرعة ! حتى أصبحنا ، ونحن نغدو
على حفتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

يا سرحة الماء قد سدّت موارده أما إليك طريقٌ غير مسدود ؟

حقاً يا سيدتى الشركة ، لقد سامتنا « عداداتك » رهقاً وعذاباً ،

وجرعتنا من نيلنا علقماً وصاباً ، وكان من قبل سكرًا مذاباً ، وكان
شهاداً وجلاباً ، لقد ساغ ورداً وحلا شراباً !

حقاً يا سيدتى الشركة ، إنك لتروقين الماء ولكنك تعكرين
النفوس ، وتملئين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !
يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطينا الماء وتقتضين الذهب ،
ولو كان مالنا نيلاً لجف يا شركة من كثرة النزاع ونضب !
إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالتة العامة من
قديم الزمان : « الميه ماتفوتش على عطشان » !

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا . ولكن
فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء ؟
ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أما آن لوزارة الأشغال أن
تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دها المعهود ، فتترفق
فى ثمن الماء ، وتخفف عن كواهلنا ما يهددها من الأعباء ، فقد اعترانا
الداء من ناحية الدواء . والله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب الماء غصّته
فكيف حالُ الذى قد غص بالماء ؟

فان فعلت ، وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ،
لنتعوض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار . وإنى لأخشى أن تلاحقنا
الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط الاشتراك ، بعد أن تحوز ماء

الغمام في مواسير ، وتختتم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو
تعلقنا بالسحاب ، أو تدسسنا في التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع
والمآب !

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرجي عنا من هذا
الضيق ، وإلا لاضطررنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق »
والسلام .

قطوف

٢

دار الكاتب المصري

عبد العزيز البشري

طُوف

٢

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

فہم — رس

صفحة

١	بين الأدب والحرب
١٩	عبرة العبر
٢٧	أسعفوا التاريخ
٣٣	قبلية
٣٩	مأساة
٤٥	مسألة
٥١	كيف كان الشبان يزوجون
٥٩	كيف كان الشبان يزوجون
٦٥	الأدب الفج
٧٣	ذكريات - بيني وبين حافظ ابراهيم
٨١	مهم الأديب في الشرق أن يكون أديبا شرقيا
٨٧	عباقرة الفن
٩٥	تقاليد الفن في مصر
١٠١	فن الحزن
١١١	الموسيقى المصرية قديم وجديد

١١٩	 بلاغة التلحين
١٢٥	 في السياحة
٣٠	 الحكاءون
١٣٧	 الحكاءون
١٤٣	 الحكاءون
١٥١	 مع ذبابة
١٥٩	 عواطف
١٦٥	 على ابراهيم في المرأة
١٧١	 أحب أولادى وأكرهم
١٧٩	 الشحاذون المودرن
١٨٧	 الكذب الفنى

بين الأدب والحرب

لا غرو علىّ إذا زعمت أن الأدب ليس مديناً لشيء من الأشياء بقدر ما هو مدين للحروب . هو مدين لها في قوته وازدهاره ، وسعة آفاقه ، وكثرة تصرفه في فنون المعاني وتقلبه في شتى الأغراض . لقد دخل حديث الحروب وأسبابها وما يتصل بها في أكثر أبواب الأدب ، واحتل منها المكان الأرفع ، بماله من شدة القول ، وجزالة اللفظ ، وتلاحم النسج ، وإشراق الديباجة ، ورقة التشبيه ، وبراعة التخيل . ولك أن تقلب النظر في أبواب الأدب لتدرك كيف أمد حديث الحروب وغذى ، وكيف أعز وأغنى ، وما ولد من المعاني ، واستحدث من الصيغ ، وأجد من رائع الكلام . وإنك لتجرب هذا الحكم بدرجة سواء على أبواب الوصف ، والفخر وما إليه من الحماسة والمديح ، والرياء والهجاء ، حتى الغزل . وأي شيء لعمري وراء ذلك من أبواب الآداب ؟

ولم يقتصر تصرف البلاغات الحربية على أحد الفنين ، بل لقد شاعت في النظم والنثر جميعاً . وكان في الذروة بالضرورة منها ما جاء به القرآن الكريم ، ويأتى بعد ذلك كلام النبي عليه الصلاة والسلام . وبعد ، فلقد قالت العرب ، وقال المستعربون ، في وصف الحروب

وجياد الخيل ، والسلاح ، ووصف الشجعان ، والخوارين الجبناء ، كما قالوا في الصبر والأقدام ، والمكيدة في الحرب ، والتحفظ من العدو ، وناهيك ما تفاخروا به من الشجاعة وتكاثروا ، وما تذاثروا به من الجبن وتعايروا . وما مدحوا به الحكمة فأبدعوا في الشناء ، وما رثوا به قتلى الحروب فأفلقوا في الرثاء . وذلك إلى ما أثر في هذه الأبواب من حكم الحكماء ، وما سار من أوامر القادة ووصايا الأمراء الخ . . . وإذا كان استقصاء ما قيل في الحروب وأسبابها وما يتصل بها مما يتجاوز جهد الطاقة ، وإذا كان الإتيان على ما جاءت به كتب الأدب والتاريخ والسير مما لا يحتمله مقال ، بل إن محله الأسفار الضخام — فإن من الحق علينا أن نأقى بألوان من النماذج في هذه الأبواب . ولنبدأ ببعض ما ورد في القرآن العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . » (١)

وقال جل وعلا : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ . » (٢)

وقال : « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . » (١)

وقال : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا . وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . » (٢)

وقال : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ، « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » (٣) وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَوكُمْ . » (٤)

وقال : « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفَّ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكِيلًا . » (٥)

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا . » (٦)

(١) سورة النساء . — (٢) الحج . — (٣) صادقتهم وظفرتهم .

(٤) سورة البقرة . — (٥) النساء . — (٦) الصف .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً . » (١)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ . » (٢)

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . »

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ . »

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ (٣) فَشَدُّوا الْوَتَاقَ ، فَاِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَاِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . » (٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ . » (٥)

« فَاِمَّا تَشْتَقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ

(١) سورة التوبة . — (٢) التحريم . — (٣) ائقلموهم بالقتل والجراحات . — (٤) سورة محمد . — (٥) الأنفال .

لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِرْ
إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . « (١)

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ
آمَنُوا ، سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . « (٢)

« يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَقَاتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ
لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
مَضَاجِعِهِمْ . « (٣)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ » (٤)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » « يَأْتِيهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . « (٥)

« يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
مُجُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . « (١)

ونختم ما أوردنا من آي الجهاد بما وصف القرآن به جياد الخيل
في الغارة ، قال جل مجده وتعالى ذكره : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (٢) .
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٤) . فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا (٥) ،
فَوْسَطْنَنَ بِهِ جَمْعًا . »

الله أكبر ! هذه بلاغة تنقطع دونها علائق الأقلام . وليت
شعري هل يعدل كلام الله كلام !

في الشجاعة والإقدام

والآن ننتقل إلى ما قيل في الشجاعة والإقدام . ونبدأ بما كان
من خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام :
روى الإمام البخاري بسنده أن رجلا سأل البراء بن عازب رضى
الله عنه : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(١) سورة الأحزاب . — (٢) العاديات : الخيل التي تعدو في الغزو ، والضبح
صوت أنفاسها إذا عدت . — (٣) الموريات : القادحات . والايراء : إخراج
النار . والمراد ما ينقذ من حوافرها . والقدح : الصك . — (٤) المغيرات :
الشديدات العدو في الغارة . — (٥) النقع : الغبار . والمراد غبار الحرب .
ويقال له أيضا : الرهيج بفتححتين .

قال نعم ! لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر . ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، وأبوسفيان أخذ بلباسها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبي لا كذب . وزاد غيره : أنا ابن عبد المطلب قيل فما رأى يومئذ أحد أشد منه . إلى أن قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين . فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار .

وعن علي رضي الله عنه قال : إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الخدق ، اتقيناه برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . وقيل : كان الشجاع هو الذي يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو لقربه منه .

وقال له أبي بن خلف حين افتدى يوم بدر : عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله !

فلما رآه يوم أحد ، شد أبي على فرسه ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هكذا . أى خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض . ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدى منها عن فرسه مراراً . فرجع إلى قريش يقول : قتلني محمد . وهم يقولون : ألا بأس بك . فقال : لو كان

ما بى بجميع الناس لقتلهم ! أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصق
على لقتلى .

وهلك الخاسر فى قفول قريش إلى مكة .

ومن أبلغ ما قال الشعراء فى الشجاعة ، قول العباس مرداس السلمى :

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها

وقول المتنبي :

شجاع كأن الحرب عاشقة له إذا زارها فدته بالخييل والرجل

وقول البحنرى :

معشر أمسكت حلومهم الأرواح ض وكادت لولاهم أن تميدا
فاذا الجذب جاء كانوا غيوثاً وإذا النقع ثار ثاروا أسوداً
وكان الاله قال لهم فى الـ حرب كونوا حجارة أو حديداً

وقول آخر :

قوم شراب سيوفهم ورماحهم فى كل معترك دم الأشراف
رجعت إليهم خيلهم بمعشر كل لكل جسيم أمر كاف
يتحننون إلى لقاء عدوهم كتحنن الآلاف للآلاف
ويباشرون ظي السيوف بأنفس أمضى وأقطع من ظي الأسياف

وقول آخر :

الضاربين بكل أيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

في الجهاد والصبر على الشدائد

ومن أحسن ما قيل في فضل الجهاد ، والصبر على شدائده ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها » و « الجنة تحت ظلال السيوف » و « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله . والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين ، وقد قيل له : أتقاتل أهل الشام الغداة ، وتظهر بالعشي في إزار ورداء ؟ فقال : أبا الموت تخوفونني ؟ فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليّ ! بقية السيف أنمي عدداً . وقيل له : إن درعك لا ظهر لها ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهري فلا يبق !

وقال خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا ، وما في جسدي موضع إلا فيه طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، أو رمية بسهم . وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير . فلا خامت أعين الجبناء !

وقال عبد الله بن الزبير ، لما بلغه قتل أخيه مصعب : إن يقتل
فقد قتل أخوه وأبوه وعمه . إنا والله لا نموت حتفاً . ولكن قعصاً
بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف !

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك !
فقال : إن لم آت الموت مسترسلاً ، أأتى مستعجلاً . إني لست آتى
الموت من حبه ، وإنما آتيه من بغضه . وتمثل بقول الحصين
ابن الحمام :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وهى قصيدة مشهورة منها :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من كرام أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظما

وقال جرير :

قل للبيان إذا تأخر سرجه
هل أنت من شرك المنية ناجي

وقال حبيب بن أبي أوس الطائي :

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
غدا غدوة والحمد نسج رداءه
وقال لها من تحت أنمصك الحشر
فلم ينصرف إلا وأكفانه الآجر
لها الليل إلا وهى من سندس خضر
تردى رداء الموت حمراً فما أنى

في وصف الحرب

ومن أبلغ ما قيل في وصف الحرب : مشت الفحول ، مشى الوعول
فلما تصالحت السيوف ، فغرت المنايا أفواهاها . وقول الشاعر :

كأن الأفق مخفوف بنار وتحت النار تزيير
وقول الآخر :

ويوم كأن المصطلين بحره وإن لم يكن حجر وقوف على حجر
صبرنا له حتى تجلى وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر
وقول حسان :

إذا ما غضبنا بأسيفنا جعلنا الجاهم أعمادها
وقول المتنوخى شاعر اليتيمة :

في موقف وقف الحمام ولم يزرغ عن ساحتيه وزاغت الأبصار
فقننا تسيل من الدماء على قنا بطواهن تقصف الأعمار
ورءوس أبطال تطاير بالظبي فكأنها تحت الغبار غبار
وقول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما
وقول بشار :

كأن مشار النقع فوق رءوسنا وأسيفنا ليل تهادى كواكبه

ومن أبدع ما وصف به السيف قول البحترى :

يتناول الروح البعيد مناله	عفواً ويفتح فى الفضاء المقفل
ماض وإن لم تمضه يد فارس	بطل ومصقول وإن لم يصقل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة	من حده والدرع ليس بمعقل
مصغ إلى حكم الردى فاذا مضى	لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

وقول ابن المعتز :

ولى صارم فيه المنايا كوا من	فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه	بقية غيم رق دون سماء

ومن أبدع ما قيل فى الرمح قول ابن تمام :

أنهبت أرواحه الأرماع إذ شرعت	فما ترد لريب الدهر عنه يد
كأنها وهى فى الأوداج والغة	وفى السكلى تجد الغيظ الذى تجد
من كل أزرق نظار بلا نظر	إلى المقاتل ما فى متنه أود
كأنه كان خدن الحب مذ زمن	فليس بعجزه قلب ولا كبـد

ومن أروع ما قيل فى الحرب ، قصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح الأسود الصحائف	متونهن جلاء الشك والريب

وهي مشهورة ومنها :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
ضوء من النار والظلماء عاكفة
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
تصرح الدهر تصریح الغمام لها
لنار يوماً ذليل الصخر والخشب
يشله وسطها صبح من الذهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
وظلمة من دخان في ضحى شحب
والشمس واجبة من ذا ولم تجب
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

في الجبن والفرار

ومن أحسن ما ورد في صفة الجبن ، والتعيير بالفرار والذعر ،
قول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى
ترك الأعبة لم يقاتل دونهم
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ونجا برأس طمرة ولجام

وقال المتنبي :

يرى الجبناء أن الجبن حزم
وتلك خديعة الطبع اللئيم

وقال غيره :

يفر جبان القوم عن عرس نفسه
ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه

وقال آخر :

وضاقت الأرض حتى إن هاربهم إذا رأى غير شئ ظنه رجلاً

وقال جبان يتحدث عن نفسه :

قامت تشجعنى هند فقلت لها لا والذي منع الأبصار رؤيته
إن الشجاعة مقرون بها العطب ما يشتهى الموت عندي من له أرب
إذا دعتهم إلى نيرانها وثبوا للحرب قوم أضل الله سعيهم

وقيل لجبان في بعض الوقائع تقدم ، فقال :

وقالوا تقدم ، قلت : لست بفاعل فلو كان لى رأسان أتلفت واحداً
أخاف على فخارقي أن تحطما ولكن رأس إذا زال أعقما

وقال مثله :

تمشى المنايا إلى قوم فأبغضها فكيف أعدو إليها عارى الكفن

وقيل لأعرابي : ألا تعرف القتال ؟ فان الله قد أمرك به ،
فقال : والله إلى لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أمضى إليه
ركضاً ؟

وقيل لزيد : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت
شخصاً بالليل فكن للاقدام عليه أولى منه عليك . فقال : أخاف

أن يكون قد سمع الحديث قبلى فأقع معه فيما أكره . وإنما الهرب خيراً .

وقالت عائشة رضى الله عنها إن خلقاً : قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خفقت الريح خفقت معها . فأف للجبناء ، أف للجبناء !
ولقى غلام أعرابياً فاراً من القتال فقال له : كيف تفر يا عم من لقاء العدو؟ قال : يا بن أخى ، كيف يكونون لى عدواً وما أعرفهم ولا يعرفونى؟

وعير آخر الفرار فقال : لأن يقال : فر لعنه الله ، خير من أن يقال : قتل رحمه الله !

وكان أبو حية النيمرى من أجبن الناس وأكذبهم . وكان له سيف يسميه (لعاب المنية) ليس بينه وبين الخشب فرق . روى بعضهم أن جاز لأبى حية حدثه فقال :

دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصاً . فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه (لعاب المنية) وهو واقف فى وسط الدار ، وهو يقول : أيها المغتر بنا ، المجترى علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك . خير قليل . وسيف صقيل . لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته . أخرج بالعفو عنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك . إنى والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها ! وما قيس ؟ تملأ والله لفضاء خيلاً ورجلاً . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيها ! فبينما هو كذلك إذا الكلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخنك كلباً ، وكفانى حرباً !

في الغزل

ومن أجود ما أوصف صور الحرب إلى الشعراء في باب الغزل
ما قال المتنبي:

يابنت معتنق الفوارس في الوغى لأبوك ثم أبر منك وأرحم !
وقال ابن هاني الأندلسي:

فتطاف لحظك أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك ؟
أجلاد مرهفة وقتك محاجر لا أنت راحمة ولا أهلوك !
يابنت ذى البرد الطويل نجاده أكذا يكون الحكم في ناديك ؟
وقال الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتني رميمها ولكن عهد بالنضال قديم
وقال عنتره:

ولقد ذكرتكم والرماح فواهل منى ويض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المبتسم

هذه نماذج يسيرة جداً جداً إذا أضيفت إلى ما قيل في الحرب
وآلاتها وسائر أسبابها . على أنها ، فيما أرى كافية حق الكفاية في الأمانة
عن مبلغ ما أجدت الحروب على الآداب .

وبعد ، فلقد قال السابقون في الفوارس المعلمة ، والخيل المسوقة ،
والقس المتورة ، والسهم المنصولة ، والقنا الحظية ، والسيوف
الهندوائية ، كما قالوا في خزف المقاليع ، ورمى المجانيق . وذلك كل
ما شهدوا في زمانهم ، وأدركوا من آلة حربهم وقتاً لهم . ومع هذا فقد
أطالوا وأكثروا ، وأبدعوا فيما خيلوا وصوروا ، وانتظموا البديع من
الفصح ، وآتوا بالعاجب من الصيغ . فضاعفوا ثروة العربية ، وأبعدوا
أفاقها إلى غاية المدى .

فهل لنا أن ننظر من كتابنا وشعرائنا اليوم مثل هذا ، وقد
أجد العلم للحرب ما أجد ، مما لا يكاد يحصيه عد ، ما بين مزمزمات
في جو السماء ، ومدمدات على متن الغبراء ، وغائصات في جوف
الماء ، وسابحات على وجه الدماء . وقاذفات من اللهب بأمثال الشهب
وناضحات بالغاز الخائقة ، وراميات بالقنابر الناسفة والخابزة الخ . . .
ما أعد المعلم المجرم ولا كراته ، من أهوال تشهد العالم أهوال القيامة .

عبرة العبر

هذه الشمس تطالع العالم بجفنيها من جانب الأفق . وما تلبث أن تسلك منه رويداً رويداً ، حتى يستوى إطارها على منته . وما تزال في خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية . وكذلك ما تزال تمطر فيها وتبسطها من الشرق إلى الغرب . وهكذا تظل تحب في مدرجها إلى قبة الفلك . وكلما خطت بالزمن خطوة ، رأيتها تشتد وتترعرع ، ويسطع ضوءها ، ويحمر وهجها إلى أن تبلغ الندوة وتسوى على أعلى الأوج .

وأنت خير بأنه ليس بعد الصعود إلى الهبوط ، فهذه سنة الله تعالى في كونه ؛ وكذلك تجري سنته على هذا الكائن العظيم ؛ فليس بعجيب أن يدعو الفلكيون هذه اللحظة ، أعني لحظة استواء الشمس في أعلى الأوج بالزوال ، إذ كان بدء الزوال ، هو غاية الكمال ! وهذه الشمس تمشي إلى الغرب في منحدرها كذلك رويداً رويداً ، كما تتداخلها الشيخوخة فالهرم رويداً رويداً ؛ حتى إذا كان اصفر لونها ، وبردت السن من جرمها ، جعلت تتسدى في قبرها من مغرب الأفق مستهلة مستأنية ؛ وهكذا تغيب في لحدها ، غير تاركة من التراث إلا صباغة من الذهب المذاب ، سرعان ما تتبخر

فى حلك الظلام ، وقد تترك تراثها الغض على صفحة القمر ، يرفد
العالم به بعض لىالى الشهر .

تلك سيرة الشمس كل يوم : ميلاد فترعرع ففتوة ، فشاب
وفراة وقوة ، وكهولة فشيخوخة فهرم ، فتدس فى النهاية تحت
الرجم . وسبحان الحى الذى لا يموت !

على أنها فى جميع مراحل حياتها ، عاملة جادة جاهدة ، لا تنى
عن السعى لحظة واحدة . فها هى ذى تستنبت الأرض ، وتزكى
الزراع ، وتبسق الشجر وتنضج الثمر ، وتفتح من أكمامه الزهر ،
ثم ها هى قى ، فى عنفوانها ، ما تفتأ تجتذب البخار عذباً سائغاً من
أجاج البحار^(١) ؛ حتى إذا انعقد سحاباً ، سح فأخضل قفراً وأعشب
يباباً . وهذه الأنهار الجارية سموتها فى أقطار الأرض ، تبعث أسباب
الحياة لكل منتهى للحياة ، وكذلك لا ننسى أنها ما تبرح تعمل
عامّة النهار ، فى تطهير الأرض مما يعلق بجسدها من الأخباث والأوسار
فأى عنصر ، لعمرى ، من حياة هذا العالم يمكن أن يغنى عن الشمس ؟
ألا إنها لمصدر الحياة جميعاً ؛ فحق للعالم أن يقول ، إنما الحياة الشمس
وإنما الشمس الحياة !

(١) كان المعرى ، رحمة الله عليه ، لايؤمن بهذه القضية : اشتقاق (العذب
من أمواه البحار) ، إذ تراه يقول فى بعض شعره :

وفد يجتدى فضل الفحام وإنما من البحر ، فيما يزعم الناس ، يجتدى

كما يقول فى بعض رسائله : أو كالأهواء ، فى مذهب لا أعتقده ، وقول
سواى من يسدده ، يجتذب أجزاء البحار ، فيسقى من تحته عذب الأمطار !

أيّتها الشمس ! ما أحسنك وأجملك ، وما أطيبك وأكرمك !
تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر ، في غير دنى ولا سأم ، ولا ضجر
ولا برم ، ولا صلف ولا استعلاء ، ولا زهو ولا كبرياء . ولو شاء الله
لأهلك بحرّك بعض الأقوام ، ولو قد شاء لأهلك بطول حببك جميع
الأنام !

وبعد ، فما أخلق الذين يمسهم حظ من المجد في هذه الدنيا
والذين يمسون صدرًا من السلطان فيها أن يبتغوا لسيرهم من سيرة
هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل في محيطه للنفع العام في جد
ودأب ، مؤمنين كل الايمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغى أن
يكونا ملكا خالصا للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشيء من
الأشياء .

على أن مما يفجع حقًا أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً
ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا في جماعة أم في شعب
أم في شعوب — سرعان ما ينسون كل شيء لأن الأثرة قد ملكت
من نفوسهم كل شيء . فنفوسهم هي المبدأ ، ونفوسهم هي الغاية .
حتى إذا أجالوا الفكر في منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون لهذه
الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا
السعى مراماً لأنفسهم لا لشيء آخر ، وقد يكون هذا المرام في أعف
الصور هو إحراز المجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل
أن يقع ، فليس أكثر من طريق !

وكيفما كان الأمر ، فإنه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه ، حتى يورم أنفه ، ويتداخله من الصلف الخيلة ما يملأ اعتقاداً بأن الرأى فى الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ما سواه لإصلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شراً وفساداً .

ولقد يشتد طغيان هذه الخلقة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغى أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبت الضار أن يجرى فكرهم بغير ما يجرى به فكره ، وأن تنتهى آراؤهم على غير ما ينتهى إليه رأيه . فاذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما ملتات ممخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفى الحق أن أكثر من يغمرهم هذا الطغيان ، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد ! وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الايمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لإصلاح ما فسد فى رقعة من الأرض أو فى رقاع الأرض جميعاً ؟ فاليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى علاجه ، والراضى فى إمضائه وإكماله !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأى وصالح المشورة ؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضى به الوحي الذى لا يخطئ أبداً !

فاذا تعاظمك ما يختلف على هذا الرأى من عصور العتو والطغيان

تخرب العامر ، وتدمر القائم ، وتقفّر الآهل ، وتراق فيها الدماء بغير حساب ، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب ؛ إذا تعاطمك هذا في عصور الدهر المتتابعة ، فاعلم أن علته تلك الخلقة الفاجرة في الإنسان !

وأمسى ، لقد أتمت دورة الشمس حولاً سلكته في عقد التاريخ أيضاً ، وأذنت العالم بفجر حول جديد .

وإن ذاك العام المدبر ، وهذا العام المقبل ، لهما — كما تعلم — من أعوام الهجرة ، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة ، وقد ساد بها الإسلام ، فعد بسلطانه الأنام .

وبعد ، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض من ظلم وفساد ، وتصدع في النفوس ، وتضعضع في الأخلاق ، حتى كاد يقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بعث محمد من عند الله حقاً ، فبلغ رسالته إلى الناس ، كما أوحى إليه بهاربه حقاً ، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والاصلاح والاسعاد .

ولا أحب أن أطيل في وصف ذلك الاصلاح والاسعاد ، فيحسبهما أن تنزل بآياتهما وحى كريم ، من عند الله العلى العظيم .

وإنما أقف وقفة قصيرة عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيد أحد منهم بوحي سواوى ، ولا حى بالعصمة التى حى بها الأنبياء ، إنما هم أناس مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس ، فبأنهم

إنما ساروا سيرة هذه الشمس التي تطالعهم كل صباح وتغرب عنهم كل مساء . على أنها هي تعمل لعالم الأحياء والأجرام . أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يريفون من ورائه فخراً ولا ذكراً لأنهم أشد أمانة من أن يقطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغي أن يجرد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدين بالرأى ولا مستأثرين ، بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأى الذى يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأى الجماعة ، فشرع عندهم مشروع وقضاء مبرم محتوم . يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام . لا كبر ولا مخيلة ، ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والرقعة للضعفاء . وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع .

ولعمري ، لتلك أعلى صور الديمقراطية التى يحلم بها أجل الفلاسفة من قديم الزمان .

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلائهم لم يريقوه ولم يسعوا إليه ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلاً ولا دقيقاً !

وبعد ، فلا أشك أن مما أصفاهم لطاب النفع العام ، وتجانى بهم

عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر بالموت ، وكيف لهم بنسيانته وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة فى العالم تموت كل يوم ، بمراى منهم ، بعد أقوى الحياة ، ولكل شئ نهاية ، ولكل سائلة قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتوالى سعيها فى النفع والتجديد والأحياء ، فان زعيما لن يعود بعد موته ، ولو لاصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرب . فما له ، بعد الموت ، بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .

أسعفوا التاريخ

ليت شعري ، لو سألت ، بعد عشر سنين مثلاً ، شاباً ممن سينضحهم العصر يومئذ ، بل لو سألت اليوم شاباً ممن هم في الثلاثين فما دون — أن يحلو عليك صورة من الحياة المصرية ، وأغنى حياة المدن قبل ثلاثين سنة فقط ، فكيف تراه يقول ؟

أخشى ألا يقول شيئاً قط ، لأنه لا يكاد يعرف منها شيئاً قط ! لقد حالت الكثرة الكثيرة من أساليب حياتنا في هذه المدة القصيرة بسرعة لا أحسبها كانت مما يدخل في حساب مؤرخ ولا عالم اجتماعي ، ولا غير هذين من سائر المفكرين . وبحسب المرء منا أن يلتفت بالذاكرة إلى ما قبل أربعين سنة خلت أو ثلاثين ، ويقلبها في نواحي حياتنا لترجع إليه بصفة قوم غير القوم ، وناس لا يكاد يرتبطهم شبه بهذا الناس !

لقد تغيرنا سريعاً جداً في أخلاقنا ، وآدابنا ، وأسلوب سكنانا ، وطعامنا ، ولبسنا ، وسمرننا ، ولهونا ، وغنائنا ، وزواجنا ، وأعراسنا ، ومآتمنا ، وسائر أسبابنا . فلم يبق ثابتاً من ذلك فيما إلا الأقل من القليل . ولا شك أنه كذلك في طريق التطور والتحويل .

وكذلك تختفى من الوجود صورة أمة ، لتحل في موضعها صورة أخرى ، إذا قدر لحياتنا قرار قريب .

وإذا كان « لكل سائلة قرار » كما يقول الشاعر ، فلا شك
 فى أننا نسلك الآن برزخاً بين عيشين مختلفين أشد الاختلاف ،
 مفترقين أبلغ الافتراق ، عيشين لا يكاد يتسع التصور لأنهما لأمة
 واحدة ، وخاصة فى مثل هذا الزمن القصير !

وليس يتسع هذا المقام ، بالضرورة ، لاستقصاء كل ما تناوله
 التطور الشديد فى بلادنا ، ويكفي أن نعرض الآن نموذجاً واحداً
 يصلح أن يكون مثلاً للجميع .

كان نساء الطبقتين العليا والوسطى ، فى هذا العهد القريب ،
 لا يتدلين فى الطريق إلا مقنعات محجوبات أمتع حجاب . فللرأس
 غطاء ، وللوجه غطاء ، ولسائر الجوارح غطاء . بحيث لا يظهر منهن
 إلا العيون من خلل البراقع ، وأطراف البنان فى قبضهن على مصاريح
 الملاء .

وكانت هذه الأغطية تختلف باختلاف البيئات . فالسيدة أو الفتاة
 المتوسطة الحال ، تتلف فى الملاء الغالية نوعاً ، وقد تكون من
 الحرير (السكريشة) . وكيفما كان الأمر ، فهى تلبسها على زى خاص
 لا ترسلها كما ترسلها نساء الطبقة الدنيا . بل إنها لتضيق على مدار
 الخصر ، وتضفى على ما دونه حتى الكعبين .

وأما قناع الوجه فالبرقع الأسود ، يرسل من أسفل الجبين إلى
 غاية الصدر ، ويحلى من وسط أعلاه بحلية من الذهب غالباً ، أو من
 الفضة المموهة بالذهب أحياناً ، وتدعى هذه الحلية « عروسة » البرقع
 ولا حاجة إلى وصفها ، فلا يزال يضعها بعض « بنات البلد » .

وأما الطبقة « العثمانلى » فيتخذن ، فى العادة ، الحرير (الخبر)
وأما الوجوه فيسترنها بقناع أبيض لا « عروسة » له ولا سواها من
الحلى ، وربما وضعن بدل القناع « اليشمق » وهذا كان خاصاً بالطبقة
الأرستقراطية جداً ، لا يشر كهن فيه غيرهن ، وربما اتخذ نساء الطبقة
الوسطى الحرير (الخبر) إذا دعت بعض المناسبات كحضور الأعراس
والزيارات ذات الخطر .

ولم يكن التجميل بالمساحيق وما يؤدى مؤداها إلا نادراً جداً .
وأكثر ما يكون ذلك فى الأعراس ونحوها . وكان الإفراط فيه والمداومة
عليه معيباً ، وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات
وإنكارهن ، وكثيراً ما يتخذنها موضعاً للاسمار !

وكيفما كانت الحال ، فإن هذا الضرب من التبهيج (أعنى تلوين
الوجوه) لم يكن ليؤذن به قط لفتاة ، بل لست أغلو إذا زعمت أنه
كان منكراً من سيدة ليست ذات بعل . وإن فتاة تفعل هذا لهى
حقيقة بارسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وأقوال يموت الأشراف
فى وجهها ، وانقباض المجالس دونها ، وتخرجها بغشيانها !

والآن ، وبهذه السرعة السريعة ، لقد تجرد نساء هاتين الطبقتين
وفتياتهما من أرديتهن الخارجية جملة . ونضون الأقنعة فلا قناع ألبتة .
وقصرن الشياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر
أعلى الكتف وأسفلها جميعاً . ولست ترى هؤلاء ولا هؤلاء باديات
فى الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء

وصبغ الشفاة بالأحمر الفانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق . بل كاد يصبح ويمسى مما تعاب المرأة بتركه ، وتغير إذا هى تخلت عنه !

ولقد تصادفك البنت فى الطريق ، وهى لما تتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد صبغت شفتيها بالأحمر صبغاً ، ولا أقول دبغتهما دبغاً ! ولقد كثر ذلك وشاع وفشا حتى أضحي لا يلفت من الناس شيئاً من العجب ، وخاصة عند الناجمين الذين لم يشهدوا الأمهات والأخوات منذ بضع عشرات من الأعوام .

ولقد كان التيار جارفاً إلى حد أن سيدة لم تستطع أن تثبت فى طريقه أو تثبت ابنتها ، وأن رجلاً مهما يكن محافظاً شديد الحرص على التقاليد ، لم يستطع أن يملك عن جرف هذا التيار امرأته أو فئاته . بل إن بروز المرأة اليوم فى الطريق ملففة مقنعة ، هو الذى يسترعى النظر وقد يستدعى العجب !

بل إنك لقد تجد فى طريقك السيدة وقد ذرفت على الستين أو طعننت فى السبعين ، أى ممن نشأن فى الحجاب ، وتوارين فى شتى الألفاف دهنراً غير قصير . لقد تراهن اليوم سافرات الوجوه ، مبديات ما أبقي المقص من شعر الرؤوس ، بارزات الأذرع والنحور ، مقصرات الشياب إلى ما يتجاوز أعلى السوق . وقد بالغن فى التبهج والتجمل بألوان الصبغ والدهان !

وأرجو من القارئ ألا يفهم أننى أسوق هذا الكلام على جهة الإنكار ، أو أننى أبغى وعظاً أو أطلب نصيحاً . إنما أنا فى هذا الحديث

مؤرخ واصل لا أكثر ولا أقل . أذكر ما كان في بعض أسباب عيشنا من ثلاثين عاماً فقط ، وما صرنا إليه بعد هذه الأعوام . وصفوة القول أننا في هذه المدة القصيرة جداً في مراحل تحول الأمم قد تطورنا تطوراً شديداً ، وتغيرنا تغيراً كبيراً ، ومع هذا فإنه لم تستقر بنا الحال بعد إلى إقرار !

وبعد ، فلقد أصبح من الواجب الحتم ، والحال ما ذكرنا ، أن يشمر جماعة من مشيخة الكتبيين في تسجيل هذا التاريخ القريب في مدته ، وقد شهدوه وعاشوا فيه ، وعرفوا الجليل والدقيق من مظاهر الحياة في إبانها . وإلا عفت معالمة ، ومحت رسومه ، وعز على الناس بعد أربعين أو خمسين عاماً أن يلتمسوه ويتصوروه كاملاً واضحاً لأنهم لا يجدون إليه السبيل .

ولقد قلت « القريب في مدته » لأنه أضحي بعيداً جداً في شخصه وصورته . وقد أحضرني هذا المعنى قول متمم بن نويرة في أخيه مالك :

فلما تفارقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

اللهم إن أخشى ما أخشاه أن نتهاون قرب العهد بهذا الصدر من التاريخ الذي شهدنا أطرافه ، فيصرفنا هذا التهاون عن تدوينه وتسجيله ووصف مظاهر الحياة المصرية فيه . ثم يلتفت إليه أبناؤنا أنفسهم ، ولا أقول أحفادنا ، فلا يصيبون في التماسه وتمثله إلا عنتاً كثيراً !

هذا عصر مجد على الكبير وما تقدمه بقليل ، ولا أمعن في التاريخ مستهقراً إلى عهود الممالك ، فالأيوبيين ، فالفاطميين فمن قبلهم . أقول : لولا بعثة الحملة الفرنسية ، ولولا المسترلين الانجليزى ، ما عرفنا كثيراً من عادات الأجداد ، بل ما عرفنا ماذا كانت تلبس الحداث !

إن إهمال التاريخ ، لقرب العهد به ، كثيراً ما يحنى على حقائق التاريخ ، وخاصة إذا أعقبته رجات وطفرات كهذه الرجات والطفرات التى جازت بنا . وكادت تأتى على كل شئ من أخلاقنا وآدابنا وتقاليدينا وعاداتنا وسائر أسبابنا .

وإن من رحمة الله بهذا التاريخ القريب أن كان فيه « الفوتوغراف » يسجل الصور ، وأن قام فيه « الفونوغراف » يسجل الأصوات ، وأن شاعت فيه الصحافة فسجلت أهم الأحداث . على أن هذا كله لا يغنى عن التسجيل البيانى يصف ما أخطأته تلك الوسائل ، ويتدسس إلى ما لا تسلكه من بواطن الأشياء .

أرجو أن يشمر بعض مشيخة الكتّابين فى هذا ، تفقيهاً لأبنائنا ، وبراً بتاريخنا لا ينقطع على هذه الصورة ، وتيسيراً لسعى المصلحين الاجتماعيين .

قبلة

قال لى صاحبي فى بعض حديثه عن خطبه : « . . . لا أدري
أكانت أحلى قبلة أصبتها فى حياتى ، أم كانت أمر ما ذقت فى هذه
الحياة جميعاً ؟ أكانت ألد ما ظفرت به من لذائذ الدنيا ، أم كانت
أوجع ما أوجعنى وآلم ما برح بى من كل ما لقيته من الآلام والبرح ؟
أكانت برداً على كبدى وسلاماً أم كانت لهباً وضراماً ؟

« لقد أصبت من جميع ألوان القبل التى يتهاى للمرء أن يصيب ،
قبلت الأم ، وقبلت الولد فى جميع حالاته ، وقبلت الزوجة وغير
الزوجة . وقبلت الصديق أب من سفر مخوف بعيد . وقبلته وقد أبل
من علة رجحت فيه كفة الموت على كفة الحياة . على أننى لم أجد
لذاق هذه القبلة نظيراً ، ولا لطعمها ، بين كل أولئك ، شيئاً . هى
غير أولئك كله ، وأشد وأعنف من أولئك جميعاً !

« لقد كانت قبلة طويلة ، استغرقت منى كل معاهد الحسن ،
واستهلكت كل مجامع الشعور ، حتى لو وخزوني بالآبر ، أولدعوني
بالنار ، ما شعرت بشئ ولا أحسست شيئاً !

« ثم لا أدري ، بعد ذلك ، أبدلت فى هذه القبلة ما كان قد بقى
من عصارة كبدى وحشاشة قلبى ، أم ترشفت بها ما عوضنى عما اعتصر
من حشاشة قلبى ، وعصارة كبدى ؟

« ثم لا أدري ، أهى التى شاعت فى نفسى وسلكتها من جميع قطارها ، أم أن نفسى هى التى استالت ، بشدة الوجد ، قبلة من القبل ؟ »
 « ثم لا أدري ، أكنت أغذوبها حياة أم كنت أستمد منها الحياة ؟ »
 « وسواء أكان الأمر هكذا أم هكذا ، فلم تكن هناك نفس وقبلة ، فلقد صارتا شيئاً واحداً ، لك أن تسميه قبلة ؛ ولك أن تدعوه نفساً ! »
 « يا لها من قبلة هائلة ، ولو كانت أحلى ما التذ به إنسان فى جميع هذا العالم ! »

إلى هنا انتهى صاحبى من حديثه الموجد الأليم . وإذا كنت قد بدأت هذا الحديث من منتهاه ، فاعذرني يا سيدى القارىء ؛ فلقد أعدانى صنيع قصاص هذا العصر ، فكثرتهم إنما يبدؤون القصة من وسطها أو من مآخيرها ، ليعثوا فى قرائهم غريزة التشوق والاستشراف فأخذت فى رواية هذا الحديث إخذهم ، ونهجت نهجهم .
 أما أول القصة ، فإن لى صديقاً كريم المنزلة عندى ، أعرف فيه رهاقة الحس ، ووضاعة النفس ، وطيبة القلب ، وشدة العطف ، وهو شديد الكف بأولاده ، عظيم العطف عليهم ، حتى لا يكاد ينتهى منتهاه فى ذلك أحد ، وهو لا يفتأ يدلهم ، ويرفه بكل ما اتسع له الجهد عليهم ، ويسلى بشتى الوسائل عنهم ، وكثيراً ما يستخفه ذكرهم حتى فى المجلس الجامع لمن يتحشم ومن لا يتحشم ، فيروى من أحاديث كبارهم ، ومن لغو صغارهم ، ما يبالى أظن الناس به ولهاً وعطفاً ، أم ظنوا به حمقاً وسخفاً .

ولقد هاجر هذا صاحبي إلى الريف فيمن هاجروا فراراً بنفسمهم ،
أو على الصحيح ، فراراً بولدهم ، ثم انكفأ بهم إلى القاهرة بعد قضاء
الأشهر الطويلة . ولقيته بعد مقفله ، فاذا هو هزيل مغبر الوجه ،
فلم أشك في أنه قد لحقته علة . فسألته عن حاله وما به ، فقص على
القصة التي سمعت آخرها ، وهاك أولها :

قال صاحبي كان الله له : « هبطت القاهرة لألى بعض العمل .
وتركت ولدى في أتم خير وعافية ، فرحين بعيش الريف الذى
لم يعرفوه من قبل . وقضيت في مهبطي ليلتين اثنتين ثم عدت وقد
حملت إليهم ما أقدرنى الله عليه من التحف والألطف ، وكنت طول
الطريق أتمثل لقاءهم ، ورؤيتهم في هرجهم ومرجهم ، وما عسى أن
أدخل من السرور عليهم . فأجد لذلك لذة لا تكاد تعد لها لذة .
على أننى ما كدت أن أتخطى عتبة البيت ، حتى رأيت جموداً
لم آلفه ، ووجوما لا عهد لى به ، فهولت إلى السلم . وما عرجت بعض
الدرج حتى سمعت أنيناً مؤلماً يتخلله صراخ مزعج ، فجعلت أطوى
الدرج مشى وثلاث ، ثم انتهيت إلى مبعث الصوت فاذا صغرى ابنتى
هى التى تبئن وهى التى تصرخ . وإذا من حولها بين بالك ينشج
نشيجاً عنيفاً ، وبين حاقن للبكاء إلا ما تنتضح به الجفون ، برغمه ،
من قطرات الدموع ، وبين واجم شديد الوجوم ، وبين متحيز العينين
من شدة الذعر والهلع !

فسألت في جزع ولهفة عن الخبر ، فأجابنى من قوى على الكلام
منهم : لقد شعرت الفتاة فجأة في أصيل أمس بالأم شديدة في الجنب

الأيمن ، فظن بادئ الرأى أن ذلك من أثر برد ، وعلى ذلك عولجت بالعلاجات المنزلية المعروفة ، حتى إذا تقدم الليل واشتدت عليها الآلام جئنا من الحاضرة بفلان ، وهو طبيب مشهور ، فظل يعالجها ويحاول تخفيف آلامها ، حتى انجلى عمود الصبيح ، ولم تخب البرح ولا خفت الآلام ! ورأيت المسكينة لا تطيق أن تسكن إلى وضع من الأوضاع ، فهى تسأل أن يجلسوها . فما تكاد تجلس حتى تصرخ . وتسأل إرقادها على الجنب الأيمن ، وسرعان ما تصرخ ، سائلة إرقادها على الأيسر وهكذا ! وهى كلما أنت أحسست كبدى تذوب شعبة بعد شعبة ، ويتقطر سلاؤها قطرة بعد قطرة . فاذا صرخت أحسست قلبى يتوثب فى صدرى ، كأنه كرة تتقاذفها الصبية .

وهى تفتأ تستغيث بمن حولها واحداً بعد واحد ، كأنها تظن أنهم قادرون على أن يرحموها مما تحب ، ويدفعوا عنها هذا العذاب الأليم ! وإنما لتستنجد بى ، فاذا بى أضرع إلى الله تعالى ، وأسأله أن يحول ما بها إلى . ثم أسرع فأستعيد به تعالى من نزغ الشيطان . فإله أكرم ، وأبر وأرحم ، من ألا يدفع الأذى عن عبد من عبيده إلا إذا قذف به عبد آخر ؛ وأستغفر الله العظيم !

وتتفرق جمهرة الأطباء الذين اختلفوا إليه . فمن قائل إنه التهاب فى المصير الأعور (١) ، ومن ذاهب إلى أنه مغص فى الكلية . ومن حائر متردد لا يقطع برأى ولا يرجح شيئاً !

(١) المصير : واحد المصران بضم الميم . وجمع الجمع مصارين بالفتح .

وأطمئن إلى الرأي الثانى ، طوعاً لما قيل : إنه لو كان ثمة التهاب فى المصير ، لظهر من أعراضه كيت وكيت ، وشئ من ذلك لم يظهر البتة .

وتعالج على هذا أياماً ، وهى لا تزدد إلا برحاً وآلاماً .
وفى ذات ليلة من ليالى آخر الشهر سوداء فاحمة قد اشتد بردها ، وللريح عزيف يزعج ويروع ، أسرنى الطبيب بأن لا بد من نقلها فى الحال إلى الحاضرة ، لادخالها المستشفى ، فالأمر حتى خطير ؛ إذ لم يبق عنده ، ما جد من الأعراض الحادة ، أى شك فى صحة الرأي الأول . وأقول له : أليس فى نقلها فى مثل هذه الساعة ، وهى على هذه الحال ، وفى مثل هذا الجو ، وقطعها أكثر من اثنى عشر كيلومتراً مجازفة ؟ فأجاب : لا شك أنها مجازفة خطيرة ، ولكن مبيتها هنا أشد خطراً !

وماذا عسى أن أصنع ، يارب ، غير أن أطيع ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وأعد الذاهبون بها والذاهبات من الأهل عدتهم وجهزوا متاعهم ولم يبق إلا أن تحمل الفتاة المعذبة المذعورة إلى السيارة .
وحين أذن المؤذن بالرحيل ، تغايرت فى نفسى فنون من أعنف العواطف ، منها ما ينطف رقة ورحمة ، ويترقق جوى وإشفاقاً ، ومنها ما يشق الصدر من الأسى شقاً ، ويدق المتن من الجزع دقاً ، ومنها ما ينتظر لى بصور وأشباح تطير الأبواب ، وتمزق الفكر ، وتفقد الصواب أرسخ ذوى الصواب !

جمعت شملى ، وشددت ، على التحطم ، عزمى ، حتى ثنيت على
السريـر صدرى ، وقبلتها قبلة التوديع المهل . اهـ
وإنما يعنى صاحـبى تلك القبلة التى وصفها ، أو التى عجز عن
وصفها ، وقد قدمت هذا الوصف فى صدر الحديث .

فاللهم يا من أذكى فى الصدور حب الأبناء إلى هذا القدر ،
ووكـد الرقة لهم فى الكبود كل هذا التركيب ، إرحم بفضلك الوالدين
فانك أنت الرحمن الرحيم .

مأساة

قال لى صاحبى وهو فى بعض حديثه :

... ولم يكن سيد عشيرته فحسب ؛ بل لقد كان زعيم الاقليم كله ، وكان رحمه الله ، ألمعياً شديد الفطنة ، بعيد النظر ، صادق الحكم . يظل القوم فى مجلسه يتحاورون ويتناقشون ويتنازعون ، حتى إذا فرغوا من شأنهم جلى موضع النزاع فى يسر ، وحكم فيه أعدل حكم .

على أنه كان عصبياً شديداً العصبية ، إلا أنه كان قادراً على أن يأخذ نفسه بالحلم فلا يستفز شئ . بل لقد كان يضحك أو يتضحك مما يغضب أحكم الحكماء ، ولعل ذهنه كان يزخر بالمعانى ، فاذا أراد الحديث تراحمت على لسانه ، فجعل يضطرب بينها ويتردد حتى ما يكاد يبين !

وداره واسعة متعددة الأبنية ، وهى تقع فى حديقة واسعة جداً ؛ وهذه الدار لا تخلو مطلقاً من عشرات الناس فى ليل أو نهار . فمن طالب رفد ، ومن صاحب حاجة تدعو إلى قوة المسعى . ومن متنازعين على مال أو على منصب يختصمان إليه . وجميعهم يأكل أحسن الطعام إذا جاء وقت الطعام . ومن طلب منهم المنام فله ذلك . فالدار كما

قلت واسعة ، والفرش فيها كثيرة . وهى ، على الجملة ، كرحبة مالك
ابن طوق ظلت مضرب الأمثال من قديم الزمان ، وما طالعت هذه
الدار ، إلا حضرنى قول مسلم بن الوليد فى بعض ممدوحيه :

لا يرحلُ الناسُ إلا نحو حبرته كالبيت يفيضُ إليه ملتقى السبل

وأما حكمه بين الخصوم فهو أمضى من أى حكم نهائى تصدره
أية محكمة . لأن الخصوم فى ذلك قد يعوقون التنفيذ بشتى الحيل .
أما حكمه هو فلا تعويق فيه ولا احتيال ، لأن أحداً فى الاقليم
لا يجروء على أن يسر لهذا الرجل عداوة ، فضلاً عن أن يصارح بها ؛
بل إن أحداً لا يرضى لنفسه أن يسوء رأى هذا الرجل العظيم فيه .
وكان يؤثرنى ويحتنى ويعطف على عطفاً عزائى عن فقد الأب
أحسن العزاء . ولا يرضى فراقى له إلا مكرهاً . ولولا أننى رجل
موظف فى الحكومة يؤذنى فى رزقى انقطاعى عن عملى لأمسكنى ،
على الدهر ، فلم يرسلنى أبداً ، فاذا طال إبطائى عنه فى القاهرة بعث
من يستدرجنى إليه بشتى الوسائل .

وقد بدا لى أنه لا بد كان يلاحظنى وأنا على طعامه لأننى رأيت
أنه كلما استطببت ألواناً من ألوان الطعام فأكثر الاصابة منه ، قرب
إلىّ فى اليوم الثانى هذا اللون نفسه ، فاذا هو أطيب وأجود . وهكذا
حتى يلاحظ إعراضى عنه وإقبالى على غيره .

أحبته أكثر مما أحبنى أو مثل ما أحبنى ، فأننى أشك فى أن
حبه لى وعطفه على مما يحتمل المزيد ! . . .

وفى يوم أسود رجعت من عملى بعد الظهر . وما أن بلغت الدار حتى تقدمت بأعداد غدائى . وكنت جائعاً متعباً . وفيما أنا فى الانتظار إذ رن جرس التليفون ، وإذا الآذان بأن الحديث من بلدة كذا ، وإذا المتحدث أكبر أولاده . قال فى سرعة : إحضر يا فلان حالا ، فوالدى فى حال شديد جداً ، بحيث لا يجرؤ أحد على كلامه أو الدنو منه . فلعلك أنت ، لوضعك منه ، الذى يستطيع أن يستدرجه لحديث وأرجو أن تفرج عنه بعض الفرج . فقلت له : ما الخبر ويحك ! فقال : إن فلانة ، يعنى صغرى إخوته جميعاً ، قد غابت وانقطع الخبر عنها من ثلاثة أيام . ولم يُجد البحث والتفتيش وقلب البلاد ظهراً لبطن فى طلبها فتيلة . فهتفت من فورى بأهل الدار أن يمسكوا عن إعداد الطعام ويعدوا حالا جعبة السفر ، وأرسلت فى طلب سيارة أبلغتنى المحطة فى آخر لحظة ، وتديلت هناك فاذا سيارة الباشا فى انتظارى ، وبلغت الدار . وما كدت أطلع على الحديقة حتى تعاضمنى منظر هذه الجماهير من الناس ، شغلت كل رقعة ، واحتلت ظل كل شجرة ، وجزت إلى فناء الدار فاذا خلق كثير جداً ، وكلهم جالس مطرق لا ينبس أحد منهم بكلمة ، وقد اغبرت الوجوه جميعاً ، والباشا جالس على طرف دكة لا يشغلها معه أحد . فلما طلعت على المجلس أوماً إلىَّ أن أجلس بجانبه ، فجلست ، وما سلمت عليه ولا هو حيانى ، وأطرقت كما أطرق سائر الناس .

ولقد قلت لك إنه ساكت لا يتكلم ، ولكنه كان فى كل فترة يزفر زفرة حرّى ، لقد كانت ولاشك بخاراً من لهيب يتسعر فى الأحشاء .

وجلسنا على هذا يومين ، وفى الصباح الباكر لليوم الثالث أوماً إلى بأن أسافر ، فنزلت على إشارته ، ورجعت إلى القاهرة لأتى عملى فيها ، ولم أتردد لحظة واحدة فى الفكرة التى اعترتنى من اللحظة الأولى ، هذه الفكرة التى يوحى بها أبسط واجبات الحب والولاء وعرفان الجميل لهذا الرجل العظيم : وتلك أن أطلب إجازة طويلة أقضيها فى القلب فى البلاد ؛ باحثاً مفتشاً منقباً عن بنته العزيزة . ولو دعا الأمر إلى التنكر والاضطراب فى مختلف الأزياء . ولقد اشتد بى الوجد مما دهى صديقى العزيز ؛ وقد علت به السن وتشرف على نهاية العمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وقبل أن أترسل إلى غاية هذا الحديث أصف لك وصفاً موجزاً هذه البنت المختفية من بضعة أيام :

لقد كانت سنها بين الرابعة والخامسة ، حلوة جميلة جداً ، يضاء الجسم ذهبية الشعر ، بالغة غاية الأناقة فى ثوبها الغالى الثمين . تراها فتخالها دمية فرت من معرض نماذج (فترينة) لغالى الثياب . خفيفة الروح حلوة الحديث ، وخاصة إذا عادت ما يلقي عليها من كلام خيالى يراد به الاطراف والاضحاك . ولى معها فى هذا مواقف كلها ضحك وإغراب ! وكانت لذلك تتعلق بى كلما هبطتُ إلى دارهم . وكنت أحبها كحب ولدى الأعززين . وكانت قرة عينٍ لأبيها ، وناهيك بأصغر الأولاد ، وخاصة إذا كانت مثل هذه الدرة فى الحلاوة والنقاء .

هبطت القاهرة ، وقد جمعت النية الصادقة الماضية على ما أسلفت عليك ، وسألت الأجازة لشهر ونصف الشهر . ومضى يومان وأنا فى انتظار الاذن لى فيها ، على أننى أوالى السؤال بالتليفون كل ساعة ، فاذا مصير البنية ما يزال فى الغيب المحجوب . وإذا والدها المسكين على حاله ، ولم يزل يعانى فى ذلك العذاب المضى الأليم .

وانقلبت إلى الدار فى اليوم الثالث قافلاً من عملى ، وتقدمت باعداد غدائى ، فاذا جرس التليفون يرن وإذا ولد صاحى يدعونى ، فى فرح ظاهر أن أحضر لأهني أباه الشيخ ، فلقد عثر على أخته فلانة ، والحمد لله ، فقلت مسرعاً وكيف عثر عليها ، وأنى كان ذلك ؟ قال : لقد أمر وزير الأشغال ، حين انتهى إليه احتمال غرقها ، بتجفيف بحر (كذا) . وكذلك ألفينا جثتها فى الموضع الفلانى (وهو يقع على بضعة أميال من الدار) . وقد أكرمها الله تعالى . فلم ينل من جسمها السمك كثيراً ولا قليلاً .

وأسرعت باعداد جعبة السفر ، وخففت إلى لقاء صاحبى ، فاذا جموع كثيرة ، تلغو وتتقاول ، فى مرح واغترباط ، وإذا صاحبى يظهر عليه طيب النفس وانبساط أسارير الوجه . ولم يكذب يرانى حتى خف للقاءى فى بعض طريقى إليه . وما أن توافقنا حتى عانقنى وجعل يقبلنى وجعلت أقبله وأنا أشعر أن الدنيا لا تكاد تسعه من سرور وسراح !

ثم جعل يحدثنى ، كعادته ، أحاديث هذه الدنيا ، حتى إذا انصرف الناس من مجلسه ، قافلين إلى ديارهم أو ثاوين ، فى داره ،

إلى فرشهم ؛ وحينئذ جذبني إلى حجرة جلوسه الخاصة ، ودعا بالنرد ،
ورحنا نتلاعب به إلى ما بعد انتصاف الليل ، وهو كلما انتهى دست
يقبل على بحديث طريف ، على أنه لا يلم بشيء من حديث بنته
الغرقى لا من قريب ولا من بعيد !

الله أكبر ! الله أكبر ! إذاً لم يكن هذا الوجد كله ، ولا هذا
الوله المرعب المهول من أن البنت قد أدركها الغرق أو أنها ماتت
على أى شكل من الأشكال ، وإنما الجزع كله من أن تعيش فى ولاية
خاطف مجرم من النساء أو الرجال !

ترى ماذا عسى أن يكون مصير الفتاة ؟

هنا تتطاير أشأم الظنون كل مطار . وهنا يغلى صدر هذا الطود
غليان القدر ، حتى لتكاد تتصدع الأضلاع ، لولا ما كان يروح عنها
من ذلك الزفير ، تتنفس به نار السعير !

لقد أصابها منية . وإذاً لقد سلم الشرف ، وحبه ، فالشرف هو
كل شيء فى هذه الحياة !

أكرمك الله ، يا حبيبي ، ميتاً ، كما أكرمك حياً . وأمتعك
بملاعبة ابنتك الحلوة فى دار النعيم .

وهنا جعل صاحبي يبكي وينشج حتى لم يعد يقوى على كلام .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وإنا لله وإنا إليه راجعون !

مسألة

نحن ضعاف ، ما في هذا شك . والغريبيون أقوياء ، وما في هذا شك أيضاً . وإنا لنبغى أن يكون لنا مثل حظهم ، أو جليل من حظهم من القوة والعظمة ، ولكن كيف السبيل ؟ اللهم إن السبيل واضحة لا عوج فيها ولا أود . هي أن نأخذ إخذهم ، ونسعى سعيهم ، ونحذو في وسائل الحياة حذوهم . وبذلك نبلغ كثيراً مما بلغوا إذا لم يقدر لنا أن نصبح مثلهم . وأرانا ، بحمد الله ، فاعلين ، بل أرانا في هذا جادين جاهدين . ها نحن أولاء نتعلم علومهم ، وننقل فنونهم ، ونتروى ما تنتضح به قرائحهم في آدابهم ، ونمرن أيدينا في تقليد صناعاتهم . ونهجم في تجارتنا نهجمهم ، نستن في أسبابنا المالية والاقتصادية سبلهم ، ونطبع جيشنا على غرار جيشهم ، ونعد من آلات الحرب ما يعدون لأنفسهم ، ونجرب في أنظمة الحكم وسياسة الجماعة على طرائقهم ، ونشيد دورنا على طرز دورهم ، ونتخذ لها من الأثاث كل جديد من أثاثهم ، ونتربى بأزيائهم ، ونتخلق بأخلاقهم ، وتتأدب بآدابهم ، ونصطنع عاداتهم ، ونفكر على أساليب تفكيرهم ، ونسلك في فنون النقد مسالكهم . والخلاصة ، أننا بتنا نقلدكم في كل كبير وصغير ، ونترسم أثرهم في كل دقيق وجليل ،

لا نستثنى على هذا إلا بعض ما تحتّمه علينا قواعد ديننا فى زواجنا وطلاقنا ، وما إلى ذلك من أسبابنا ، وإلا مالا تزال تمسك علينا العادات المستأصلة من آلاف السنين ، حتى كادت بذلك تتصل بالخلق ، وتلصق بالطبع . على أنها فى طريق التحول والنصول ، ولا بد لها يوماً أن تحول .

نحن صائرون إلى حياة غريبة لا شك فيها . وما لم نأخذه منها لنفعه ، ونحاكى به ابتغاء ثمرته ، أخذناه جرياً على سنة الطبيعة فى تقليد الضعفاء للأقوياء ، ومحاكاتهم — بظهور الغيب — لم دون تمييز بين ما ينفع وما يضر ، ولا نقد لما يسوء مما يسر .

نحن صائرون فى عامة أمورنا إلى هذا العيش ، مالنا إلى غير ذلك حيلة ، وإن شئت قلت مالنا من ذلك بد ! على أن هنا أمراً جليل الخطر ، أو على الأدق من أجل الأمور خطراً ، قد سقط فى هذه الوثبة من حسابنا ، وأخشى إذا هو تخلف أن تكون مشيتنا فى حضارتنا الجديدة عرجاء ، وكيف للأعرج بمسيرة المغذين الأقوياء ؟

فقد رأيت أن كل عناصر الحياة عندنا غربى خالص ، اللهم إلا عنصراً واحداً لا غناء عنه ولا سداد بدونه . ومن ينكر أن اللغة من مقومات حياة الأمم ، فهو كمن ينكر الشمس فى وضوح النهار كما يقولون !

كل سبب من أسبابنا أضحى غريباً ، وما لم يستغرب بعد فهو ولا مرأى فى طريق الاستغراب ، اللهم خلا اللغة ، فلغتنا ما برحت العربية التى تحدث بها الجاهليون من آلاف السنين !

إذاً ، أبات علينا لكي يتسق أمرنا ، ويستقيم منطقنا ، أن تنضو عنا لغتنا ، كما ينضى الثوب الخليق ، ونتخذ للساننا لغة غريبة تستطيع أن تحيا مع هذا العيش الجديد ؟

لست ، علم الله ، أمازح ولا أعابث . فان المقام من الجد الذي لا يحتمل العبث ولا المزاح !

هناك علوم تستعب جميع سبل الحياة . وهناك فنون منها ما يتصل بصلب العيش ، ومنها ما يسعى للتسلية والترفيه والتنعيم وهناك آلات وعدد ، وهناك مصنوعات لا يملكها عدو ، وهناك ما لا يحصى من المستحدثات التي أصبح لا غنى عنها للناس ، أستغفر الله ، فانما أعنى المتحضرين من الناس ، لا غنى لهم عنها في قضاء لباناتهم وتناول جميع أسبابهم .

وهذه العلوم والفنون ، وهذه الآلات والعدد ، وهذه المستحدثات التي لا غنى عنها لأحد ، هذه كلها أصبح طلبها والتفقه فيها وتجويدها كما يجودها أهلها هو همنا وشغل نفوسنا وسرامنا الأقصى ، ومثلنا الأعلى فكيف لنا بها ولغتنا لا تحيط بها ، بل لاتكاد تلم منها بكثير ولا بقليل ؟

لقد كانت لغتنا لغة العلوم والفنون التي جاءت بها حضارتنا ، فلما عفى الزمان على هذه الحضارة عفى على اللغة كما أتى على تلك العلوم والفنون . ونحن الآن إنما نطلبه علوماً جديدة ، وفنوناً حديثة ، ومبتكرات طريفة . ولكل منها في الافرنجية اسم ، ولكل منها تعبير

يؤديه في غير عسر ولا التواء . فكيف لنا بهذا كله ولغتنا ، كما
عرفت ، في هذا التقلص والانقباض ؟

لا بد لنا من تناول العلم والفن ، ومن تناول وسائل الرقي والقوة
والعظمة جميعاً . وتناول هذا في غير لغة ضرب من المحال ، وتناوله
في لغة قاصرة من معضل الأشكال !

وهنا تنصدع الآراء ، وتفترق الطرق : فقوم منا يذهبون إلى
أخذ العلوم والفنون وسائر حاجات الحضارة في لغاها ، وتناولها في
أسمائها المعروفة ومصطلحاتها المقسومة في تلك اللغى حرصاً على سلامة
العلوم والفنون ، واختصاراً للزمن ، وتوثيقاً للصلات بيننا وبيننا
الحضارة في بلاد الغربيين . وأرفق هؤلاء من يقولون بالتعريب
في كل شئ ، حتى فيما له تعبير عربي قديم !

ويخالف هؤلاء آخرون إلى وجوب تناول كل شئ بالعربية الصميمة
لا أثر فيها لأى استعجام مهما يكن المعنى مما لا عهد للعربية به في يوم
من الأيام .

ينبغي أن يكون كل شئ عربياً مخلصاً . فإذا كان بين أصحاب
هذا الرأي مسرف في المرونة والترخص رضى بأن يصار إلى التعريب
إذا عيت وسائل العربية جميعاً باصابة المعنى المطلوب . وهيات أن
تعيما في ظن الأكثرين .

وهؤلاء إنما يذهبون هذا المذهب ، ويتشددون هذا التشدد
إيماناً منهم بأن اللغة من أقوى مقومات الأمة ، ومن أخص مشخصاتها
فإذا هي حالت ذهبت الأمة ولم يبق لها بين سائر الأمم كيان . وإذا

كانت الأفرنجية هى لغة العلوم والفنون وسائر أسباب الحضارة ، ولم يبق للعربية إلا تناول التافه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، فقل العفاء والسلام ، على لغة القرآن ، لغة الاسلام ! وعلى الجملة ، فإننا لو ذهبنا مذهب أولئك العربيين لأضحت لغتنا والمالطية بمنزلة سواء ، والعياذ بالله !

فى العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء ، ولنبات والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات . فإذا نحن عربنا هذا كله طغى أشد الطغيان على سائر اللغة . وأنت خير بأن ما يدور من صيغ العربية على السنة نصحاء الخطباء ، وأقلام بلغاء الكتاب ، وما يتحدث به الخاصة فى مجالسهم ، ويجرى فى مقاولاتهم ومحاوراتهم ، وما تنتضح به رسائلهم — كل ذلك لا يزيد على بضعة آلاف . وكيف لهذا بأن يقوم بازاء ذاك ؟ بل كيف له بأن يعيش بجانبه ، ويحقق ما تحقق اللغات لها من كيان ؟

هذه هى المسئلة كما يقول شكسبير ؛ فليت شعرى ماذا يكون المصير ، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

كيف كان الشباب يُزَوِّجون

١

أسوق حديثي هذه المرة للخطبة والزواج في مصر إلى مؤخرات الجيل الماضي . ولقد أعرض عليك صوراً ما برح بعضها قائماً إلى الآن ، وبعضها وإن اختلف فانه ما زال متمثلاً للأذهان . وذلك أنني أحب أن أعرض مجموعة كاملة واضحة من صورة الخطبة والزواج قبل أن تحول ، أو تعثر بها الأيام بالنصول .-

وتراني في ترجمة هذا الحديث قد عبرت بصيغة البناء للمفعول ، فقلت : « كيف كان الشباب يزوجون » ، ولم أقل : « كيف كانوا يتزوجون » . وإنني لأقصد هذا وأعنيه ، لأن الشباب لم يكونوا يتزوجون ، وإنما كانوا يزوجون ، لا رأى للشباب أو للفتى في متى يتزوج ، ولا كيف يتزوج ، ولا بمن يتزوج . وإنما يزوجه أولياؤه فيتزوج ، « وكان الله يحب المحسنين ! »

كان الزواج مرحلة من مراحل الحياة لا بد للشباب منها ، مهما تكن الأحوال . كان شيئاً لا بد منه ، ولا محيص عنه ؛ اللهم إلا لنقص داخل على الخلقة ، وهذا من النادر الذي لا يجري على سياقه الحكم العام .

فاذا ترعرع الفتى وبلغ الحلم ، جعل أهله يفكرون فى أمر تزويجه وأكثر هؤلاء همًّا بذلك وحديثاً فيه وتديراً له هو أمه . تبادى به أباه ، ولا تنى عن مراجعته فيه ، والالحاح عليه فى التعجيل به . وكلما اعتل عليها بعلة ، أو أنهض لها فى التأخير عذراً ، هونت عليه الصعب ، ويسرت له العسير . فاذا كان العذر فى قلة المال ، وكان هذا هو أبلغ الأعذار وأشيعها ، عرضت بيع أعلامها وحليها ، فاذا لم يكن فيها غناء ، ففى بيع « حصاة » من البيت ، أو فى الاقتراض غناء !

تريد الأم أن « تفرح » بولدها وتزوجه من أى سبيل . وهنا ينبغى أن تعلم على جهة اليقين أن تعلم الولد أو انقطاعه عن الدرس ، أو نجاحه فى أى ميدان من ميادين الحياة ، أو فشله ، أو اشتغاله بأى عمل من الأعمال ، أو تفرغه أو تبطله — إعلم أن شيئاً من هذا لا يدخل ، ولا يجوز أن يدخل فى حساب تزويجه ، أو يقام له أى وزن فى هذا الباب . ذلك بأن تزويج الشاب أو الفتى ، كما أسلفت عليك ، مرحلة لا بد منها فى اجتياز مراحل الحياة !

ولعل أهم ما كان يسهل أمر زواجه على والديه ، أن الزوجة لا تكاد تجشم أوليائه شيئاً من النفقة ، فهى تسكن فى دارهم ، وتأكل مما يأكلون منه ، وتشرب مما يشربون . فاذا كانت مطالع الأعياد جيئت بكسوة لا تُعَي على رب الدار فى كثير ولا فى قليل !

وكيفما كان الأمر ، فاننا إذا استثنينا مهر العروس ، وما إليه من الهدايا والألطف ، وإذا استثنينا معه نفقات العرس وأسبابه ، فإن

هذا الضيف الجدير لا يجشم وظيفة دائمة ، ولا نفقة راتبة ، أو على التعبير الافرنجى ، لا يكلف أى *consommation* .

ولا تنس ، مع ذلك ، أنها ستقوم بنصيب جليل فى خدمة الدار ، إن لم تستقل بها جميعاً : كالعجن والخبز ، والطبخ ، وغسل الثياب ، وجندرتها ، وكنس الدار ، ونفض الأثاث ، وصنع القهوة وتقديمها للضيقات الخ . . .

وقد يكون من قسمها أيضاً القيام على خدمة الصغار من أخوة الزوج وأخواته ، إذا كان له أخوة أو أخوات صغار !

الخطبة

وفى النهاية سيرضى الأب بتزويج ابنه وأنفه فى السحاب ، أو أنفه فى التراب ! وسرعان ما تذكى الأم الخطابات ، محترفات أو صديقات ، فى التماس العروسة الحلوة فى بيوت الأكفاء . حتى إذا عدن إليها بالخبر ، أرسلت إلى أم العروس من تعين معها موعداً لرؤية فتاتها . وفى هذا الموعد تمضى الأم وبناتها المتزوجة وأختها ، وقد تستصحب بعض جاراتها من صاحبات والماليات . ولا تسقط من عدة الوافدات الخطابة المحترفة ، إذا كانت الريادة لخطابة محترفة ، يمضى كل هؤلاء إلى دار العروس ، وقد أخذن زينتهن ، وتحلين بأغلى حلين ، وأضفين عليهن برود الخبر ، فإذا لم يكن لمن شئ من ذلك ، استعرنه من بعض الصديقات المترفات .

ويحسن بنا ، وقد بلغنا هذا الموضع ، أن نسلخ بعض الحديث

للفتاة المخطوبة ، قبل أن ينالها الوافدات بالتوسم والتصفح والقياس والتقليب .

قل من كانوا يدفعون بناتهم للتعليم في المدارس ، بل لم يكن هناك تعليم مدرسي للبنات ألبتة قبل خمسين عاماً ، أى قبل قيام المدرسة السنية ، فالطبقة الأرستقراطية كانت تعلم بناتها في القصور . أما الطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى ندير عليها الكلام فى هذا الحديث ، فأكثر أهلها كانوا يشخصون بناتهم الصغار إلى « المعلمة » وهذه « المعلمة » امرأة تخطط الثياب لمن شاء من أهل الطبقتين الوسطى والدنيا ، وتتخذ من دارها شبه مدرسة تعلم البنات فيها هذه الصناعة بقدر . فإذا ربت الفتاة وبلغت سن المراهقة كفها أولياؤها فى الحذر تعالج فيه مع أمها شؤون البيت . ولا تزال كذلك فى انتظار « العَدَل » و « العَدَل » بفتحيتين ، يعنى به النساء الزوج الكفء ، الذى يكفل ويغنى ، ويسعد ويهينى . ومن هذا الوادى قولهم : « ربنا ما يعطى القحف عدل » . يدعون على الجلف الوضع الفظ بالألا يمكنه الله من جاءه ولا سلطان ، لأنه إنما يتخذهما أداة لسلطة والعدوان !

يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب . وقد سبقوا فنظفوا الدار وأحسنوا تنضيض الأثاث . ودفعوا فئاتهم إلى الحمام فأحسنوا جلاءها وصقلوا عارضها ، وقلموا أظافرها ، ورتلوا شعر رأسها ، ومشطوه ، ونضدوا على الجبين مقدمه ، وضفروا سائرهم ضفيرتين . ثم ألبسوها أجمل الثياب ، وحلوها ما أعابوا من لبّات وأساور وأقراط وخواتم .

ويبدأ بتقديم « الشربات » تطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من فتيات الدار ، أو خادِم من خدمة البيت ، أو من خدم الجار . ثم لا تزال الأنظار تطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس . ثم إذا هي مقبلة تمشى على استحياء ، وقد أسبلت جفניה ، وهي تحمل فنجان القهوة تقدمه إلى السيدة الكبيرة أولاً ، ثم تعود بالثاني إلى الثانية ، وهكذا . والأنظار تتناهبها من كل جانب : هذه تتوسم وجهها ، وهذه تتفقد عنقها وصدرها . وأخرى تسرح النظر في شعرها ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلعاً أو شكاً^(١) لا يدعن في جسمها رقعة إلا أوسعتها تنقداً وتصفحاً وتأملاً . ولا يفوتهن ، مع هذا ، أن يلاحظن مبلغ مهارتها في حمل فنجان القهوة ، وكان كما تعلم ، يعتمد على ظرف دقيق القاعدة . فاذا أبلغته ولم تسلم منه ، على امتلائه ، قطرة ، كان دليلاً على المهارة وحسن الخدمة أى دليل !

فاذا فرغن من هذا دعونها إلى الجلوس ، فجلست على طرف كرسي في طرف الغرفة ، في خفر بعضه متكلف مصنوع . ثم رحن يستدرجنها إلى الحديث ، لعل في لسانها حبة أو عقدة أو رتنة . أو لعل في بعض لفظها لثغة ، فاذا اطمأن على سلامة اللسان ، ونصاعة الأسنان ، ظلن برهة يسيرة يتمدحن فيها جمال الفتاة وحسنها ، ويشدن بأدبها ولطف موردها . ثم استأذن في الانصراف ، وأقبلن على أمها وسائر من حضرن مسلمات مودعات مقبلات ، وأذكين على الفتاة أدقهن

(١) الشك الظلع الخفيف .

حسّاً وأنفذهن أنفّاً ، فانفلتت إليها تحيها وتبالغ في تدليلها وإعزازها ، وإظهار الحب لها والكف بها ، وراحت تواليها (تحت هذا العنوان) تقييلاً وضماً ، والتزاماً وشماً . وهي إنما تفعل في تمهر لا يخفى زيفه على أحد ، قصداً إلى تشمم فيها لعل فيه بخراً ، وأبطها لعله يفوح دفراً . ولا تألوها لمساً ومساً ، وغمزاً وجساً ، طائفة باليد على جوارح الجسد ، لعل منها ما عراه الرهل أو أصابه الأود !

ولربما طفن من غدهن ببيت فلان وبيت فلان ، ثم بعد غد ببيت فلان وبيت فلان ، حتى يستعرضن السوق كلها وينثلن الكنانة نثلاً ، ما يدعن فيها سهماً ولا نصلاً !

ولربما رجعن إلى بعض من وردن لاعادة النظر ، أو على الأصح لاعادة الفحص والتنقيب ، والامعان في الفر والتقليب ، ما يرى أولياء الفتاة بذلك بأساً ، ولا يجحدون في أنفسهم منهم حرجاً ! فاذا أذن الله واجتمع الرأي على فتاة من هؤلاء ، خطبت إلى الأم أولاً . فاذا اتفقت الأمان على المهر وإلا صار الأمر إلى الأبوين ومن إليهما من الأولياء . ولربما استعان ولي الزوج بعض الظاهرين من الجهة على ولي العروس في سبيل الخط من مقدار الصداق المطلوب . فاذا لم يبق موضع لخلاف من هذه الناحية ، قرأ الجماعة فاتحة الكتاب في خفوت تبركا واستكمالاً لفضل الله العظيم . وكذلك يشيع بين نساء الحى وفتيانه أن فلانة قد قرئت فاتحتها . وليس وراء الفاتحة إلا قبض مقدم الصداق ، فالعقد في الأعراس . يتخلل هذه الفترة ألوان من الهدايا والألطف ، تساق الفينة بعد

الفينة إلى دار العروس . وتدعى هذه الهدايا بالنفقة وعلى قدر هذه النفقة يعلق النساء أبلغ الأحكام . ومن أشدّهن السائرة في هذا الباب « العريس يبان من نفقته » وهذه الهدايا لا تعدو النقل والحلوى ، والسّمك ، والشيء ، إذا طلع العيد الكبير .

ولقد جهد بي ، يا سيدي القارئ ، ولعله قد جهد بك أيضاً ، فلقد طال المقال ، وتجاوز القدر المقسوم له ، فلنرجى الحديث في حفلات العرس إلى يوم آخر إن شاء الله .

كيف كان الشباب يزوجون

٢

قد مضى قولنا في الخطبة وأسبابها ، ولم يبق بين أيدينا إلا العقد فالأعراس ، ويحسن بنا قبل أن نتناول شيئاً من هذا بالحديث أن نعود فنؤكد لك أن البنت ، على وجه خاص ، لم يكن لها أى رأى فى أمر زواجها ، ولا فيمن يتزوجها ، ولا يسوغ لها أن تتطلع ولو إلى مجرد العلم بشئ من ذلك ، إنما الأمر كله إلى أمها وأبيها يزوجانها متى شاءا ومن أرادا .

أما الزوج فيختلف شأنه فى هذا بعض الاختلاف ، فهو فى الكثير الغالب لا رأى له فى الأمر ولا خيار . على أنه قد يعلم عن عرسه الكثير أو القليل عن طريق أمه أو أخته أو خالته ، وإنما يهين له الاستماع والاستخبار ما هو مفروض له من جراءة مهما ضعفت فانها لا تصل إلى خفر فتاة عذراء !

وقلت لك « فى الكثير الغالب » لأنه فى القليل النادر قد يكون الولد مدلاً مرهفاً ، وحينئذ يكون له فى الأمر رأى ولو بمقدار . وكيفما كان الأمر ، فلقد كان محظوراً على الخطيبين أن يتراءيا ، حتى بعد العقد ، إلى أن تحين ساعة الزفاف ، بل لقد كانت الفتاة

إذا خطبت إلى ابن عمها أو ابن خالها ، أو ابن عمتها أو ابن خالتها ،
 ممن نشأت معهم وشبت ولاعبتهم في صغرها ، أسرع أولياؤها فحجبوها
 عنه ، وبالغوا في حجابها إلى يوم الزفاف ، شأن الأجنبية سواء بسواء ،
 وكان لذلك حكمة لا تخفى على فطنة الفطناء !

وتحل ساعة العقد ، فلا يكون وكيل العروس إلا أباه أو عمها ،
 عند فقده ، أو أخاها وكلمته أو لم توكل ، تسكمت أو عقد الحياء لسانها
 عن الكلام .

وبعد أشهر تقضى في إعداد الجهاز الذي قد يكون موضوع مساومة
 عنيفة بين أولياء العروسين ، يعين يوم العرس ، أو « ليلة الدخلة »
 في تعبير النساء !

وتسير « زفة » الجهاز من بيت العروس إلى بيت العريس تتقدمها
 الموسيقى ، ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم ،
 فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة ، وهذا
 يحمل طشتاً وإبريقاً من خالص الفضة ، أو من النحاس المموه بالذهب
 والفضة ، وهذا علبة تنكشف عن بضعة أكواب من الفضة ، وهذا طاس
 حمام كذلك . ولقد ترى آخر يحمل بين يديه قبقاباً مكفّتاً بالصدف والفضة !
 ثم يلي هؤلاء رتل من « عربات السكر » لا يدرك الطرف آخره ،
 قد بسط الجهاز عليها بسطاً ، ومط فوقها مطاً . فهذه حشية (مرتبة) ،
 قد خص بها مركبة ، وهذه خمس وسائد ، قد أفرد لها عربة وقائد ،
 وهذا « كنسول » عليه مرآة ، قد قصرت العربية عليه دون سواه ، وهذا

نضد (تراييزة) قد شجر بالزهور ، وهذا « دولاب » قدت أبوابه من البلور ، وهذه لحف مبسوطه ، وهذه نمارق مبثوثة ، وهذه أريكة بين يديها شجباب ، وهذان كرسيان قد نشر عليهما ستر باب وهكذا! وهكذا! ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهى فى كلاءة الأحراس ، حتى يختم الموكب ، بفضل الله ، بعربة النحاس . وكان فى عربتين كفاية ، وفى ثلاث فضل . ولكن لا تنسى أن للتباهى حكمة ، وللتكاثر غرمة وغنمة !

ولقد ترى أن شيئاً من هذا لا يزال قائماً إلى الآن ، ولكنه أضحي مقصوراً على الطبقة الدنيا من الأهلين ، وكيفما كان الأمر ، فلعلك لم تنس أننى قلت فى الحديث السابق إننى أحب أن أجلو الصورة كلها قبل أن تحول ، أو يلحقها النصول .

وترسل الدعوة لولية العرس إلى الأصدقاء والجيران والمحبين ، وهى رقعة فى حجم الكف تكتب صيغة الدعوة فيها بماء الذهب ، وتبدأ عادة ببنتين أو ثلاثة من الشعر ؛ وكانوا يدعونها الملحق . ولكيلا أشق عليك فى إشاعة تحمينك فيما عسى أن يكتب فى هذا الملحق ، أعرض عليك نموذجاً منه :

من دعى فليجب

ليالى الأنس قد طابت ورقت	وطير الصفو غرد بالسرور
وجاد الدهر بالبشرى علينا	وداعى السعد وافى بالحبور
فهيا يا أحبة شرفونا	بأنسكمو ومنوا بالحضور

بمشيئة الله تعالى ، سيحتفل فلان فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا بتأهيل نجله فلان على كريمة فلان ، وذلك بمنزله الكائن بجهة كذا . فالمرجو التشرىف لتمام بكم الأفراح ، وتزول عنا الأتراح . والحضور الساعة . ١ عربى نهائياً ، والعاقبة عندكم فى المسرات .

وقبل أن أخوض بك فى لىالى العرس ، فكثيراً ما كان الاحتفال بالعرس يستغرق لىالى لا يقتصر على ليلة واحدة — قبل أن أخوض بك فى هذا ، أقرر أن المصريين كانوا دائماً أهل كرم وإيثار ، فما كانوا قط يستأثرون فى أعراسهم ونحوها بأسباب تلذذهم وتطريهم ، بل لقد كانوا يبسطونها ويبدلون فى الطريق العام ، قصداً إلى أن يشركهم فيها كل من شاء من الناس .

ولقد قلت لك إن الاحتفال بالعرس كثيراً ما كان يستغرق لىالى لا يقتصر على ليلة واحدة . وهذه اللىالى ، كانت فى الغالب ثلاثاً : اثنتين منها تدعيان بالضَّمَم (بضم ففتح) . أما الثالثة وأعنى بها الأخيرة ، فلييلة « الزفة » أو لييلة « الدخلة » ، لييلة تولم الولائم ، ويقرب لجمهرة المدعوين شهى المطاعم .

وأولى هذه اللىالى تخص بخيال الظل ، وهو عبارة عن دكة كبيرة تعلو واجهتها شاشة بيضاء تقرب مساحتها من شاشة السينما الآن ، أما جوانبها الأخرى فتحجب بألواح من الخشب يداخل بعضها فى بعض ، وفيها باب لدخول اللاعبين وخروجهم ، وفيها يضيئون مشاعل قوية لتجلى على النظارة ما يعرضون من الصور فى وضوح وجلاء .

أما هذه الصور فلائناس ، ودواب ، وطيور ، وأشياء . وتسوى هذه الصور من الجلد ونحوه ، تصيغ بمختلف الأصباغ لتحاكى ألوان ما يبدو من الأجسام والثياب .

ويمثل خيال الظل رواية قوامها عشق وصباية بين فتى مصرى صميم ، وفتاة بنت راهب مسكنها مع أبيها الدير ! ويتخلل هذه الرواية صور استعراضية متنوعة . وكل من يحرك صورة من صور هذه الأناسى يجرى الكلام على لسان صاحبها فى دقة وبراعة تقليد ، حتى كأنها هى التى تتحدث بأسماع الناس . فهناك المغربى ، والسورى ، والبربرى وابن البلد المصرى . ومن هؤلاء ونسمع ما شاء الله من رائع النكت ، وقد يكون بعضها من عفو الارتجال .

ولقد كان أفخم خيال للظل هو الذى يديره المعلم حسن قشاش ، وكان سيد أصحاب النكتة فيه غير مدافع ، هو المرحوم ناجى ، وقد رآه كثير من أهل هذا الجيل ثمثلا بشخصه فى الأعراس ، أو فى دور التمثيل فى الفصل المضحك الأخير . أما دور ناجى فى خيال الظل ، فكان تمثيل الغلام بولس شقيق علم ، والترسل بينها وبين صاحبها تعاتير حتى يصل بينهما الزواج . وكان ، رحمه الله ، يرسل بالنكتة بعد النكتة فى خفة روح ولطف إيقاع ، حتى يكاد يشق أضلاع النظارة من شدة الضحك المتواصل بغير انقطاع .

وقد ذهب عنى أن أقول لك إن الطبل البلدى كان له مجلس بين يدى الخيال ليعزف فى أوقات الاستراحة أو ليرقص على توقيعه من يرقص من أشخاص الخيال .

أما الليلة الثانية فبيعت السمر فيها أبو رايبة ، وأبو رايبة علم على تلك الفرق التي كانت تمثل بأشخاصها في مقدمات ليالى الأعراس ، إذ كانت تصف الدك والكراسى على عذارى الطريق لجلوس النظارة إذ يترك وسطها مسرحاً لاضطراب هذه الطائفة من المفلسين . وكانت هذه الفرق تمثل كذلك روايات إذا أسفت مطالبها وسخفت مغازيها ، فلقد كانت سرية بما يشيع فيها من بارع النكتة . ولقد كانت الحال تدعو إلى ظهور امرأة فى بعض الرواية ، على أن امرأة لم تكن تظهر أبداً ، فكان يتخذ لهذا الدور إما مخنثات محترف ، وإما رجل يحسن تقليد النساء .

ولا شك أن سيد هؤلاء المفلسين كان المرحوم الحاج أحمد الفار الكبير ، والعجيب أن هذا الرجل على خصوبة بديهته ، وتدفعه بالنكتة يشق الناس لها ثيابهم من ضحك ومن انبهار ، لم يكن يبتسم أبداً ، بل لقد كان يتكلف الجدة إلى حد أنك تراه دائم العبوس .

ومما يحسن فى هذا المقام ذكره ، أن هؤلاء المفلسين كانوا يعتمدون رجلا من صلب أصحاب العرس أو من حواشيهم ، ولعل ذلك كان بالاتفاق معهم ، فيتخذون منه عامة الليل هدفاً للنكتة حتى ما يدعو فيه أديماً صحيحاً ، والناس يضحكون ، والرجل معهم من الضاحكين .

وحسبنا هذا اليوم . وسنفرد ليوم العرس حديثاً خاصاً إن شاء الله .

الأدب الفج

كان من مزايا صديقنا شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، عليه رحمة الله ، مطاوعة البديهة ، وحضور النكتة ، يتصرف فيها ويفتن لكل مقام ، ما تتعاضى عليه ولا تتعثر على لسانه أبداً .
وكان ، إلى هذا ، يحفظ أظرف النوادر وأطرفها وأدعاها للعجب ، وأبعثها للضحك .

وقد سمعت منه ، رحمه الله ، النادرة الآتية ، قال :
قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى)
كان الناس يتخذون الفلك (المعديّة) فى طلبهم العبر من العبر .
وجاء رجل من المدينة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ،
وكان الليل قد تقدم ، فوجد الملاحين يغطان فى نوم ثقيل ، من
تحشيش الليل وكد النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض
أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثانى الدفة ، وأنشأ صاحب
المجاذيف يضرب بمجذافيه جيت الماء . على أنه ما كاد يفعل مرتين
أو ثلاثاً حتى تبهر وانقطع نفسه ، وانخذلت قواه ، وأحس شدة جفاف
الحلق من أثر الحشيش ، فتناول الكوز ، ولم يكن أن زميله كان
قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنه ، واغترف به من النهر غرفة ،

وأصاب من الماء ، فإذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله
صاحب الدفة :

— يا رئيس عويس ! ...

— هو !

— إيدك ! ... دخلنا المالح ! ...

ولقد أذكرني هذه الحكاية ، بعد نسيانها السنين الطوال ،
شأن أبنائنا من رادة الأدب في هذه الأيام ، وحرصهم على الظفر
بالشهرة ، بل بالبطولة والمجد والخلود ، بعد علاج منظوم أو منشور
في بضعة أشهر ، أو في بضعة أسابيع ، وأخشى أن أقول في بضعة
أيام في بعض الأحيان !

وقبل أن أخوض في لجة الموضوع ، أرى من الخير أن أنقل
إلى قراء « الثقافة » صدرًا من حديث لمتحدث ، أذاعه بالراديو في
غاية الأسبوع الماضي ، كان بعضه يطوف بهذا الموضوع ، قال :

« لا ريب أن ما نسمع الآن من المقطوعات الغنائية إنما هو من
النوع الواطى الرديء ، الذى لا قيمة له ولا وزن ، ألفاظ سوقية
مبتذلة ، وتراكيب سقيمة مفككة ، ومعان منحطة ، وأخيلة ظاهرة
التزييف والترقيع ، فإذا عدت هذه الأنماط من الأدب ، على أى وجه
من الوجوه ، فهى من الأدب الفسل الوضع . أو على التعبير العامى
الشائع من الأدب « الفلصو » الذى لا محل له بين كرائم الآداب .
» وإننى أشك فى أن أكثر هؤلاء الناطمين قد أصابوا حظًا من

اللغة ، أو جروا على عرق ، ولو ضئيل ، من آدابها ، إننى أشك فى أن أيهم حفظ شيئاً من شعر البحترى أو أبى نواس أو أبى تمام . بل إننى لأشك فى أن أيهم شق ديوان المثنبى أو أرسل النظر يوماً فى ديوان ابن المعتز أو فى ديوان مسلم بن الوليد . وما أحسب أحداً منهم طالع ولو بنظرة واحدة ، كتاب البيان والتبيين إذا كان قد سمع باسم الجاحظ ، ودرى بأن لهذا الجاحظ كتاباً يدعى «البيان والتبيين !» « وما له ، لعمرى ، يقرأ ، وما له يكد النفس ويعنيها فى الحفظ والمراجعة ؛ وما له يستهلك الزمن فى تقليب النظر فى روائع الآداب ، وترشف ألوان البلاغات ، كما يترشف الماء الزلال ذو الغلة الصديان ؟ ما له يعانى كل هذا أو بعض هذا ، ولقب الأديب ولقب الشاعر مكفول له من غير كد ولا مطاولة ولا مقارفة جهاد ؟ » الخ . . .

وبعد ، فلقد يكون فى هذا الكلام شئ من القسوة ، ولكنه لا يعدو الرغبة فى الخير على كل حال ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . » وكيفما كان الأمر فإن هذا الضرب من الأدب ، قد انحط فى الجملة ، بل لقد هوى إلى قرار سحيق ، وإن ما تسمع من هذه المقطوعات الغنائية ليشعرك حقاً بأن كثرة هؤلاء الناظمين قد ارتجلوا حرفة الأدب ارتجالاً ، وانتحلوها انتحالاً ، ما عناهم فى سبيلها جهد ولا تحصيل . وإن من لا يبذل فى سعيه إلا الجهد الرخيص ، لتحقيق بأن لا يظفر ، إن ظفر ، إلا بالخط الرخيص . وليس أدل على هذا

من أن الكثرة الكثيرة من هذه المنظومات الغنائية لا يكتب لها العيش إلى اليوم الثانى . ولا أدرى كيف لا يكون من هذا وحده عبرة لأولئك الناظمين ؟ (١)

ولو قد تفقدنا السبب الحق فى تدلى المستوى ، فى بعض أسبابنا ، وأعنى مستوى الأدب ، على وجه خاص ، إلى الحد الذى يضر ويؤذى ، لأصبناه فى هذا الطائف الذى يطوف بنا فى هذه السنين ، وهو ضعف العزائم ، وقلة الصبر ، وتعجل الثمرات ، وابتغاء النتائج من غير تقديم ما يحتم المنطق وتقضى الطبيعة بتقديمه من المقدمات !

هؤلاء ناس يحبون المال ، ويشتهون الغنى ، ولكنهم لا يبتغون المال من وسائله ، ولا يطلبون الغنى من طريقه المقسوم ، من حسن القصد ، وموالاتة السعى ، والتخفف مما لا حاجة إليه من النفقات ، وموالاتة الجمع والتمهير . ولكنهم لا يجدون فى أنفسهم الكفاية من الوسائل المقدرة لاصابة الغاية ، ولا من قوة الصبر والانتظار ، ولا من احتمال الجهد فى سبيل الجمع والادخار ، ولا شئ من هذا الذى يدرك به ، فى العادة الغنى واليسار . إذأ فليقامر ، فلقد يكون إقبال

(١) ليس المراد أولاً أن تجرى هذه المنظومات الغنائية مجرى جيد الشعر من جزالة اللفظ وفحول النظم ، بل الأمر على العكس فإنه ينبغى سهولة اللفظ ، ويسر التركيب ، بل لقد يقتضى الأمر استعمال العامية فى بعض الأحيان إذا كان لا يحلو إلا بها الكلام ، وكذلك كان يصنع كبار الشعراء والزجالين فيما مضى ، وكذلك كتب لاناظميهم البقاء إلى الآن . وكذلك يصنع كبار الشعراء والزجالين اليوم . وكذلك يرجى أن تعيش أغانيهم إلى الغد البعيد إن شاء الله .

الدنيا فى القمار . والقمار ، حرسك الله وعصم عليك مالك ، وإن قل ،
سبيل ميسرة لكل إنسان . فمن ثقل عليه أن يستوى إلى إحدى
سوائده الخضراء لهوان شأنه ، وصيق يده ، فلا يثقل عليه أن يخاطر
فى حلبة السباق . أليس الجواد (الفلانى) قد أغل الريال عليه
مائتى جنيه ؟ ومن ثقل عليه أن يؤدى نصاب الرهان على الخيل
فليشارك فى النصاب ، وإلا ففى ورقة اليانصيب متسع للجميع !
وفىها المائة والمائتان والخمسمائة والألف والآلاف ، وهكذا يحى الغنى
عفواً بلا سعى ولا كد ولا عناء ! ثم إذا كف المسكين صفر ، سواء
فى آخر الليل أو فى آخر النهار !

وإذا كان هناك فرق بين هذا الذى يطالب الغنى من غير
سبيله ، وذلك الذى يشتهى أن يجنى ثمرات الأدب من غير سبيله ،
فان الحظ محتمل لذلك ولوبنسبة أما هذا فغير مقدور له
حظ أبداً !

لا ، لا ، يا بنى ، لا تظن أن المنزلة فى الأدب أو فى غير الأدب
تواتى بمثل هذا اليسر كله ؛ فالأدب يغتصبك ، مهما تكن قد رزقت
الموهبة ، أن تسهر الليالى فى حفظ الروائع التى جاد بها من سبقوك
من أئمة البيان ، وفى تقليب الذهن فى بلاغات من تقدموك من
كفاة أصحاب البلاغات ، وشدة المطاولة فى محادثتهم ، والتشبه بهم
فى منازع بلاغاتهم ؛ فإذا تهياً لك أن تستحدث طريفاً أو تبتدع فى
الفن جديداً ، فأنت الأديب الموهوب بفضل الله . أما أن تطلب
الطفرة ، وتلتمس النتيجة من غير مقدمات ، فالطفرة ، لو علمت ،

محال . لن تكون أكثر من أديب مرتجل ، أو بالتعبير العامى أديب شيطاني ما دمت تقنع من السعى بأن تنظم كلاماً فارغاً مليحاً ، تلفقه تلقيقاً لا براعة فيه ، من كلمات جمال الطبيعة ، والأشجار ، والأزهار والأطيّار ، والعبير ، والغدير ، والهدير ، والقمر والنجوم ، والسحاب والغيوم ؛ فإذا وصلت بسلامة الله إلى « لحف الخلود » فقد أديت « رسالة الأدب » وحق أن يذهب لك صيت وذكور في التاريخ . وما شاء الله كان !

لا ، لا ، يا بنى ، لا يكفي أن تؤلف ، أو على الصحيح أن تلقى من هذه الكلمات ، أو منها ومن سواها ، كلاماً بائخاً مليحاً ، لا طعم له في مساع النظام ، ثم تطلع به على مغن حدث أو مغنية حدث ، لتصك بترديد ، أسمع الناس صكا . لا يكفي هذا في ابتغاء الرزق من الأدب والمنزلة في الأدباء .

وسامحنى ، يا بنى ، إذا قلت إنك وأمثالك من أصحاب هذا الأدب الفج (العجر) لتجنون على أنفسكم أولاً ، وتجنون ثانياً على الأدب في هذه البلاد وغير هذه البلاد !

وأرجو ألا تصغى إلى أصحابك ولداتك الذين ينضحونك بالثناء نصيحاً ، فيصفونك بالعبرية ، ويضيّقون منظومتك إلى الخلود . وكذلك يرم أنفك . وكذلك يطمعونك في المنزلة بين السماكين ، وكذلك تقطع كل سبب بينك وبين مساعى الحياة ، إذ كفك صفر ، وإذا أنت لا تزال هائماً في القفر ، فأنت إذاً « كالميت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وصدق رسول الله .

أما أن يصدق هؤلاء الناشئون أنهم قد رزقوا الموهبة جميعاً ،
 فلا حاجة لأحد منهم بسعى ولا تحصيل ، ولا جهد كثير ولا قليل ،
 فليعلموا أن الناس لا يمتطرون المواهب بمثل هذه الفداحة الفادحة
 وإذا كانت أمثال هذه المواهب مما يباع ويشترى ، لما ابتغت لها ،
 معرضاً أليق من سوق العصر .

هذه ، شهد الله ، نصيحة صادقة مخلصة ، يسديها إلى جمهرة
 الناشئين من الناظمين ، من لا يشعروهم إلا بعطف الوالد على الولد .
 فاذا أصرروا بعد هذا ، على أنهم بضربتين من الحذف « قد دخلوا
 المالح » ، فأمرهم وأمر الأدب إلى الله .

ذكريات

بيني وبين حافظ إبراهيم

وكنّا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفارقنا كأنى ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وبعد ، فما أدري ما خير « الهلال » فى أن تريدنى على الكتابة
فيا كان بينى وبين شاعر النيل حافظ بك إبراهيم ، عليه رحمة الله ؟
لا أدري ما خيرها فى هذا ، وما الذى يغريها به ويدفعها إليه ،
وكما اعتذرت ردت الاعتذار ، وكما حاولت التلصص سدت على المنافذ ،
وأخذت بين يدي المذهب . ويا عجباً ! ماذا يكون بينى وبين حافظ
إلا ما يكون ، فى العادة ، بين جميع الأصدقاء ، أو بين جميع
الأعداء !

كنت أصحب حافظاً ويصحبني ، وكنت ألقاه ويلقاني . وكنت
أتمر معه ويسمر معي . على أننى لم أكن وحدي الذى ظفر بهذا
الخط من حافظ إبراهيم ، فمن صاحبه ولازمه كثير ، ومن غشوا
مجالسه ، واستمتعوا بملحه وطرائفه أكثر . وحافظ لم يكن مستحجباً
ولا منتقبضاً عن الناس ، ولا برماً بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح

مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثراً متدفقاً يسمح بطرائفه ، كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضمن على أحد بما طالت يده ولا بما يطول لسانه ، ففيم إثاري بالتحدث عنه ، وفيم اختصاصي بالقول فيما كان بيني وبينه ؟ على أنني ما برحت مفروح الكبد لفقده ، ما ترقأ لي عليه دمة ، ولا تبرد لي ، كما ذكرته ، لوعة . فكيف لي ، مع هذا ، بالخوض فيما يروق من شأنه ، وما يعجب وما يسر من حديثه وما يطرب ؟

في الحق إن تكليفي هذا دون الناس جميعاً عجب من العجب !

وبعد ، فإذا كانت « الهلال » إنما تحرص على إثاري بهذا لأنها تحسب أنني كنت أوثق أصدقاءه به وأقر بهم محلاً من نفسه ، فقد خالفها الظن وأخطأها الحسبان .

عاشرت حافظاً وصاحبته ولازمته أكثر من خمس وعشرين سنة متوالية متصلة ، حتى مضى إلى فضل الله ورحمته . ومع هذا لا أدري أكان لي أصدق الأصدقاء ، أم كان لي أعدى الأعداء ؟ ولا أدري من جانبي أيضاً ، أكنت له أصدق الأصدقاء ، أم كنت له أعدى الأعداء ؟ وهل كان يحبني أشد الحب ، ويضمّر لي أخلص الود ، أو كان يكرهني أشد الكره ، ولا ينطوي لي إلا على أبلغ المقت ؟ كذلك لا أدري إذا كنت أحبه أشد الحب ، ولا أكن له إلا أصدق الود ، أو أنني أكرهه أعنف الكره ، ولا أنطوي له إلا على أقسى الحقد والبغض ؟ أكان يكبرني ويجلّ موضعي ، وكنت أكبره وأجل

محلّه ، أم كان يزدرينى وأزدرية ، ويرى ألا فضل لى وأرى ألا خير فيه ؟

وترى أنه كان لا يبغي لى إلا النفع والخير ، ولا أبغى له إلا النفع الخير . أو أنه كان لا يرجو لى إلا الأذى والضرر ، ولا أرجو له إلا السوء والشر !

ما زلت ، لعمرى ، بين الأمرين فى أحير الحيرة وأضل الضلال ! كنت لا أستطيع صبراً على فراق حافظ ، وكان حافظ لا يستطيع صبراً على فراقى ، ولا أستطيع طعماً شهباً إلا إذا كانت يده مع يدى ، ولا تطيب له نزهة مفرجة إلا إذا كانت رجلى مع رجله ، وهل مهد لآتيان مجلس غناء أو هو أو سمر ، فاستوى فيه ، واطمأن إلى موضعه منه ، إلا إذا كان صاحبه معه ، واحتل من المجلس موضعه ، لا يحقن أحدنا عن الآخر سرّاً ، ولا يكتمه من مداخل أمره أمراً .

ولقد يدعونى بعض الأمر إلى الشخصوس إلى الاسكندرية على أن أبيت فيها ليلة ، فيثبط من همى ، ويدغدغ من عزمى ، ويهون على من خطب طلبتى ، وينطلق يذم الاسكندرية ، ورطوبة الاسكندرية ، وضيق مساحة الاسكندرية ، حتى لتلقى من تكره فى اليوم الواحد عشرين مرة فى الاسكندرية . فاذا أصاب منى العزم والاصرار ، زم متاعه ومضى معى إلى الاسكندرية ، ما يفتر لسانه طول الطريق لحظة واحدة عن لومى وتقريعى ، والأبانة عن سوء رأى وفساد ذوقى . يفعل هذا وهو متجههم الوجه بآدى الغيظ ! ولقد تدعوه بعض الحاجة إلى سفرة كهذه السفرة ، فأفعل معه مثل هذه الغفلة . وسرعان

ما أُرزم حوائج السفر ، وأمضى معه متى استيقنت من عزمه وإصراره !
وكيفما كان الأمر فأنى أعود فأقرر أن حافظاً رحمة الله عليه
كان لا يستطيع على فراق صبراً ولا أستطيع على فراقه صبراً ، ومع
هذا فانه ما جمعنا خلوة إلا جعل يصارحنى ببغضه ، وأباديه بمقتته .
ويذكرنى ما أسلفت من أذاه ، وأذكره ما أسلف من الكيد لى ،
ولا نزال على هذا حتى يبدو ناجذ الفتنة ويهيج هائج الشر . ومع
هذا لا توسوس لأينا نفسه بالفرقة وطلب الخلاص من هذا البلاء !
لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط ، سواء كان فيه من نعرف أو من
لا نعرف ، وكان فيه من فعلى أقدارهم ، وبخل أخطارهم ، أو كان فيه
من نتهاون شأنهم ، ولا تضرر أنفسنا إلا استحقارهم والزراية عليهم .
لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط إلا جلاله مداخلى وبذل بين يديه .
أكره مكارهى . فاذا أعوزته المكاره خلقها خلقاء وارتجلها من عفو
الخطاير ، ارتجالاً !

ولقد يوغل فى الكيد ويمعن فى الأذى ، فيشرك نفسه معى
فيا يرمينى به من ألوان التهم ، ولو قد صح أكثرها لأفضت بنا
كلينا إلى محكمة الجنايات ، والعياذ بالله . فيقول لما فعلت أنا وفلان
كذا ، ولما افترقنا كذا ، وهكذا . . . وكل هذا ليؤكد على التهمة
ويوثق الجريمة . وتراه يضع فى هذا الموضع نفسه ، ويبلغ منها به ما لا
يبلغ أعدى عدوها ، ليرضى تقمته منى واضطغانه على ، ولا أجر
الله القائل :

فاقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

انظر يا سیدی کیف یکون غیظی ، حتی لأکاد أخرج من جلدی ، ثم فکر فیما یرمی به لسانی من منکر القول ، ومستکره اللفظ ، نضحاً عن نفسی ، وشفاء لصدری ! ثم تدبر ، بعد هذا ، ما یعترینی من الألم ، وما یلحقنی علیه من واخر الندم . ولعنة الله على الغضب وما یفعل الغضب !

ولقد یتوافق رأیانا فی رجل ، فندكره بما نحسب فیہ من ثقل الظل ، أو سدة البخل ، أو الكذب والتزید ، أو التنفج وعرض الدعوى ، أو غیر ذلك مما یكره الناس أن یذكروا به ، فیلقاه فی سر منی ، ویقول له : « إلا فلاناً یرمیک بكیت وذیت ، فتعال معی أسمعك بأذنك » . ویواریه فی غرفة مجاورة أو یدسه من حیث لا أرى ، خلف ستار ، أو تحت سریر . ثم یقبل على فیستدرجنی إلى حدیثه ، وما عسى أن نكون قد أرسلنا من النكات على خلاله تیک ، فاذا بلغ من هذا كل ما أراد ، سل صاحبنا من حیث كان ، فطلع على مغبر الوجه ، متكرش الجبین ، محمر الخدق ، بارز الناب !

وانظر یارعاك الله ، أى جهد یجب على أن أبذله ، وقد یعیننی حافظ بانقاذ الموقف (كما یقولون) وصرف الأمر كله إلى النكتة ، حتی یسكن غضب الرجل ، ویتفرج غمه ، وتطیب نفسه ، ویشیع البشر فی وجهه ، على أننى إذا خرجت من ثائر شره على سلم ، واطمأننت منه إلى الأمن ، فانی لأقضى بقية نهاری وسواد لیلئ قلق النفس مقشعر الجلد مما عسى أن كان یکون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلی العظیم .

ومن أعجب العجب ، وإن شئت قلت « من بركة العجز »
 أن هذه الحوادث قد انتهت أكثرها ، إذ لم يكن قد انتهى جميعها ،
 إلى استيثاق الصلة ، وعقد الألف بيننا وبين هؤلاء الذين كان يغريهم
 حافظ بى ، ويشير حفائظهم على بما يسمعون من حديثي فيهم ، وتناولى
 لمكارههم . وقد يزداد هذا الألف على الأيام حتى يصبح صداقة
 متينة ووداً خالصاً !

وأغلب الظن فى هذا أننا لم نكن نعرفهم حق المعرفة ، ولم نخالطهم
 حتى نقلب عن يقين حقيقة شأنهم فنسرع إلى الحكم عليهم بما نرى
 من ظواهرهم أو بما نسمع من خصوصهم عنهم . حتى إذا عرفناهم
 وبلوناهم ، تجلت لنا فضائلهم ومزاياهم . وإذا ما ذهبنا إليه إنما
 كان أوهاماً فى أوهام ، لم نخرج منها واحسرتاه ، إلا بالماكر والآثام !
 اللهم اغفر لنا خطايانا وتب علينا واعف عنا ، إنك أنت التواب
 الرحيم !

على أن مما يعزينا فى هذا الباب ، أننا ما تناولنا ، والحمد لله
 عرضاً ، ولا اتهمنا أحداً فى ذمة ، ولا رميناه بكبيرة . إنما هى الشهوة
 إلى التندر على الناس والسلام !

ولقد كان حافظ يعرف منى شدة الخوف مثلاً من سرعة السيارات ،
 فيستدرجنى إلى إحداهن لنزهة أو لعدة . ولا أركب حتى أستوثق
 من أن السائق لا يفعل . وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد
 الخنزير يبعث عجل السيارة ، حتى يجريها فى سرعة الكوكب

الهاوى ، أو البرق الخاطف ، ما يبلى زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرقى تلعة ، أو يمشى على حافة ترعة . أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف فيه على توقع السلامة !

وبعد ، فأرجو ألا تظن أننى كنت أتمثل مع حافظ ، على شئ من هذا ، بالحكمة الرفيعة القائلة : « المسامح كريم » فأننى ما كنت أجزيه إلا شراً بشراً وغيظاً بغيظ ، وكيداً بكيد ! ولعلنى كنت أخبر الناس بما يجتنب نفسه ، ويكدر صفوه ، ويذكى هممه وغمه ، ويسود نهاره ، ويقض الليل مضجعه . فما حرمت شيئاً من هذا شهوة الحق أبدأً ، والبادى أظلم !

هذا ولا نتفارق ، لأننا كلينا لا نستطيع على الفراق صبراً .

وإذا أردت أن تعرف بالضبط والتدقيق لون الصلة التى كانت بينى وبين حافظ ، فألتسها فيما كان يصفنى به ويردده على الأسماع عنى : « فلان ضرر لا بد منه » وكان ذلك رأى فيه أيضاً . رحمه الله ، وألحقنى به على الايمان إن شاء الله .

وأرجو ، إذا كان فى العمر فسحة ، أن آتى بشئ من التفصيل عن بعض ما كان بينى وبينه من هذا القبيل .

مهم الأديب في الشرق أن يكون أديباً شرقياً

ولست أعنى بالأديب كل من يجيد سبك الشعر أو يحسن تزويق الكلام ، إنما أعنى بالأديب ، الأديب حقاً ، وذلك الذي استنارت بصيرته ، ورهفت حسه ، ولطفت مشاعره ، وأغنى له من حد النظر في بواطن الأشياء وما ينقطع دونه جهد الأنظار . إنما أعنى بالأديب ذلك المقلن الذي يلمح بالنظرة المومضة ما لا أدركه أنا ولا أنت ولا يقع عليه حسى ولا حسك مهما أذكينا من الذهن وشجذنا من الاحساس .

لست أعنى بالأديب هذا الذي يشمر في اختلاق الأخميلة لم تنتظر لنفسه ، وفي تلفيق الصور ما تجلت على حسه . إنما أعنى بالأديب ذلك الذي اتسع أفقه ، ونفذت إلى الأطواء بصيرته ، فهو يرى بعينه الباطنة ما لا يرى غيره ، فاذا تعاضمك ما جلا عليك من غريب الصور ، وما سوى بين يديك من طريق الخيال ، فلا تظن أنه ملفق أو مزور أو مختلق ، بل إنه ليحدثك بما تتحدث به نفسه ، ويجلو عليك ما يرى هو وما يسمع وما يشعر في غير زيادة ولا نقصان . ولعلك قد أدركت من هذا أن ذلك الأديب النير الحساس لا يجدى الأدب ولا الناس إذا لم يكن متمكناً من ناحية البلاغة ،

حتى يستطيع أن يكون أميناً ودقيقاً ورائعاً فيما ينفضه عليك من صور البيان .

وبعد ، فإن مهم الأديب في الشرق جليل الخطر ، بعيد الأثر ، مهمه الأول أن يوجه حسه إلى الشرق ، وأن يحرر عاطفته كلها للشرق ، فقد استدرج الغرب إليه حس أدباء الشرق وعواطفهم جميعاً ، أستغفر الله ، بل لقد سطا بها سطواً ، وانتزعها من بيئتها انتزاعاً .

اللهم إن أعظم أدبائنا الشرقيين قدراً ، وأجلهم خطراً ، لا يكادون يطرحون النظر إلا على الغرب ، ولا يكادون يتصورون الأشياء إلا بذهن الغرب ، ولا يكادون يصورون ما يجدون إلا على أسلوب الغرب بل لا تكاد أعرفهم تلين وتنفع ! إلا لما يقبل عليهم من ناحية الغرب . لقد استهوتهم حضارة الغرب ، وفتنهم جمال الغرب ، وملك فكر الغرب عليهم كل مذهب ، فلم تبق فيهم فضلة لتقليب النظر في هذا الشرق ، ولا لتصفح وجهه ، والتدسس إلى ما تحت السطوح مما كثرت القرارات وأجنت الأطواء !

ولعل عذرهم كان في أنهم نشأوا في لغات ميتة ، وآداب ميتة ، وحضارات ميتة ، وأفكار ميتة ، وجو كله موت لا تترقق فيه نسمة من نسمات الحياة ! وما ظنك بمن أحس الاختناق لفساد الجو ، أفلا تراه يجري لالتماس الهواء الطلق ، يتفرج به ، ويملا منه رثيته . كليهما ليرد به على نفسه ما مضى عنها من عناصر الحياة . وكذلك صنع أدباء الشرق ، وكانوا فيما صنعوا حق معذورين !

في الحق إن الغرب قد استولى على أدبنا ، وأعنى أدبنا الحي أو أدبنا الذي يزعم لنفسه الحياة ، كما استولى على أرضنا ، وعلى علمنا وفننا ، وتجارنتا اوصناعتنا وكل سبب من أسباب الحضارة في هذا العالم . لقد استولى الغرب على كل شيء عندنا ، حتى على الأدب ، وأصبحنا في جميع وسائلنا أشبه بالمكاريين يسعون سعيهم لحساب أصحاب الأموال .

ولقد يتعاضمك ويشبع فيك العجب ما زعمت من أن الغرب قد استولى على أدبنا فيما استولى ، ولقد يكون أهم الداعيات على إنكارك ما ترى كل يوم لكتابنا المجلين من لفظ عربي رقيق ، في نظم عربي أنيق ، وما تجد من منازع بلاغات تطاول أزكى بلاغات العربية في أزهى العصور ، فليس الأدب حلاوة لفظ ، وتلاحم نسج وإشراق ديباجة فحسب ، بل إنه قبل ذلك لوضاعة نفس ودقة شعور ، ورهافة إحساس ، ونفوذ نظر ، وتهيؤ فطري لبراعة التصور ، ثم قدرة قادرة على براعة التصوير . وفي هذا المظهر الأخير إنما يحتاج إلى براعة النظم وصحة البيان .

وأرجو بعد هذا أن تحدثني بعيشك ، كيف يكون أدبنا شرقياً ، وكيف يعد أدباؤنا أدباء شرقيين ، وهم متغيرون لبيئتهم ، منكرون كل الانكار لما يحيط بهم ، لا حظ للشرق ، ولا لطبيعة الشرق ، ولا لشيء من أسباب الشرق فيما يتصورون وفيما يصورون ؟ وبعد ، فللشرق أرضه وسماؤه ، وله هواؤه ، وله جباله ووديانه ،

وأنهاره وخلجانه ، ونباته وحيوانه ، وله سهله ووعره ، ومعموره وقفره ، وله صحاريه ، وناهيك بصحاريه وما ألهمت من الشعر في قديم الزمان ! وللشرق عاداته وأخلاقه ، وله أفكاره وأذواقه . . . للشرق جماله وفتنته وسحره ، وله جلاله ورهيبته ، وهذا تاريخه الضخم ، لقد احتشد بعوامل القوة والعظمة ، كما سال بأثار الفلسفة والعلم والفن جميعاً . ولقد أزل لنا هذا التاريخ من مجالى عظمة الشرق ما يحير الألباب ، سواء منه ما طاول السحاب ، وما دسا في التراب !

ولعمري ، أليس في هذا كله ما يبعث العاطفة ويستجيش الحسن ، ويلين أبدع الصور تتراءى في أبدع البيان ؟
لقد كان الشرق مهبط الشعر كما كان مهبط الوحي وفيه رقى بيان الأرض كما تنزل بيان السماء .

ولقد كان لأجلاء أهل البيان عذرهم الذى أسلفت فيما عذرهم الآن ، وقد انبعثت اللغة ، وحيّ الأدب ، وذكا الشعور ، ورهف الحس ، وراح منا خلق يعالجون ما يعالج أدباء الغرب من تحليل الأشياء ، والنفوذ إلى الأطواء ، واستظهار الطريف البديع من مختلف الصور فى شتى مظاهر الحياة .

مالنا ، وقد بلغنا هذا القدر ، ولو بفضل تروينا من أدب الغرب ، لا نوجه إحساسنا وعواطفنا إلى هذه البيئة التى نعيش فيها ، فنتصفحها ونمعن فى تصفحها ونتوسمها ونطيل فى توسمها ، فانها قمينة بأن توحى إلينا أبلغ مما نرجو من ابتهاج ومن روعة وجمال !

عباقة الفن

قبل أن نقص ما هيأناه لهذا المقال من القصص ، نعيد ما سبق لنا أن ذكرنا في مثل هذا المقام من أن الكذبة الفنيين ليسوا جميعاً على غرار واحد ، ولا يلزمون موضوعاً مشتركاً ، بل إن منهم لاختصاصيين ، تجرد كل منهم في مطلب ، وحبس سعيه وجده عليه لا يعدوه إلى غيره . أما رأيت الأطباء كيف يتخصصون ، هذا للأمراض الباطنية ، أو للأمراض المعدة منها ، أو للأمراض الصدر دون غيرها ، وهذا للأعصاب ، وهذا للجراحة ، وهذا للحنجرة والأنف ، وهذا للعيون الخ . . . وكذلك عباقة الفن منهم من اختصت عبقريته بالحديث في الطعام ، ومنهم من اختص بالبطولة والفروسية في القتال والصدام . ومنهم من لا يعدل وله النساء عليه وغرامهن به أى غرام ، وهو يضمن على الآلاف منهن بالنظرة ، ولا يبرح يقدم في صدورهن نار الغيرة ، ويذيب كبودهن من شدة الوجد والحسرة . والمسكين وخمسة من سكرتيريه قد استهلك نهارهم وليلهم ، ففي الرسائل الغرامية يسطع أريجها ، ويتضوع في الحى والأحياء المجاورة عبيرها ، رحتى لو صبت أوعية أكبر « فابريقات » الروائح العطرية في العالم ، أفعلت في الجو فعله ، ولا نشرت في الأفق العريض مثل شذاها

وطيها . وهذه الرسائل كلها قد جادها الشغف والولوع ، بالعارض
الहतان من سخين الدموع ، حتى إذا فرغ المسكين المرهق بالحاح ربات
الجمال ، المضنى بمطاردة جميع ملكات الجمال ، تراه قد أرخى حفته ،
ورمى بنظرة ساحرة تسلك أعصى الكبود وتذيب الحجر الجلمود !
وهناك إخصائيون فى غير هذا أو ذاك . على أن هذا لا ينفى
أن هناك من عباقرة الفن من لم يلتزموا موضوعاً ، ولم يتخصصوا
فى أمر ، فهم كبعض أطباء الريف المصرى ، يعالجون كل مرض ،
ويطيبون كل علة ، فمن رمدين ، إلى التهاب جلد ، إلى شق دمل ،
إلى تجيير عظم ، إلى توليد حامل ، إلى انسداد أنف ، إلى تمدد كبـد ،
إلى التهاب صدر ، إلى وجع بطن ! فهؤلاء الفنانون العموميون (إن
صح هذا التعبير الشائع) يضربون فى كل مجال ، ويأتون فى كل
مقام بأبداع المقال . فهم أغنى الناس إذا ذكر الغنى ، وهم أشجعهم
إذا دار الحديث فى الشجاعة ، وهم الأجل مائدة ، والأشهى طعاماً
إذا مال القول إلى الطعام والدم ، وما يحدث الكظة ويدعو إلى
البشم ، وهم أشغل الناس لقلوب النساء إذا جرى ذكر الهوى ،
وما تفعل الفرقة والنوى ، وكيف تصنع بالعاشقات تباريح الهوى .
فاذا جاء حديث أولياء الأمور وكبار الحكام فيخذ ما شئت من
تهافتهم عليه ، وتباريهم فى الزلفى إليهم ، واستنارتهم برأيه فى المهمات ،
واتباعهم لنصحه فى الأحداث الملمات وهكذا
والعجيب فى أمر هؤلاء جميعاً أنك تجدهم حاضري الذهن ،
حافلى خاطر ، مستيقظى الذاكرة ، لا يند عنهم كبير ولا صغير ،

ولا تنشر عليهم شاردة ولا واردة ، ولا يغيب عن ذاكرتهم شئ
 مما وقع لهم في الماضي الطويل ، مهما دق أمره ، وهان قدره ، فما يكاد
 أحدهم يسمع في المجلس الكلمة يهتف فيها هاتف بتقديم أحد في باب
 من هذه الأبواب ، إلا انبرى من فوره يشيد بما له هو من سبق
 والتقدم ، ويستشهد على هذا بالقصص المسبوكة المحبوكة ، يرويها
 متدفقاً غير متحبس ولا متوقف ولا متلجلج ولا مستمتع ، ولا مستعين
 متنحنج ولا بتعسل ، كأنما يصدر حديثه عن المؤنس (موسيقى القرب)
 لشدة اتصاله ، وعدم الشعور بانقطاعه ولو مدة جرم النفس !

وكان لى صديق رحمة الله عليه ، يتالح بهذا الكذب ، وما يرح
 من نشأته يوالى هذا ويدأب عليه ، حتى صار له عادة وجبلة ، وكثيراً
 ما سمعت أنه إذا لم يكذب لا يستريح عامة يومه ! على أن كذبه
 كان حلواً عذباً يشعر من فوره بأنه كذب .

كنت أتمشى معه في صدر إحدى الليالى وقت الغلس ، والجو
 أدنى إلى الظلمة ، وكان وقتئذ طالباً في إحدى المدارس العليا ، إذا
 نصب عليه رجل لا أدرى ولا يدري هو من أين طلع ولا من أين
 هبط . بادره بطلب دين عليه . وقبل أن يتم الرجل مسألته ، عاجله
 صاحبي مقسماً على أنه ليس معه إلا الريال مسحة الجزمة ، فانصرف
 الرجل عنا وهو يضرب كفاً بكف ! يا لطيف ! . . .

واشترى ذات يوم قميصاً وأرانيه ، وجعل يدلنى على جودة
 قماشه وحسن تفصيله ، فقلت له : بكم اشتريته ؟ قال : بخنيه مصرى !
 ولكننى رأيت مكتوباً على عنقه : P.T. 50 ، فقلت له : يا أخى

إن الثمن خمسون قرشاً . فأجاب فوراً : بل هى خمسون نصف فرنك .
وسافر فى بعض السنين إلى أوروبا ليقضى أشهر الصيف وسلخ
أكثر المدة فى إنجلترا ، ثم عاد سالماً ، وجعل يروى ما وقع له من
طرائف الحوادث ، وهى كثيرة جداً تثقل العد والحساب ، وكان
أطرفها حقاً أن إحدى نجوم السينما فى لندن (وسمى ممثلة زائعة الشهرة
بالجمال والفن معاً) أحبته وكلفت به كلفاً شديداً ، فكانت تقصر عليه
كل أوقات فراغها ، تصاحبه فى نزهاته ، وفى غشيانه لدور الملاهى ،
وتمضى معه لشهود ما يجتمع لشهوده ، من المعاهد والمعابد والمكتبات
ونحو ذلك ، حتى لقد تركت قصرها الفخم لتبيت معه فى نزله . فلما
أذن الصيف بالادبار طالعها بنية السفر والقفل إلى بلاده ، فتعلقت
به وجعلت تبكى وتستعبر ، وتلشج أشد اللشج وأوجعه ، وتضرع
إليه أن يبقى ، على أن تعوضه مما يخسر من ترك عمله فى مصر عشرات
الأضعاف ، وهو يتأبى ويتجنى ، حتى إذا يئست من مقامه ، صممت
على ترك عملها فى إنجلترا والشخوص إلى مصر ، رجلها مع رجله !
وما زال بها يدفعها عن هذه النية الخطيرة ، فلا تتقلقل ولا
تتململ ، إلى أن خوفها نقض التزامها للشركة التى تعاقدت معها ،
وما يلزمها من تعويضات جسيمة . ثم سكنت على أن تلحق به إلى
مصر بمجرد انتهاء من عملها . وكذلك استطاع أن ينفلت من بين
يديها . وكذلك خلا له وجه الطريق إلى مصر !

انتظروا يا معشر القراء ، فإن الرواية لم تتم فصولاً .

بعد قدومه ببضعة أشهر لقيته ذات يوم فقال : ألم أحدثك حديث

ممثلة السينما الانجليزية ؟ فجمعت ذاكرتى ثم قلت : بلى قال : لقد ذهبت ليلة أمس فى جماعة من صحبى إلى دار سينما (كذا) فاذا صاحبتنا تمثل فى إحدى الروايات المعروضة ، وما أن رأتنى حتى انفلتت من موقفها فى الرواية ، وأقبلت نحوى حتى ملأت وحدها وجه الشاشة وحجبت كل ما يليها ، وانخت انحناءة بديعة وهى تتبسم ابتسامة أبداع . ثم جمعت أطراف بنائها ، ولثمها لثمة طويلة ، ثم فرقها مومئة إلى بها ، ما تبالى النظارة ولاأحباب الدار ، ولأولياء الشركة فى سبيل الغرام . رأييت يا فلان إخلاصاً كهذا الاخلاص وغراماً كهذا الغرام ؟

فلفت له بكل مؤثمة من الأيمان بأنه ما كان من يوم أرسل آدم وحواء إلى الأرض إلى اليوم ، ولا يكون من اليوم إلى ساعة ينفخ فى الصور إخلاص يدانى هذا الاخلاص ، ولا غرام يبلغ عشر هذا الغرام ! ولندخل الآن فى البطولات الاختصاصية (إذا صح هذا التعبير) ولنجعل حديثنا الأول منها فى البطولة العسكرية ، فهى الأشكل بحال العالم فى هذه الأيام :

فلان بك رحمة الله عليه ، انحدر من ناحيتيه من أصل تركى . أو تركى وشركسى . وكان أبوه الباشا ممن حكموا فى مصر ، واقتنوا الضياع ، وشيدوا القصور ، وتركوا لورثتهم فوق ذلك جلائل الأموال . وحصل صاحبنا من العلم فى أول نشأته مالا أظنه يزيد على ما تلقته المدارس الابتدائية ، اللهم إلا ما حصله من اللغة التركية ، فلقد كان يحذقها كدأب أمثاله من أولاد الذوات فى ذلك العهد ، بحكم بيئتهم وكثرة حديثهم بهذه اللغة مع آبائهم ، وأمهاتهم ، وجواريههم وأغواتهم .

وقضى أبوه ، وأزل له بالارث ما قضى الشرع من تلك الضياع والبيوت والمجوهرات والدنانير . وكان ذلك شيئاً كثيراً (١) . وكان كلفاً شديداً السكف بالدولة التركية ، لا يرى جيشاً أقوى من جيشها ، ولا أسطولا أضخم من أسطولها (وإن كان مجبواً عن الأنظار الآن) ولا سياسة أحكم من سياستها ، أما الحديث في « المايين » ورجال « المايين » والسلطان وما أدراك ما السلطان ، فذلك شيء لا تتناول إلى وصفه الأقلام . شغل هذا ذهن الرجل حتى استغرقه ، وملك عليه جميع حواسه ، واستهلكها استهلاكاً ، فلا يحتويه مجلس في داره أو في دار غيره ، أو في المقهى ، أو في قطار السكة الحديد ، إلا تحدث في هذا وأسرف في وصف ما رأى من عظمة تركيا ، ودهاء ساستها ، وقوة جيشها ، وضخامة أسطولها أيضاً !

ثم بدا له فجمع نحو أربعين غلاماً أفرغ عليهم ثياباً عسكرية تركية ، ودعا برجل من أساتذة الموسيقى ، فقام على تعليمهم وتمريضهم في فنون الموسيقى التركية ، وجاءهم بأحسن الآلات ، وزودهم بأكثر ما دون من « النوتات » وأقام لهم داراً واسعة في إحدى ضياعه ، فإذا أقبل عيد جلوس السلطان أو عيد ميلاده أو غير ذلك من المناسبات ، دعا بالموسيقى إلى القاهرة . فجعلت تطوف عازفة بشوارعها الكبرى ، وهو يتقدمها وعليه الحلة العسكرية التركية . على أنه كان متواضعاً ، فلا يضع على كتفه إلا شارة أمير اللواء (ميرالاي)

(١) لقد أضع الرجل كل هذا ، ولم يبق له ما يساوى درهما واحداً ..

التي نالها بكل استحقاق في أثناء خدمته في الجيش العثماني ، وما أبلى في حروبه الكثيرة بعد تخرجه من المدرسة الحربية هناك ، متفوقاً على الأقران في الامتحان !

وهنا أرجوك ، يا سيدي القارئ ، ألا تكون فضولياً فتسأل : متى كان سعادته في القسطنطينية ومتى انتظم في المدرسة الحربية ، ومتى غزا وقاتل إذ هو لم يغيب عن عيون أهل مصر في يوم من الأيام ؟ لا تكن ، بالله ، فضولياً ، فتوجه إلى نفسك أو إلى غيرك مثل هذه الأسئلة . وأنت ، على كل حال ، حر في تقبل الحديث وفي رده ، ولاضير في هذا الرد على أحد ، والله در العامة إذ يقولون في مثل هذا المقام : « البائرة على بيت أبوها ! »

وبعد ، فقد عرفت أن صاحبنا قائد عسكري من أمهر قادة الجيش التركي ، وما عرض أحد بين يدي مجلسه لذكر موقعة حربية حديثة ، إلا هتف بما أبلى فيها وجاهد ، ونازل وجالد ، وما نصب للعدو من كمين ، وما أوقع بهم من الشمال ومن اليمين .

على أن من واجب الانصاف أن نقرر أن الرجل لم يكن قائداً عسكرياً برياً فحسب ، بل لقد كان في بعض الأحيان قائداً بحرياً من أمهر أمراء البحر ، ولقد أذكر أنه ضمنا به مجلس في قيام الحرب الكبرى الماضية ، وجرى ذكرى الغواصات ، وكيف يعصف « تريدها » بالسفن عصفاً ؟ فقال : اسمعوا : لقد كنت أقود ذات يوم طراداً تركياً في الدردنيل ، فرمته إحدى غواصات الحلفاء « بترييد » فنسف وغرق من فيه في الحال ، ولم يبق منه إلا أنا ونرجيلتي (الشيشة) يحملنا

لوح من الخشب ، ولبثنا على هذه الحال اثنتى عشرة ساعة ، حتى أنقذتنا سفينة عابرة ، وكانت الشيشة هى سلوكى فى هذه الساعة المهولة ! فقال له خبيث من الحاضرين : ألم تنطفئ الشيشة يافلان بك فى كل هذه المدة ؟ فأجاب من فوره : ما أنا كنت بكر كر فيها ! ومن أروع عبقرياته التى لا تلحق أبداً ، والتى تعز على طول الزمان ، وتعصى ، أننا كنا فى بعض الأمسية نسم فى دار قريب له ، وكان معه أكبر أولاده ، وكان ذلك فى أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٣ على ما أذكر ، وجعل الحاضرون يهتفون بفضل رءوف بك قائد الطراد حديدية ، ويشيدون بجراته ومهارته ، وفعله الأفاعيل بطرادته فقال : ألا تعرفون أن رءوفاً هذا هو ابنى ؟ فلم يتدخلنا شك فى أنه يعنى أنه تلميذه ، تخرج عليه فى مدرسة البحرية ، فلعله كان أستاذاً فيها أيضاً . ومن يدرى ؟ فلما قلنا له فى ذلك ، قال : بل ابنى من صلبى لا تلميذى ، فقال ابنه ، وكانت سنه تبلغ نحو الثامنة عشر : وهل سبق لك يا أبى أن تزوجت غير « نينتى » ؟ فأجابه فى عنف وغضب بل هو ابنى من أمك . أخرس بقى واخرج من هنا . فتولى الفتى ساكتاً مبهوتاً ! وأظن أن هذا أيسر جزاء ، لمن لا يعرف شقيقه الأكبر !

رحمه الله ومن مات من رصفائه الأجلاء ، وبسط فى أعمار تلاميذهم من الأحياء ، حتى يبلغ الفن على ألسنتهم ما هو مقدور له من القوة والثناء .

تقاليد الفن في مصر

وكانت مصر إلى عهد قريب حريصة شديدة الحرص على التقاليد ، فكانت ، من هذه الناحية ، أشبه بانجلترا ، إذا لم يكن أهلها أشد محافظة من الانجليز .

والتقاليد ، ولا ريب ، من مشخصات الأمة ، وعنصر من عناصر مقوماتها في الحياة . على أننا جعلنا ، من أعقاب الحرب العظمى إلى الآن نهدمها بأيدينا هدمًا ، وننسفها ، بكل ما يدخل في طاقتنا ، نسفًا ، إما لمجرد المحاكاة والتقليد ، وإما لحض الاغراب والائتيان الجديد ؛ ولو كان هذا الجديد الغريب شمجًا مليحًا ناشرًا على الأوراق !

وليس يتسع هذا المقال بالضرورة ، للحديث عن جميع تقاليدنا التي كنا نعتنقها إلى ذلك العهد القريب ، ولا عن أكثرها ، فذلك شئ يطول على الاحصاء ؛ ولهذا أجرد مقال اليوم للحديث عن واحد منها ، وأعني به الغناء .

وقبل أن أخوض في لجة الموضوع ، أنبه إلى أن مصر من أكثر الأمم ، إن لم تكن أكثرها جميعًا ، تلوينًا للتغنى والترنيم ، فهي تتغنى بقراءة القرآن الكريم ، وبالأذان للصلاة ، وما يتقدم أذان

الفجر من أهازيج السحر ، وكذلك تتغنى بالمولد النبوى الشريف ، وتتغنى بالانشاد وفى حلق الأذكار . وأنت خير بأن غناءها الرسمى هو التخت ، وللعمة الغناء البلدى أو المحلاوى ، يوقعه موقعوه على صوت المزمار البلدى المتخذ من القصب الفارسى (الغاب) . ولا تنس غناء الصهبة وهذا خاص بجماعات الحشاشين ، يوقعونه فى مقدمات الأعراس ؛ وقد زاد العصر الحاضر على كل هذا المنولوج وما إليه .

أما الموسيقى الآلية ، فعندنا منها النحاسية المعروفة ، والطبل البلدى ، ولا زال معروفاً أيضاً ، والنقارية أو النقرزان ، وكانوا ينقرون عليه فوق ظهور الجمال ، بين يدى موكب العروس . ولا يزالون يضربون به فى ذيل الحمل الشريف . وقد زادنا العصر الحديث الموسيقى الوترية (الأركسترا) .

وقد تجاوزت ألواناً غير يسيرة من الموسيقى ، لأن شأنها غير كبير . وبعد ، فلسنت أدعى العلم بتقاليد كل لون من هذه الألوان ، ولا بما كان يأخذ به أصحابه أنفسهم ، ويلتزمون به ولا يعدونه فى كبير من شأنهم ولا صغير . ولكنى أعرف شيئاً من آداب بعض هذه الفنون منها ما شهدته بنفسى ، ومنها ما أرويه عن الثقات الصادقين . ومن هذا وهذا ما عفى عليه الزمان ، ومنها ما لا يزال قائماً إلى الآن .

فمن آداب تلاوة القرآن الكريم ، أو من التقاليد المرعية فى ترتيله ، إذا صح هذا التعبير ، أن قارئاً له قدر ووزن لا يمكن أن يبدأ ترتيله إلا جاريّاً فى نعمة البياق حتى إذا قضى فيها وقتاً طويلاً

أو قصيراً ، ثنى عنان التنعيم إلى غيرهما ، فلبث فيها ما شاء أن يلبث ، ثم أقبل على غيرها . وهكذا ما يزال يتقلب في فنون النغم كلما بدا له أو كلما توسم في إحداها الاستراحة وشدة التطريب . وقد يعود في أثناء القراءة إلى نعمة البياتي فيصيب منها أيضاً ما شاء أن يصيب . وكيفما كان الأمر ، فانه حين يؤذن الوقت بالانتهاء لا بد له من أن يختم بهذه النعمة ، مهما يحشمه التحول إليها من النغم البعيد وكثيراً ما يكون هذا التحول سريعاً ، وداعياً إلى الإعجاب !

فمقدمو القراء في مصر لا يبدأون قراءتهم إلا من البياتي ، وبه دائماً يختتمون . وكذلك تسمع القرآن عن طريق الراديو من المشايخ العظام ، محمد رفعت ، وعلى محمود ، وعبد الفتاح الشعشاعي ، ومحمد الصيفي ، وطه الفشنى ، وغيرهم من مشاهير المرتلين .

على أننى لا أدري من أين جاء مصر هذا التقليد ، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ! ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتي هو نعمة البلد الأصيلة ، أو هو من أصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين . ففي الحق أن هذه النعمة ، فوق سعة آفاقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها ، ما لا يجد لكثير . أو لعله يرجع إلى هدوء في طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد .

هذا ما كان وما لا يزال قائماً من أدب ترتيل القرآن الكريم

عند كبار المرتلين . أما أهازيج السحر التى تتقدم أذان الفجر ، وهى أناظم فيها استغفار ، وفيها تشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها توسل بآل بيته ، تسليكات الله عليهم ، ويدعوها العامة الأولّة فهذه كان لها فى القاهرة تقليد جميل .

ولقد تعرف أن القاهرة كانت إلى عهد غير بعيد لا تشغل إلا رقعة ضيقة من الأرض ؛ وكانت المساجد والزوايا تتمتع فيها بنسبة كبيرة من عدد المباني ، فانى اضطربت رفعت لك المساجد الأثرية الجميلة ، والزوايا اللطيفة المتواضعة التى لا يكاد يخلو منها رفاق من الأزقة أو درب من الدروب .

وقد حدثنى الثقات الصادقون من مشيخة القارئین ، أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهِتاف بالأولى أو الأولّة وقفوا وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنعمة التى يجرون فيها الأهازيج ليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنعمة الرصد مثلاً ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ إخذهم مجاوروهم ومن تقع للأسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنعمة الرصد . وإذا بدأ بالبياق ، أو بالحجاز ، أو بالسيكاه الخ . . . فهكذا وما شاء الله كان !

وهذا إذا دل من ناحية على القصد إلى ضبط المؤذنين لأصواتهم ، وتحكمهم فى نبراتهم ، وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى ، وإلا اضطروا إلى الخطأ ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) — إذا دل هذا

على هذا فانه في الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر ، أو سكان القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق تطريب !

وإذا ذكرنا أن مسجد الشيخ صالح أبي حديد ، حديد^٢ ، لأن الذى تقدم باقامته هو ساكن الجنات الخديو اسماعيل ، وقد أدرك الشيخ في الحياة ، وكان له في صلاحه وولايته اعتقاد كبير — إذا ذكرنا هذا رجع الظن بأن هذه العادة أو هذه الزعامة تحولت إلى هذا المسجد من مسجد آخر عتيق .

وقبل أن أعرض لما أعرف من أدب الانشاء على الذكر ، أرى من الخير الكثير أن أنبه إلى أن المنشدين الذين يجرون من الصنعة على عرق ، لا يمكن أن يفسحوا في حناجرهم إلا على ذكر السادة الليثية ، نسبة إلى الإمام الليث بن سعد المصرى ، رضى الله عنه ؛ وذلك لأن أهل هذه الطريقة أصحاب فن موسيقى بقدر كبير ، وفى طرائقهم بالهتاف باسم الله تعالى « لا إله إلا الله ! الله ! الله ! » ، ما يمكن للمنشد المفتن من أن يلقي أهازيجه ، موشحة كانت أو دوراً أو مقطوعة شعرية أو موالياً ، غير متعثر ولا متحير ، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى ، على أساليب هذه الطريقة ، خير ، يعينه على الإنشاد ، ويهديه في سبيله السبيل .

وإن أنس لا أنسى السيد على الركبى ، رحمة الله عليه ، وكان قائد الذكر الليثى ، أو ضابط الايقاع ، فى تعبير هذه الأيام ، وقد

أدركته شيخاً تقدمت به السنون ، مرسل اللحية البيضاء ، وقسماته تنبئ عن طيبة قلب ، ولطف نفس . فاذا جلس أعلام المنشدين لشأنهم فى صدر المجلس ، جعل يدير أساليب التنعيم بالذكر تنغيماً فنياً يهين لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو فى فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين إلى هذه الناحية أو هذه الناحية ، مسرعاً مرة ومتمهلاً أخرى ، ضابطاً الوحدة بنقرة بخاتمه الفضى على حق سعوطه النحاسى . فكان بحق أكفأ « مايسترو » رآته العيون فى هذه البلاد .

والأدب ، أو التقليد الذى أحصيه هؤلاء القوم ، أنه إذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنّى فرداً مستغنياً بالنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسلياً لله عليهم ، ثم عاد إلى التغنى ببيت أو بيتين من الغزل الرقيق ؛ والذى أسوق له القول ، هو أن أول من يبدأ بالانشاد يجب أن يكون أعلى الحاضرين سناً ، ولو كان أنكرهم صوتاً ، ثم يليه من يكبر سائرهم ، وهكذا . وقد كان يحبى المرحوم الشيخ يوسف الميلاوى ، فى بعض الأحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !

فن الحزن

لأول مرة فى حياتى أدس قلمى بين قلمين يتجاوران ويتنازعان فى قضية من قضايا الدنيا أو الدين ، وحين كنت قاضياً لم يكن يخرج صدرى بقضية قدر حرجه بقضية يقتحم فيها على المتخاصمين ثالث ، فتتشعب به وجوه الخلاف ، ويطول أمد النزاع ، ويحتار صدرًا كبيراً من هم القاضى فى البحث والتحرى عما إذا كان هذا الخصم الثالث جاداً فى دعواه ، جارياً على عرق من الحق فى مطلبه ، أو هو متواطئ مع أحد الخصمين ليدفع يده عن بعض حقه ، أو ليدفعها عن حقه كله ؟ ولقد بان لى بعد امتحانى بمنصب القضاء بزمى يسير أن أكثر قضايا المحاكم الشرعية التى يقتحمها هؤلاء الخصوم ، هى قائمة على التواطؤ مع أحد الطرفين ، كيداً وعنتاً ، وأذى للطرف الآخر بغير حق ولا سبب مشروع ! على أن ذلك لا يعفى القاضى من البحث والتحرى وشدة التدقيق ، فلعل هذا الخصم الثالث جاد ، ولعله صاحب الحق دون المتنازعين جميعاً !

ولقد كان من أثر هذا فى نفسى أن أكره إليها الدخول بين متجادلين ، ولو فى شأن عام ، ولو فى قضايا العلوم والفنون والآداب ، فيما يقع عليه الخلاف بين الباحثين والكتاب . ولكنى رأيت أن

حجتى ، فى هذه المرة ، واضحة ، وأن سلطانى فى الأمر مبين ، بحيث لا يستطيع أحد المتنازعين أن ينكره أو يكابر فيه ، ويعتريه بشئ من الشك كثير أو قليل ، إذاً فمن الاثم أن أسكت وخاصة إذا كان النزاع إنما يتعلق بالشأن العام ، وعلى الأخص إذا لم يكن بينى وبين أحد الطرفين نزاع ولا خصام !

ولقد كتب صديقى الأستاذ المحقق أحمد أمين فى « الثقافة » مقالا ممتعاً ، يدعو فيه إلى استغلال فن السرور . ومما جاء فيه : « مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور فى الشرق قليلة ، كما لاحظت من قبل أن كمية الحب فى مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصايب الشرق من الحرب أقل منها فى الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور فى الشرق أقل .

« أكبر سبب لذلك فى نظرى أن الحياة فن ، والسرور كسائر شؤون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به . »

وسرعان ما انبرى له صديقى العظيم الدكتور طه حسين بك ، فاثنى على الفكرة ، بادى رأى ، ثم راح يشكك فى إمكان تحقيقها ، ثم ما لبث أن أطلق العنان لمداعباته العذبة الفخمة ، التى تَسَحُّحُ فى الوقت نفسه فناً وأدباً . وجعل يتساءل عن الجماعة التى ينبغى أن تضطلع بتنظيم « فن السرور » ، وهل تكون من بين علماء

النفس ، أو من بين علماء الاجتماع ؟ وبعد أن دوخ الفكرة بشدة الترحيح بين هاتين الفئتين ، انطلق يحيرها بين « جهات الاختصاص » . إذا صدق هذا التعبير الديوانى ، فإذا هى قد ضلت المسالك جميعاً ، فلن تجد إلى مثابتها السبيل !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، رأى الدكتور طه بك أن يعدل بالحديث إلى ما هو أرفق وأقوم ، وأجدى وأنفع ، وأيسر كلفة ، وآكد تحقيقاً ، قال حفظه الله :

« ومن المحقق أنى لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين وأتخيل الآفاق البعيدة التى تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته ، حتى أخذنى الحسد ، ورغبت فى ألا يستأثر من دونى بل إنشاء فن السرور ، وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير . فأملت هذا المقال لأدعوه به إلى إنشاء فن الحزن ، وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر فى التصور . والفن الذى أريد إنشائه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان ، ولا إلى تحديد اختصاص ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شئ واحد يسير جداً ، هو أن تنظر فى الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد فى هذا النظر وفى هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضى ، وألم لا يزول .

« وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه على النفس ، ويحبب إليها الناس ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً ، لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الإصلاح » اهـ .

وبعد ، فليست أعرض لما اقترح الأستاذ أحمد أمين من إنشاء فن السرور ، ولا أمتدح الفكرة ولا أهجنها ، وعلى ذلك فليس بينى وبينه أى نزاع ، وقد كفيت المؤونة من هذه الناحية ، والحمد لله ، بقيت الناحية الأخرى ، أعنى فكرة الدكتور طه بك حسين ، وهى التى تدعو أو يدعو هو بها إلى إنشاء فن الحزن . فهى التى نكثرت عليها الحديث ، والله المستعان .

وفى رأى أن صديقى الدكتور طه قد غلط مرتين لا مرة واحدة . غلط بدعوته أولاً إلى إنشاء فن الحزن ؛ وغلط بزعمه ثانياً أن إنشاء هذا الفن لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان الخ . . .

ولا أدرى كيف غاب عن صديقى أن فن الحزن فن قديم ، ولعله من أقدم الفنون . ومالنا نسافر إلى التاريخ البعيد ، فتتقرى الأخبار من نقوش الآثار ، وحسبى أن يعلم الدكتور أكثر مما أعلم أن الحزن كان فى صدر الاسلام فناً له خطر غير قليل . وأظن أن أحداً لا ينازعنى فى أن المراد بالحزن فى هذا المقام إثارتة وإذكأه ، لأن أحداً لا يرتجل الحزن ارتجالاً ، ولا يستحدث الشجن استحداثاً .

أعود فأقول إن الدكتور أعلم منى بأن « الحزن » على هذا المعنى ، كان فى صدر الاسلام فناً له خطر ، والدكتور أعلم منى بأن ابن سريج ، وأن الغريض كانا كلاهما نائحين ، قبل أن يكونا مغنيين . وهما من نعلم ، جلالة فن ، وجودة صنعة ، وبراعة أداء . وابن سريج والغريض بعد إذا غنيا وذهب لهما فى الغناء صيت وذكر ، لم يكن أحدهما

ولا من أضراهما ليخرج من تلحين الأصوات ، لتنوح بها النائحات ،
في جلى الحادثات .

وهذه كتب الأدب العربي بأخبار النياحات . فلندع إذًا هذا
الحديث المعاد .

أما مصر ، فلها في فن الحزن عرق عريق ، وخاصة في العصر
الحديث ، ولا يزال هذا الفن قائمًا إلى الآن ، وإن جعل يقبل على
الدثور ، مع الأسف العظيم ، ما دمننا نرانا بحاجة إلى إنشاء فنون
الأحزان !

لا يزال في مصر إلى الآن الندابات^(١) ، ولا يزال فيها النائحات ،
أو بالتعبير الشائع المعدادات^(٢) أعاذنا الله وأعاذ القراء جميعاً من
الحاجة إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

أما الندابات فجماعة من النساء يلقين ترانيمهن على نقر الدفوف
في قوة وعنف ، إذ النساء من أهل الميت يثبن على هذا النقر وثبًا ،
ويوقعن على هذا النبر ، لا ضرباً على أوتار العود ، بل لطمًا على
الخدود ، حتى يفري أديمها ، وتهرى لحومها .

وأما النائحات المعدادات فلا دفوف في أيديهم ، ولا يصوتن بالعديد
إلا فرادى . وكلما انتهين إلى موقف عجز النساء جميعاً بالصياح ،
وبكين فاستعبرن ، سواء في ذلك أهل الميت ومن لا شأن لهن به من

(١) الندابات : ندب الميت : بكاه ، أو عدد محاسنه ، والاسم منه الندبة بضم
النون .

(٢) عدد الميت : بتشديد الدال الأولى ، عد مناقبه ووصفها .

المعزيات ، ويظل هذا ثلاثة أيام من وفاة الميت ، وكل يوم خميس ، ثم تحتم هذه النياحات بيوم الأربعاء .

ولقد فاتنى أن أقول لك إن المعددات منهن المحترفات ومنهن الهاويات . وإن جماعات الهاويات ليفعلن هذا احتساباً ، أو مجاملة لأهل الميت ، أو مصانعة لعواطفهن إذا كان الدهر قد امتحنهن أيضاً فى كريم . أما الندابات فلا يكن إلا محترفات .

ولكى تعرف مبلغ فن الحزن فى مصر ، والاسراف فى إذكاء عاطفة الأسى والشجن ، أنك كنت إذا سعت صباح يوم الخميس فى أى حى من أحياء العاصمة ، رأيت الجماعات من النساء عليهن السواد ، وقد ضربن بالخمير السود على رؤوسهن وعوارضهن ، وفى أيديهن المناديل السود ، وهن يمشين على غير هدى ، حتى تصادفهن مناحة ، فينزلن إليها ، ما يعرفن الميت أو الميتة ، ولا هن عهد بأحد من أهلهما أبداً . وذلك كله انتهازاً للفرصة السعيدة فى البكاء الحار ، وسفح الدمع السخين .

ولقد تجاوز فن الحزن المصرى نطاق التبكى على الموقى إلى سائر مواقع النساء ، حتى لترى كثيرات ممن يطلبن المناحات ، إنما يطلبنها ليعولن ويطرحن أثقالاً من الدموع على ما لا سبب له إلى الموت ولا إلى الأموات . فما تكاد النائحة تؤذن بفترة الاستراحة entr'acte بعد الفصل ، حتى تقبل عليها النساء من كل جانب ، فيلقين فى حجرها بالدراهم ، ويدعوها العامة « النقوط » . هذه تسألها أن تقول فيمن هجرها زوجها ، وهذه فيمن اتخذ عليها الضرة ، وهذه فيمن

مال بخت بنتها بزواجها من المضار غير الكف ، أو بكيد حمايتها وكثرة إيذاها ، وتلك فى خيبة سعى ولدها ، وأخرى فى سرقة حليها ، وما ادخرت من المال فى الدهر الأطول لليوم الأسود الخ . . .

وعند النائحة المعددة الكف ما يذكى نار الأسى على كل هذا ، ويستدر الدمع الغزير ، فاذا لم يكن حاضرها شئ منه ارتجلته ارتجالاً ، حيث تصيح صاحبة الشأن صياحاً متداركاً ، أو تبكى وتنشج حتى تسكن عاطفتها وترضى !

والآن ، والآن فقط ، لقد تفتنت إلى أننى ظلمت صديقى الجليل القدر الدكتور طه حسين ، فى ما لعلى قد عزوت إليه ، من قريب أو من بعيد ، تجاهله قيام فن الحزن متين القواعد ، ثابت الأصول ، مفصل الفصول . فالدكتور طه بك أجل من أن يتجاهل شيئاً ليعاز صاحبه فى الحوار !

وأكبر الظن أن الدكتور ، على علمه الواسع بفن الحزن القديم ، وعلمه الضيق بفن الحزن القائم فى مصر إلى الآن ، لم ير شيئاً منهما قادراً على أن يؤدى مطالب العصر الحديث ، وكذلك أسقطهما من الحساب . لأن العصر الحديث عصر الجماعات والشركات والقوميات ، لا عصر الفرديات التى لا تتجاوز أقطار الأشخاص . هو العصر الذى ينبغى أن تندب فيه المرافق العامة وتبكى المنافع القومية . وهذا حق لا ريب فيه ، وهذا هو الأشبه بتفكير أمثال الصديق العظيم .

بقى أن الدكتور ، مع هذا تراه يتهاون فن الحزن ، ذاهباً إلى

أنه يكفى أن ينظر المرء فى الحياة المصرية ، ثم يعود إلى نفسه ليفكر فيما رأى ، حتى يجد فى هذا النظر وهذا التفكير مصادر حزن لا تنقضى وألم لا يزول .

لا ياسيدى الدكتور ، فليس الأمر بهذا الموضع من اليسر اليسير ، فكلنا ينظر فى الحياة المصرية ، وكلنا يعود إلى نفسه ، فيفكر فيما رأى . ومع هذا فلم يشق أحد منا حنجرته بصيحة ، ولا صك له خدأً ، ولا تبادر له دمع غزير ولا رقيق !

إذاً لم يبق لنا بد من قيام فن للحزن قوى محكم ، عظيم الخطر ، بليغ الأثر ، ما دامت المصالح العامة فى مصر لا تستقيم قناتها إلا بثوران الأحزان وغليان الأشجان .

وإذا كان الفن القائم لا يوافق مطالب العصر ولا يحسن الترجمة عن حاجاته ، فلنعالج تحويله ، فى رفق أو فى عنف حتى يستطيع أن يقضى الحاجة ، ويبلغ الطلبة ، وينيل الأرب ، وذلك باطلاق أصوات النباحة فى الأسباب العامة ، بدل إرسالها فى الشؤون الخاصة ؛ ولنوع الندبة والتعديد فى شكل الولد ، وهجر الزوج ، واتخاذ الضرة ، وسوء بخت البنت فى زواجها ، وشقوة الولد ، وضياح السبد واللبد ، الخ . . . ونصوغ الأنظيم فى انحطاط مستوى التعليم ، وتدهور الأخلاق ، وتعطل الشبان من حملة عليا الشهادات ، وإهمال الانتفاع بمساقط مياه الخزان والاعراض عن الجد فى استغلال الثروة المعدنية ، ومشكلة القطن ، والغلاء المصطنع ، وأزمة الزواج بين الشباب ، وإيثار المحسوبيات على الكفائيات . ولا بأس بفرض أنشودة للموظفين

المنسيين ، فى زوايا المصالح والدواوين الخ . . . ، مما لو طرى
الناظمون نسجه ، ورققوا لفظه ، وجود الملحنون لحنه ، وأجروه فى نغم
بائس حزين كالصبا والرمل مثلاً ، ثم أحسن النائحات أو النائحون
ترتيله وتوقيعه ، لأحزن وأبكى ، وأشجن وأشجى ، وهيج الزفرة ،
واستدر العبرة !

وكذلك ترقى سريعاً مرافق البلاد ، وتزول عنها أسباب الضعف
والفساد !

وأرجو ألا تكون شخصية اللجنة التى يعهد إليها بهذا الإصلاح
العظيم أو جهة الاختصاص ، مما يكف عن مباشرته أو يعوق تحقيقه .
ولعل من الخير فى هذا الباب ، أن يعجل بإنشاء كرسى لفن
الحزن الحديث فى كلية الآداب .

الموسيقى المصرية

قديم وجديد

من بضعة أسابيع سمعت من الراديو حديثاً لصديقي المحقق الأستاذ أحمد أمين ، أذاعته علينا محطة لندن .

وقد تناول الأستاذ في هذا الحديث وفي حديث قبله قديم الأدب وجديده ، وعرض في الأخير عرضاً يسيراً للموسيقى ، خلص فيه إلى أنها تحتاج إلى نبى جديد ، كما أصبح الشعر يحتاج إلى نبى جديد .

وإذا كان الأستاذ المحاضر لم يطل الكلام فى الموسيقى ، ولم يجره على جهة التفصيل ، فلغير الموسيقى كان مساق الحديث . وأرجو أن يأذن لى أن أتبسط بعض التبسط فى حديث الموسيقى ، وأن أتولى ما أجمل بشئ من التفصيل .

الموسيقى فى حاجة إلى نبى جديد ! نعم ، هى فى حاجة إلى نبى جديد ، لو أن الأنبياء يعيشون لتقويم الأذواق وهدايتها الصراط المستقيم ! الموسيقى فى أشد الحاجة إلى زعيم مصلح يهذى إلى الرشد ، أو إلى قائد يفتح بالسيف ما استغلق على جهد الكلام !

فى الحق ، لقد أضحت حالنا من هذه الناحية فى أشد الحاجة إلى الفتح المبين .

ولست أذهب بك ، يا سيدى القارئ ، فى التدليل إلى بعيد ؛
فلقد فتحت أخيراً إحدى كبريات الصحف فى مصر باباً تنشر فيه
آراء الناس فى محطة الاذاعة المصرية ، ولو قد اطلعت على هذه الآراء
فما تذيعه المحطة من ألوان الموسيقى وفنون الغناء ، لتعاطمك الأمر
وراعك ، وحير لبك ، وذهب بك منه العجب كل مذهب . وذلك
بأن الكتّاب جميعاً ساخطون متبرمون متأفون . وليس عجباً أن
يتوافق جمهور الناس على السخط والتبرم ، فان من الأشياء ما لا
يعجب جميع الناس ، بل إن منها لما يعجب أحداً من الناس ، بل
إن مناط العجب هو أن نصف هؤلاء الساخطين المتبرمين ،
إنما يسلقون المحطة والقائمين عليها بأحد الأقسام ، لأنها تردد على
أسماعهم الغناء البالى القديم ، ولا تصغى الوقت كله للمستحدث
الجديد !

أما النصف الآخر فيسلق المحطة أيضاً بأحد الأقسام ، ويرميها
بكل عاب ودام ، لأنها تصدع آذانهم ، وتفرق أذواقهم بأسماعهم
هذا المستحدث الجديد ، ولا تتحرر وقت الغناء كله للعتيق
القديم !

ولقد تفرق أذواق الناس ، ولقد تتغير أحكامهم على الأشياء ،
وخاصة فى هذه الفنون الجميلة ، التى يقصد بها إلى الترفيه والتلذذ ،
لقد يقع ذلك ، وهو واقع فى كل زمان ومكان . ولكن اختلاف الآراء
واختلاف الأحكام على ما يتنعم به من فنون الموسيقى الآن ، ليس له
شبيه فى أى زمان ولا فى أى مكان !

ذلك بأن المجموع في كل أمة مهما اختلفت فيه أذواق الأفراد وافتقرت مذاهبهم في ألوان الموسيقى ، فان هناك ذوقاً عاماً يجمع شملهم ويضم جمعهم ، فهم إذا افترقوا أو اختلفت مذاهبهم ، فاختلفافهم إنما يكون في حدود هذا الذوق العام . ومن هنا نجد الاختلاف في هذا الباب يسيراً والافتراق رقيقاً ، كان يفضل هذا كذا على كذا ، ويستريح هذا إلى كذا أكثر مما يستريح إلى كذا ، أما أن ما ينشز على سمع هذا مما يشيع الطرب في ذاك ويدخل عليه الأريحية وبالعكس ، كما هو الشأن فينا الآن ، فهذا كما زعمت لك مما لم يقع له شبيه في أى زمان ولا في أى مكان !

وإن شئت بعد هذا أن تثبت كل شئ في موضعه ، وتجري عليه حكمه الصحيح الصحيح ، فقل في غير تردد ولا خشية : إن الذوق الموسيقى العام قد فقد فقداً في هذه الأيام . فاذا أبيت إلا رفقاً في الحكم فقل إن الذوق العام الآن في حال من الثورة والاضطراب ليس من اليسير أن ينتهى معها إلى قرار .

كان يغنى البلد في أعقاب الجيل الماضى من أعلام المغنين المرحومين عبده الحمولى ، ويوسف المنيلاوى ، ومجد عثمان ، ومجد الشنتورى ، وعبد الحى حلمى ، وسلامة حجازى ، وغيرهم . وكان لكل من هؤلاء طريقته في الغناء وأسلوبه ، ولكل منهم شيعته ومؤثروه على غيره . يلتمسون مجلس غنائه أنى كان ، ويطلبونه مهما جشمهم الأمر من الجهد والمشقة ، ويرددون تنغيمه إذا خلوا إلى أنفسهم أو إذا خلا الصحاب من أهل المراح إلى الصحاب . ومع هذا لم يزعم

أحد أن غناء غير من يؤثر ينشز على سمعه ، أو يخمش مزاجه ، أو يفرق ذوقه ، كما هو حادث الآن ؛ بل لقد كان يسمع جميع الناس من جميع هؤلاء ، فيستريحون إلى غنائهم ، وقد يذهب بهم الطرب كل مذهب . وذلك بأن اختلافهم إنما كان فى حدود هذا الذوق العام فهو لا يعدو إثارة فن على فن ، واستجادة مذهب أكثر من استجادة غيره . على أنه فى كل حال مستملح مستجيد . كانت تلاحين الملحنين قارة مطمئنة ، تجرى على قوانين مرسومة ، وتجول فى حدود معلمة مقسومة . وكانت الأذواق كذلك قارة مطمئنة لا حوول فيها ولا اضطراب ؛ فلا يكاد غناء المغنى المحيد يقرع السمع ، حتى تراه قد سال من فوره فى النفس ، ونفذ إلى مجامع العاطفة ، فأشاع طرباً ، وبعث أريحية ، أو حرك شجى وأثار شجناً .

وأرجو ألا تفهم من كلامى هذا أن الغناء فى ذلك العهد كان جامداً لا يتحرك ، واقفاً لا يتقدم ، عاتياً لا يلين لتلوين ولا تجديد . بل لقد كان مفتناً متلوناً متجدداً . ولكن فى تلك الحدود التى رسمها الذوق العام . ولهذا كان التجديد يجرى فى لباقة ورفق ، فلا ينشز على الأسماع ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيك بما صنع عبده الحمولى فى هذا الباب . وما صنع جد كثير !

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان بين ذلك الغناء وبين الذوق المصرى إلف ، وبينه وبين النفس ود ، حتى لكانه لاحق بالفطرة ، موصول بالطبع !

الموسيقى الحديثة

والآن حق علينا أن نميل بالحديث إلى صفة الجديد ، وكيف
جاءنا هذا الجديد ؟

لهذا الانقلاب العنيف في الموسيقى المصرية سببان :
أحدهما طبيعي ، والآخر صناعي . أما الطبيعي فهو تلك الثورة
التي زلزلت عندنا كل شيء ، فلم تدع شيئاً من العادات ، والتقاليد ،
والأخلاق ، وآداب السلوك ، والأزياء ، والفن والأدب ، وغير
ذلك من مظاهر حياتنا إلا رجته بقدر كبير . وجمهور الناس مهول
مغذ إلى تقليد الغربيين في كل جليل ودقيق ، فكان من الطبيعي أن
يقلدوهم في موسيقاهم ، كما يقلدونهم في غيرها من شؤون الحياة .
أما السبب الصناعي ، فقد انبعث في هذا البلد شاب موسيقى
جمع إلى العلم بالفن رهافة الحس ، ودقة الشعور والقدرة القادرة
على الابتكار والتجديد . وأعنى به المرحوم الشيخ سيد درويش .
كان المرحوم سيد درويش يلمح النبوة تقع في بعض التنعيم
الأجنبي ، شرقياً كان أو غربياً ، فيدرك أنها مما لو سوى بعض التسوية
لأمكن إدماجها في موسيقانا ، ولكان لها حلاوة في الآذان ، وطرب
للفوس . وعلى ذلك أدخل على موسيقانا كثيراً من التنعيم الأجنبية
وطبعها فيها . وسرعان ما تقبلتها الأذواق في غير قلق ولا نفور .
كذلك أراد رحمة الله عليه ، أن يترجم بالموسيقى عن بعض
المحسوسات فتقدم ، وكان علاجه لما عالج من هذا في غاية الرفق

والتواضع . وكذلك قدر له فيما أراغ النجاح . ويطوى الردى سيد درويش ، ويطوف بالبلاد طائف ذلك الانقلاب العنيف ، ويأبى الملحنون والمغنون إلا الموسيقى أفرنجية لا يشوبها شئ مما ألفت الآذان من قديم الزمان . وعلى ذلك راحوا يحاكون الموسيقى الغربية التى يسمعونها هنا وهناك ؛ ولكن كيف يحاكونها ولا علم لأكثرهم الكثير بما تتكى عليه هذه الموسيقى الأفرنجية من القواعد والأصول ؟ يحاكونها بأن يبدأوا بصياح مثل صياحهم ، ثم عدم الاذن للترانيم بأن تأخذ سمتها ، بل المبادرة إلى ليها عن وجهها حتى تصك الأسماع صكا ، وتطير الأمزجة تطييراً ، فاذا بلغت غاية الجهد من الاضطراب ذات اليمين وذات الشمال ، وبين فوق وتحت ، ووراء وقدام ، وصلت بها صرخة تحكى ما يحتم الموسيقى الغربية من الأذئاب والأذيال . وكذلك تظن جمهرة ملحنينا ومغنيين أنهم يحيئوننا بموسيقى غربية لا يلحقها شك ولا ارتياب ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأما تنكير النغم ، وأماليه عن وجهه ، وأما الصراخ فى أوله وفى آخره ، فذلك مما لا يعي على أحد ، لأنه لا يحتاج إلى علم ، ولا صلة له بفن ، ولا علاقة له بدوق ، فاذا هو احتاج إلى شئ من فساد الذوق ، فذلك موفور والحمد لله !

ومن هنا كثر الملحنون فى بلادنا كثرة أصبحت تجهد العدد ، فلا تكاد تسمع مغنينا حدثاً أو مغنية ناشئة إلا قيل إن هذه الأغنية من تلحينها أو من تلحين ، وكذلك رخص التلحين وأصبح ميسوراً لكل من شاء !

وعلى هذا تفتحت آذان ، وكذلك استدرجت اسم الموسيقى الغربية أهواء . ولا أرى الغربيين ، إذ يكتب عليهم أن يسمعوها إلا أشد تأذياً بها منا نحن المصريين !

تلحين رخيص ، وموسيقى رخيصة ، وفن رخيص . أما التلحين والتفجع في هذه التلاحين ، وأما التمتع وشيوع التخنيث ، فذلك ما نسأل الله السلامة منه للرجولة في هذه البلاد !

ولقد تقول للرجل من كبار الملحنين في ذلك ، فيجيبك في خجل عظيم : وماذا نصنع ، وهذه البضاعة هي الرائجة في سوق الغناء في هذه الأيام ؟ وكذلك جعل هؤلاء الملحنون أنفسهم يتبارون في هذا التشويه ، يحنون به عامدين على الفن وعلى الأذواق معاً ما دام القوت يأتي من هذه السبيل !

ولكى تدرك مبلغ رخص هذه التلاحين وهوانها ، لاحظ أنك لا ترى شيئاً منها يعيش حتى إلى اليوم الثاني ، وكيف لما ولد ميتاً أن يعيش ؟

أما الذين لا يزال هواهم إلى القديم ، فهم في برم دائم وملل لا يريم . فإن ما يسمعونه اليوم هو الذي سمعوه أمس ، وسمعوه من سنة خلت ، ومن عشر سنين مضت ؛ ومن شيوخهم من سمعه من ثلاثين وأربعين من السنين يتردد هذا الدهر الأطول على أسماعهم بنصه وفصه ، ولفظه وتلحينه ، وكل نبرة وتنغيمه فيه ، وكل ذرة للحلق على موقف من مواقفه ، وكل تكرشة تحتم بها كل فاصلة

من فواصله ، اللهم إلا ما يدخله عليه المغنون من الخطأ والتشويه !
 ليس هكذا ، أيها السادة ، يكون إحياء القديم . وليس بهذا
 التكرير الممل إلى حد الازعاج ترضون هوى أصحاب القديم إلى القديم .
 المراد بالقديم يأتيها المطابع أو الأسطوانات ، هو الفن المصري
 القديم ، الفن السلس السهل الذى يتفجر رجولة ويسيل طرباً ، والذى
 يتحدث إلى كبد المصرى فى غير عسر ولا حاجة إلى ترجمان ، فيحرك
 فيه من ألوان العواطف ما شاء الله أن يتحرك ، ويشير فيه من الأريحية
 ما شاء الله أن يثور .

هذا الفن الذى لا يفتأ يتطلع إلى التجديد الرفيق ، لا ينشر على
 الآذان ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيك بصنعة عبده وعثمان والمسلوب
 وأضرابهم ، عليهم رحمة الله أجمعين .

وبعد ، فالحق أننا الآن فى حال من البلبلة واضطراب الأذواق
 هى فى أشد الحاجة إلى مبعوث للموسيقى جديد . فليت شعرى هل
 يطول بعثته على الزمان ؟

بلاغة التلحين

كنا ، وما برحنا ، نشكو من هذه التطرية التي لحقت الغناء المصرى فى السنين الأخيرة ، بل لا غرو علىّ إذا قلت : عن شيوع التخنيث فى هذا الغناء ، لا نستثنى على ذلك نظم المقطوعات الغنائية ، فى بعض الأحيان ، ولا تلحينها ، فى كثير من الأحيان ، ولا أساليب أدائها فى أكثر الأحيان !

تسمع المغنى وكأنك تستمع إلى أنين عليل أو جريح ، أو حشرة محتضر ، إذا استثنيت الصرخة الأفرنجية الأخيرة التى لا بد من أن تحتم بها الأصوات فى هذه الأيام ، ولعلها الصرخة الأخيرة التى تشبه من المحتضر إيماضته الخمود !

ذل ، وتوجع ، وتميع ، وتسایل ، وتزایل ، واسترخاء لا يليق بامرأة فضلاً عن صدوره من الرجال !

ومن العجب العجيب ، أنك لا تجد أثراً مطلقاً لهذا التخنيث فى غناء مغنياتنا ، وأغنى مغنيات الطبقة الأولى ، على وجه خاص ، فإن غناءهن تشيع فيه القوة والرجولة ، اللهم إلا ما يستكرهن عليه بعض السادة الملحنين ! أما التميع والتزایل ، فأكثر ما تجده الآن فى أغانى الرجال . ومن أعجب العجب أن يكون صوت المغنى ،

بطبيعته قوياً شديداً الأسر ، فيأبى هو إلا أن يتكلف تطريته وإلآنته ،
 يحبس جوهرة فى الحلق ، وصوغ صوت له من سقف الحنك . ولا يذهب
 عنك أن الأصوات مما يمكن أن يصنع ويصاغ . وكذلك يتهيأ
 للمغنى أن يلين ويسترخى ويسيل . وإننى أؤكد لك ، يا سيدى
 القارىء ، أن أكثر من تسمع الآن ، من هذا الضرب من المغنين ،
 إنما يتنغمون بأصوات مستعارة ، لا بالأصوات الطبيعية التى تجرى
 فى الحلق !

وأرجوك ، ألا تعجل بلوم محطة الاذاعة ، ولا بلوم هؤلاء المغنين ؛
 فهم إنما يواتون نزوة تعتلج فى الصدور فى هذه السنين ، مع الأسف
 الشديد ، ولست أكتملك أننى ، من بضعة أسابيع ، سمعت نشيداً
 حماسياً ، جعل رئيس الجماعة يتكسر فى إنشاده ، ويتزائل فى إلقائه ،
 ويلين من صوته ، ما أسعدته القدرة على التلين ، حتى لقد ظننت
 فى أول الأمر أن هذا النشيد « الحماسى » إنما يغنى لحث الجند على
 الفرار ، لا لحثهم على الإقدام ، لولا ما فطنت إليه أخيراً من أنه
 لا يصلح لهذا أيضاً ، لأنه يرخى الجوانب ويخذل الشوق ، وهيهات
 لمنخذل الساق الفرار ! وكل هذا إنما يتكلفه المغنى مطاوعة لذلك
 الطائف الكريم .

وبعد ، فإذا كان هذا سائغاً فيما خلا من الزمن ، وهو غير سائغ
 فى أمة من الأمم ، فى أى زمن من الأزمان ، فانه على كل حال غير
 سائغ فى هذا الوقت الذى نستنفر فيه الشباب لحمل السلاح .
 ليس سائغاً ألبتة فى هذا الوقت الذى ندعو فيه الأمة شيها

وشبابها ، رجالها ونساءها وأطفالها إلى الحياة العسكرية التي لا تعرف ترفاً ولا ليناً ، حتى تستطيع أن تلقى الشدائد ، مهما يكن لونها ، بالصبر والقوة والعزم الحديد .

وأخيراً ، يظهر أن أولياء الغناء في مصر ، تفتنوا إلى أن هذا ، ولكن في الأناشيد الحماسية فحسب ، أمر سخيّف ملبخ . فماذا صنعوا ، يارعاك الله ، ليخرجوا أناشيد ترج النفوس رجاً ، وتستحمس الشباب أيما استحماس . ولا تذر في البلاد كلها فتى ولا شاباً ، ولا كهلاً ولا شيخاً إلا قذفت به إلى الميدان ، ليروى غلته إلى الضرب والطعان . ما يبالي أن يقع من الموت الزؤام ، أو أين يقع من الموت الزؤام ! أتدري ماذا صنعوا في سبيل إدراك هذا المطلب الجسام ؟ لقد شمروا عن سواعدهم ، وشدوا متونهم ، وقووا عزائمهم ، وحدوا أنيابهم أرأيت الليث وقد تهياً للوثاب ، أو « آخرنبق لينباع » كما يقول أئمة اللغويين ، وأطلقوا الحناجر بأصوات ترتب سكان المريخ ، لو كان في المريخ سكان !

وليت لي حظاً من البلاغة يهني لي أن أصف لك بعض هذه الأناشيد الحماسية ! ولكني عاجز أبليغ العجز عن أن أفعل . وكل ما أستطيع أن أصورها به لنفسى أن أذكر أيام كنا أطفالا ، وكانت العجائز يسلين عنا بفنون الأحاديث (الحواديت) ، حتى إذا انتهين إلى « أم الغولة » ونهوضها لافتراس العابر المسكين في جوف العلاة ، جوفن أصواتهن أشد التجويف ، وفخمن لفظهن أعظم التفخيم ، وقلن يحاكين زمزمتها ساعة قرمها واقتراسها : « هم أكلك منين ؟ »

وأرجو أن أكون بهذه الصورة قد أجدت التعبير عن أكثر هذه الأناشيد .

وصدقونى ، يا سادتى القراء ، إذا قلت لكم إن بعض هذه الأناشيد ، قد ألقى ذات يوم وأنا جالس ، وولدى الصغير بين يدى ، وهو الآن فى طريقه إلى الثانية عشرة ، حتى إذا فرغ المنشدون من نشيدهم الحماسى أقبل على وقال : « يعنى يا بابا متحمشات » ، وفى سينه وشينه لشغ . فأجبتة من فورى : « الحق علينا يا ابنى الى متحمسناش . يا لله بنا نتوكل على الله ونتحمس ! »

ما هذا أيها الأخوان الملحنون ، وما هذا أيها الأخوان المنشدون ؟ والله أبو الشاعر يقول :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل

وما هكذا يكون الاستحس ، ولا استنفار الشباب للقتال ، بل أنه لا شبه بما كان يدخل به الذعر على قلوب الأطفال فى سالف الأجيال .

وبعد ، فليست البلاغة مقصورة على فن الكلام ، بل إن لكل فن جميل بلاغة ، فلتصوير بلاغة ، وللموسيقى كذلك بلاغة . وهكذا . فاذا خلا الفن من هذه البلاغة ، خرج سميحاً مؤذياً ، أو سخيلاً بارداً ، كما هو الشأن فى الكلام الفسل الركيك ، الضعيف التأليف ، سواء بسواء .

وأنت بعد ، خير بأن البلاغة قوامها الذوق ورعاية المقام .
وهنا قد يقول قائل : إذا جاز لك أن تنكر من الملحنين تلك الأناشيد
الحماسية التي يشيع فيها الدين والاسترخاء ، فكيف لك بأفكار هذه
الأناشيد التي وصفتها بالقوة فيما تقدم من الكلام ؟

والواقع أن الأناشيد الحماسية كما تحتاج في لفظها إلى الجزالة ،
تحتاج في نظمها إلى المتانة ، وتحتاج أخيراً في تلحينها إلى القوة .
نعم تحتاج إلى القوة القوية ، فذلك هو الأشبه بأيام البأس ، والدعوة
إلى ملاقاته الأهوال . ولكن لعله ذهب عن ذلك القائل إن العنف
لم يكن على الدوام دليلاً على الشدة ، ولا كان الصراخ عنواناً لقوة
الأقوياء ! بل لقد يدل هذا وهذا على الضعف والخور في كثير من
الأحيان . وإن من يظن أن المعنى الشديد لا يؤدي إلا باللفظ الصاخب
العنيف ، وإن من يحسب أن الموسيقى الحماسية لا تصور إلا في التلحين
الصاخب العنيف ، فهو واقع في خطأ عظيم ولأضرب لناشئة المتأدبين
في هذا الباب مثلاً من أبلغ الأمثال : كلمة هادئة رقيقة وادعة ، قالها
رجل هادئ رقيق وادع . ولعله لم يبرعه في هذه الخلال أحد بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح أن هذا الرجل كان ممن
شك السل صدورهم ، فقد مر مبلغ حظ هذه الكلمة من الظرف والرقّة
واللين ، فليس أرق ولا ألين ولا أخف على الأذن من حديث مسلول
ومع هذا لو تفتنت ، فانك واجد لهذه الكلمة من الترجمة عن القوة
والسطوة والسلطان مالا يكاد يدانيها في ذلك كلام .

وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يزيد بن سفيان على جيش

إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلاً ، فتعاضم الأمر يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال له الصديق : ما أنا براكب وما أنت بنازل ! ثم أنشأ يقول : إن هي إلا خطي أحسبها لله وفي الله الخ . . .

لعلك استشعرت ما وراء هذه الكلمة الرقيقة الوداعة من سطوة وسلطان ، فاذا تعاضمك ، مع هذا ، أنها خلت حتى من صيغة الأمر والنهي ، فاعلم أن من أسباب قوتها وبأسها إذا لم يكن السبب الوحيد في قوتها وبأسها ، هو خلوها من ذاك ، وكذلك يخبر قائده إخباراً بأن إرادته قد مضت بما سيكون ، فليس له بتغيير الأمر يدان ! ونعود إلى القول بأن التدليل على القوة لا يحتاج ألينة إلى عنف ، ولا إلى صراخ واصطخاب . فمن لنا بذلك الملحن البليغ الذي يصوغ هذه الأناشيد في قوة تتنزه عن مثل هذا الصراخ الحقيقي بتخويف الصبيان ؟

من لنا بذلك الملحن البليغ الذي يصوغ لنا هذه الأناشيد في لحن قوى يشيع فيه الطرب ، وأقول الطرب ، لأنه شرط أساسي في مثل هذه الأناشيد . بالطرب مما يثير الأريحية ويدعو إلى الاقدام . ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن القوة والطرب ، كانا إلى وقت قريب ، هما الطابع المصري لما يصاغ من التلاحين في هذه البلاد ، كشأن التلاحين الشامية والتركية جميعاً !

وأخيراً فلست أشك في وجود الملحنين القادرين على هذا ، ولكن يظهر أنه قد جرفهم هم الآخريين هذا التيار مع الأسف العظيم .

فى السىاحة

أذاع حضرة صاحب العزة أحمد صديق بك مديـر مصلحة السىاحة فى مؤخرات الشهر الماضى حديثاً قيماً ، رعى فيه إلى حضـ المصريين على اتخاذ المصايف المصرية ، وإيثار بلادهم بالأموال الجليلة التى ينفقونها فى البلاد الأجنبية فى كل عام ، وقد قدر هذه الأموال بأربعة ملايين من الجنيهات !

وقد عرض فى حديثه لمنشأ هذه البدعة ، بدعة خروج المصريين إلى البلاد الأجنبية لسلخ ما يتهياً لكل منهم سلخه من أيام الصيف ، وعلى وجه الخصوص فى أوروبا ، ورد هذه البدعة التى استجالت عادة إلى أن مصر لما كانت داخلية فى ملك الدولة العثمانية ، كان من المتعين على الحكام وأصحاب الأخطار فى البلاد أن ينتجعوا ، الفينة بعد الفينة ، مشوى الخلافة للأغراض المختلفة . وإذ كان جو القسطنطينية لا يوائمهم فى الشتاء ، فكان من المعقول أن يحرروا فصل الصيف لهذه الهجرة ، فجوالآستانة فيه جميل ، وهواؤها عليل . وجرى من دون هؤلاء على سنة هؤلاء بحكم المحاكاة والتقليد . ثم تحولت دفعة المهاجرين شيئاً فشيئاً إلى بلاد الغرب ، حتى بلغت عدتهم عشرات الألوف فى كل عام ، وأصبح ما ينفقونه يعد بالملايين ،

وما أحوج بلادنا إلى هذه الأموال ، وخاصة في هذه السنين !
ولقد حمل الأستاذ صديق بك حملة صادقة على أولئك الذين
يهجرون بلادهم في مطلع كل صيف ، شادين الرحال إلى أوروبا في غير
حاجة تدعوهم إلى ذلك من طلب علم أو استقصاء بحث ، أو تحريك
تجارة ، أو إنماء صناعة ؛ أو غير ذلك مما يخرج الناس من ديارهم ،
ويضرب بهم في غيرها من بلاد الله .

وإننى أؤيد حضرته بكل ما أملك من يقين ، وأؤكد أننا إذا
استثنينا طلاب العلوم والفنون وبعض الأساتذة والأطباء ، لا نصيب
أكثر من واحد في كل مائة من هؤلاء الذين يطلبون أوروبا في كل عام ،
وهذا على أسخى تقدير . أقول لا نصيب أكثر من واحد في المائة
يضطره أى أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلى تلك البدعة التى تستهلك
هذه الأموال في كل عام .

أربعون ألف مصرى يطلب أكثرهم أوروبا في صيف كل عام .
إذا فتعالوا نتحاسب ، ولنكن في حسابنا حق صرحاء وحق صادقين .
كم مصرياً في العام يمشون إلى أوروبا ليستقصوا بحثاً يفتح في العلم
أو الفن فتحاً ، وينقض بعض القواعد المسلمة فيهما نقضاً ، ويطيرهم
العلماء في شرق الأرض وغربها كل مطير ! العفو !

ثم كم مصرياً من هؤلاء والأربعين ألفاً يطلبون أوروبا ليفتحوا
بين يدي التجارة المصرية أسواق الغرب ، فلا تلبث حتى تغزوها
غزواً ، وتدفع ما سواها من التجارات دفعاً ؟ العفو !

ثم كم مصرياً بين هؤلاء الأربعين ألفاً من يشخص إلى الغرب

لينقل عنه إلا بلاده أدق الصناعات وأفخمها بحيث لا تستغنى بصنع أيديها عما يرد إليها من الغرب والشرق فحسب ، بل لتغمر بهذه الصناعة الأسواق في غيرها من البلدان ؟ العفو أيضاً !

ثم كم مصرياً في أولئك الأربعين ألفاً من تعاصت علته على جمهرة الأطباء في مصر ، وطنيين وأجانب ، حتى حلفت الطبيعة بكل مؤثمة من الأيمان ، أن هذه العلة لا برد لها إلا في فيشى أو اكس لبيان ؟

حقاً ، لقد نجد بين هذه الجموع الكثيفة التي تتدفق على أوروبا في كل عام من تبعثه تجارته ، ومن تستدرجه الرغبة إلى تحسين صناعته ، ومن قد أثقلت العلة حتى تحير فيها طب الأطباء في هذه البلاد ، فلم يجدوا بداً من الإشارة على العليل بالشخص إلى الغرب ، حيث الطبيب الاختصاصي العالمي ، أو حيث الينبوع الذي عقد الشفاء بمائه ، ونحو ذلك . ولكن قل لى بعيشك : كم عدة جميع هؤلاء وأولئك من النازحين إلى الغرب في كل عام ؟ عشرة ! عشرون ! ثلاثون ! أربعون ! أى بحساب واحد في الألف لا واحد في المائة ، على ما قدرنا ، أسخياء ، في بعض هذا المقال !

أستغفر الله ! لقد فاتني أن أقدم السبب الرئيسي لهجرة هذا القدر الضخم من المصريين إلى الغرب في كل عام . وهذا السبب تطالعنا به الصحف السيارة في كل عام . وهل يقع لك عدد من جريدة في مصر طوال أشهر الصيف إلا قرأت فيه : « يبحر (فلان) إلى أوروبا

تبديلاً للهواء ، أو ترويحاً ، للنفس من عناء الأعمال . أو نحو ذلك مما يدخل فى باب الترفيه والاستجمام !

وليت شعرى هل تستحيل بلادنا فى الصيف فرناً تشوى فيه الوجوه شيئاً ، وتفرى الجنوب فرياً ؟ أليس فى بلادنا الطويلة جداً والتي يسلكها النيل من أولها لآخرها ، والتي تطل على بحرين لا بحر واحد — أليس فى هذه البلاد كلها متنفس فى الصيف ، ولا متفرج من وقدة حره ، ومتنبذ عن أذاه وضره ؟ وأخيراً ، أليس مصايقنا من وسائل التسلية واللهو ما يريح النفس ، ويهيئ الاستجمام ؟ بلى ! إن فيها هذا كله ، وفيها غيره من مطالب رواد الغرب فى كل عام ! إذاً فما سر هذا التجنى والبطر الجرى على البلاد وعلى مصاييف البلاد ؟

ودعنى أزعم لك ، أيها القاعد ، أن الكثرة الكثيرة من هؤلاء المهاجرين لا يطيب لهم العيش فى هذه الرحلات الغربية كما تتصور أنت ، وكما يصورون هم لك . بل إنى لأتقدم ، غير متزيد ولا غال ، فأزعم لك أن كثيراً منهم لا يجدون فيها إلا ضيقاً ورهقاً ، فان فى الغربية أولاً لضيقاً ، وإن فى تغيير أسباب المعيشة فجأة لعنتاً ورهقاً . وناهيك بازدياد أطمعة لم تألفها ، والاضطراب فى بيئات لم تعرفها ، والتزام عادات لا عهد لك بها ، وأخذك النفس بأمور لم يسبق لك علاجها ولا التمرين فيها ، وكيف بالمرء مع هذا إذا كان لا يحذق لغة القوم الذين يعيش فيهم ويضطرب بينهم ؟

وهذا إلى أهم بترك الوطن والبعد عن الأهل والولد وطول شغل

النفس باهمال العمل ، إذا كان المهاجر من أصحاب العمل ، وهذا وهذا إلى ما يجشم هذه الهجرة من ألوان النفقات ؛ وما تستخرج من جليل الأموال التي قد يستعان عليها بالاستدانة ، أو الانطواء في سبيلها على الضيق والعسر في سائر شهور العام !

ولقد يسقط الكثير من هؤلاء إلى باريس ، فباريس قبلة الكثرة من هؤلاء المهاجرين ، فيشوى في أحد فنادقها ، لا يغادره إلا إلى مقهى ، أو ملعب من الملاعب ، أو مباءة من مباءات العبث ، ويظل مضطربه بين هذه المواطن الثلاثة أو الأربعة طول مدة الإقامة هناك ، حتى يأذن الله في عودته ؛ ولقد يوالى الهجرة إلى باريس عشرين عاماً وهذا شأنه ، ما يرى من باريس غير ما رأى ، ولا يعرف عنها أكثر مما عرف . الفندق ، والمقهى ، والملعب ، وما عسى أن تنزلق إليه رجله من مباءات العبث . وليس وراء عبادان بلد !

وبعد ، فإذا طلبت حقيقة السبب في هجرة كثرة هؤلاء المهاجرين إلى الغرب ، على ما فيها من كثرة النفقة ، وعظم المشقة ، واحتمال ما وصفت لك من فنون الضيق والعنت ، فهو لا يعدو الرغبة في التكاثر والظهور بالأبهة والفخفة وتقليد المترفين من أصحاب الثراء . فالشخص إلى أوروبا أصبح عند هؤلاء بمثابة الرتب وألقاب الشرف ، ولولا بقية من حياء لطبع هؤلاء على رقاع الزيارة :

فهرس الفهرس

سافر إلى أوروبا

على أن في ترديد اسم أوروبا كما جلسوا إلى الناس ، ولما سافرت إلى أوروبا ، وسنة ما كنا في أوروبا ، وبيننا كنا في باريس الخ . . . مما تعي به الطاقة ، ما يغني في التعريف عن ألف بطاقة وبطاقة ! على أن مما نحمد الله عليه أنه على تضاعف عدد الذين يخرجون عن البلاد وازدياد عدتهم سنة بعد سنة ، فقد قل ، ولو في النسبة ، عدد الحكاين منهم .

وللحكاين من هؤلاء في الجيل الماضي عما رأوا في رحلاتهم إلى الآستانة ولبنان حديث يروق ويشوق . ولعلنا نطالع القراء بنماذج منه ، فهو حقيق بأن يسلي عنهم بعض التسلية ، ويرفه عليهم في وقدة الصيف بعض الترفيه . وإلى الملتقى إن شاء الله .

الحكاؤون

١

رجوت في غاية مقال « في السياحة » أن ألم بحديث الحكائين
من كانوا يطلبون البلاد الأجنبية إذا كان الصيف . ولعلك تذكر
أننى زعمت في ذلك المقال أن غريزة المحاكاة والتقليد كان لهما في تلك
البدعة الأثر البعيد .

كان الكبراء من رجال الحكم ومن على شاكلتهم يشدون الرحال
إلى الآستانة في مطالع الصيف وعلى رأسهم ولى الأمر نفسه . وجعلت
العدوى تسرى حتى أصلب أهل الطبقة الوسطى فمن دونهم . فمن عز
عليه السفر إلى الآستانة اكتفى بالشخص إلى الشام . وكانت كلمة الشام
تطلق في مصر على ما ندعوه الآن سوريا ، ولبنان ، وفلسطين الخ . . .
وكيفما كانت الحال ، فان السائح إذا عاد إلى مصر ، جلس
في داره أياماً للهناء ، وربما سبق أهله فزينوا باطن الدار وظاهرها
فرحاً بسلامة القدوم ، وترى الناس يقبلون عليه أفواجا ، يبدون له
فرحهم بعودته سالماً ، وغبطتهم له ، بظهور الغيب ، على ما رأى
وما شهد . ولا يلبثهم هو حتى يسأله عن شئ من ذلك ، بل إنه
ليعاجلهم بالحديث الطويل . وكلما أقبل فوج من الناس أعاد الحديث

وكرره ، وهكذا حتى تنقضى أيام الهناء ، إذ يخرج للقاء الناس فلا يضمه بهم مجلس ، بل لا يكاد يلوح له اثنان يتحاوران في شأن لها حتى يفسح لنفسه بينهما مجلساً ، ثم طفق يتحدث فيما رأى في رحلته وما شهد ، وما أكل وما شرب . ولقد تكون رحلته من يوم تحمله إلى يوم مهبطه مصر قد استهلكت ثلاثين يوماً فقط ، ولكنه مستهلك في الحديث عنها ثلاثين عاماً !

ولقد ضاق بهذا جماعة من أهل الأدب والظرف ، وبرموا به برماً شديداً . وكان على رأسهم المرحومان السيد محمد المويلحي بك ، والسيد محمد البابلي بك ، وغيرهما ممن لا يزالون في الحياة ، وصل الله في أعمارهم ، وأسبغ عليهم العافية ؛ ففقد والجماعة الحكّائين كل مرصد . وكلما تحركت في مجالسهم شفتا حكا ، راحوا يبوخونه ويتلقونه بالنكتة السكاوية من جميع أقطاره ، حتى يعصروه عصراً ، وما زالوا بجمهرة الحكّائين كذلك حتى أزعجهم عن هذه الخلّة ، وعقدوا ألسنتهم عن الخوض في هذا الحديث السمج المعاد ! فالفضل في كف هذا البلاء عن المجالس لهم ، جزاهم الله خير الجزاء !

والعجيب أن الحكاء من هؤلاء سواء تحدث عن اصطنبول أو الشام فانه قل أن يلم في حديثه الطويل العريض بالطبيعة ، وما آثرت تلك البلاد من فتنّة وجمال !

وقبل كل شيء ينبغى أن نفرق بين حكائي الشام وحكائي اصطنبول ، فالحديث عن كل منهما مختلف عن الآخر أشد الاختلاف . وسترى هذا من عرض الكلام .

الحكاهون

٢

اصطمبول — ١

وترى أننى خالفت الكتاتيين إلى رسمها بالصاد لا بالسين ؛ وذلك لأجارى منطق الناس كافة ، لثقل النطق بالطاء بعد السين الساكنة . ولقد يكتبونها فى بعض الأحيان « اسلامبول » فاذا نسبوا إليها (فى الكتابة لا فى النطق) كتبوا « الاسلامبولى » ، على أنهم إذا تكلموا قالوا : « رأيت سى محمد الاصطمبولى » ، وسافر سى حسين الاصطمبوللى الخ . . .

ومن أسماء هذا البلد القسطنطينية ، والآستانة ، وفروق (وهذه لا أعرفها إلا من شعر شوقى بك عليه رحمة الله) ؛ ودار السعادة على ألسن العرب و « دَرَّ سَعَادَتْ » على ألسن الترك والمتتر كين . وحقيق بمشوى الخلافة الاسلامية أن يكون كل هذه الأسماء . ولا تنس مشوى الخلافة الاسلامية فى عهد العباسيين ، فلقد كان من أسمائها : بغداد ، بغداد ، بغداد ، بغداد ، مدينة المنصور ، مدينة السلام الخ . . . ولقد قال المتقدمون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .

وبعد ، فلقد علمت أن كثيراً من المصريين كانوا يحجون في مطالع الصيف من كل عام إلى دار الخلافة ، ثم يعودون إذا عادوا ، فيحكون ، شأن رصفائهم من رواد بلاد الشام .

على أن الحديث ، كما قلت لك في المقال السابق ، مختلف بين الفريقين ، جد الاختلاف ؛ فانك قل أن تسمع من رواد اصطمبول حديث « البقلاوة » ، أو « البلنج ضلمة » أو « الامام بيلدى » ، وأرجو أن تفخم اللام في هذه بكل ما تستطيع من التفخيم .

إذاً لم تكن جمهرة أحاديث هؤلاء مما تتحلب له الشفاه ، ويتنزى على ذكره عصير المعد . بل لقد كان حديث « حكاïهم » في السياسة العليا ، وفي شوكة السلطان ، أو الخليفة ، أو « الياديشاه » وما له من قصور ، تزخر بالعين الحور ، وما تخرج يلدز للمقربين من موائد تعد في كل يوم بالآلاف ، تجمع كل واحدة منها عشرات الصحف ، الخ... أما جنود السلطان وفيالقهم ، وجيوشه وكتائبه ، فمما « لو رمى بواحدة منها مناكت الأرض لم تثبت على قدم ! »

وناهيك بما أصاب هؤلاء الرواد من متع دونها ما وصف به نعيم أهل الجنة . وناهيك بما وقفوا عليه من أسرار السياسة ، سياسة الباب العالى التى سيدين لها العالم ، وتحشر بين يديها دول الأرض فى قريب من الزمان !

وقبل أن أعرض عليك نماذج من أحاديث أولئك الحكاïين ، أرى لزماً أن أقرر أن عيش الحر فى تلك البلاد ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، لم يكن إليه سبيل بحال من الأحوال . وبحسب المرء

أن يرفع بصره إلى قصر من القصور السلطانية ، أو يحرك لسانه بكلمة واحدة في السياسة ، أو يذكر الجيش ، ولو بالخير ، أو ينطق باسم عبد الحميد يريد به أى إنسان كان يحسبه شئ من هذا ونحوه لتخطفه « الخفية » (١) خطف العقبان . وسرعان ما تلقى به في مطبق (٢) يظل يتخلىج في ظلامه الأيام الطوال ، حتى يأذن الله بطلعة المستنطق (٣) فإذا قضى أياماً آخر بين السنين والجيم وقف المسكين على مفترق الخطوط ، فاما إطلاق ، وهذا هو الفوز الأكبر ، وإما أسر بترك البلاد إذا لم يكن من أهلها ، وهذا هو الفوز نمرة ٢ ، وإما ترك له في السجن ونسيان ، حتى يأذن الله بالفرج بعد عام أو أعوام ، وإما نفى في بعض قواصى الولايات ، وإما إلقاء في البسفور ، حيث يفرح له في بطون الحيتان !

والعجب أن عثمانياً لم تطل خلافته كما طالت خلافة عبد الحميد . والأعجب أن استبداداً وعسفاً وتخريباً لم يقس في تلك المملكة كما قسا الاستبداد والعسف والتخريب في عهد عبد الحميد . ولم يخرج عنها من ولاياتها ولم يقتطع من أسلاكه كما خرج واقتطع في عهد عبد الحميد . وأعجب الأعجب ، بعد هذا كله أن جمهرة المصريين لم يحبوا أحداً

(١) البوليس السرى وكانوا يدعون رئيسهم « سرخفيت » ، ولما أعلنت الحرية في سنة ١٩٠٨ مرق الأهلون فهم باشا « السرخفيت » تمزيقاً ، وألقوا بلحمه مرعاً إلى الكلاب .

(٢) السجن تحت الأرض .

(٣) عند الاتراك : المحقق

كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء الحاد لانسان كما دانوا لعبد الحميد ، ولولا بقية تمسكهم من دين لعبدوه مع الله ، أو لعبدوه من دون الله ، والعياذ بالله ، وأستغفر الله العظيم !

وذلك الحب المتمكن من النفوس ، والمتغلغل في القلوب يرجع إلى أسباب لا محل لبسطها في هذا المقال . وكيفما كان الأمر ، فإن السلطان عبد الحميد لقد بلغ من نفوس المصريين على الخصوص ، موضع التقديس والتنزيه ، حتى إذا لاح في خاطر المرء لائح من الافكار لبعض حكمه وتصريفه ، أسرع فردده واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم !

ولم يكن أعوان السلطان على إدارة الشؤون وتصريف الأمور هم الوكلاء (الوزراء) ولا من دونهم ممن يشغلون عليا المناصب في الدولة . بل لقد كان رأى قسمة بين السيد أبى الهدى الصيادى (من مشايخ الطرق الصوفية) ، والشيخ ظافر (شرحه) وعزت باشا العابد . ولا أدري ماذا كان منصبه ، ولا تنس نفوذ الباشى مصاحب (الباشى أغا) أو كبير الخصيان فى قصر السلطان . أما آخر من يتحدث على أى أمر من الأمور ، أو يرجع إلى رأيه فى شأن من الشؤون فهو صاحب الفخامة الصدر الأعظم . وكان يتقدم بحكم البروتوكول على خديوى مصر فى تلك الأيام . ولهذا ظل المرحوم خليل رفعت باشا صدرأ أعظم فى أكثر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنه لم ينطق فى الشؤون العامة بكلمة واحدة !

وعلى الجملة ، فلقد أثمر هذا النظام كل ثمراته من إشاعة الدس

والكيد ، والسعاية والوقية ، والبطش والتنكيل ، وإهلاك أصحاب الكفريات أو إبعادهم ، وتقريب الجواسيس ^(١) ، وإطلاق أيديهم في أرزاق الناس وأعمارهم . وأضحت الرشوة هي السبيل إلى نيل الحقوق وإلى غصب الحقوق على السواء . وتبع ذلك ما ينبغي أن يتبعه من جذب العقول ، وفقر الجيوب ، وتقلص الأفكار ، وضمور الحريات ؛ وأسرع الفساد إلى جميع المرافق ، ولحق الخراب عامة البلاد ، ولم يبق عامراً في الدولة كلها إلا « الجيب الهاموني » الذي تعصر له الرعية عصرّاً كل صباح ومساء ، في ضرائب لا يتناولها الحصر ولا يدرّكها الإحصاء !

ولقد جرى الولاية في ولاياتهم على هذه الأساليب ، وكذلك المتصرفون في متصرفياتهم ، والسناجق في سناجقهم ، وسائر العمال في أعمالهم . وكيف لهم بالعيش إذا كانت وظائفهم وأرزاق من قبلهم من الجند تجبس عنهم الأشهر بل السنين ؟

وولى هذا ما يجب أن يليه من ضعف الدولة ووهنها ، وعجزها عن حماية أرضها ، وتمكين سلطانها في ملكها ، فجعلت ولايتها تنسلخ منها واحدة في إثر واحدة ، حتى بلغت عدة الولايات التي خرجت عن حكمها في عهد السلطان عبد الحميد وحده قرابة الثلاثين ! ومع هذا وهذا وذلك يأبى الحكّاءون إلا أن يشيدوا في المجالس

(١) قدم السيد جمال الدين الأفغانى من الآستانة ، ف قيل له كيف رايت ؟ قال : رأيت نصف القوم جاسوساً على النصف الآخر .

بما أصابوا في دار السعادة من المتاع وما تقلبت فيه أعطافهم من النعيم ، وما شهدوا من مجد الدولة وسلطانها ، وما اطلعوا عليه من أسباب قوتها وبأسها ، وما انتهى إلى علمهم من أسرار سياستها التي تعبي الأفكار وتعز على الأفهام ، وإن كانت ثمراتها الضخام ستجني بعد أعوام أو بعد أيام !

ولقد استهلكت هذه المقدمات التي لا بد منها القدر المقسوم لهذا المقال ، فلنرجى عرض نماذج الحكايتين الاصطعاليين إلى يوم آخر إن شاء الله .

الحكاهون

٣

اصطمبول — ٢

كان بائع غراييل يجول في الطريق هاتفاً بغراييله ، فدعا به رجل واستنزله حمله ، وسأله أن يحل وثاقه ، وينثر الغراييل بين يديه نثراً ، ففعل الرجل ، وجعل « الزبون » يعجمها واحداً بعد واحد ، ويطيل النظر في تفقدها ، ويكثر من جسها وغمزها ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، عاد إلى تفقدها وجسها وامتحانها ؛ وما زال يفعل ذلك ويكرره حتى استهلك فيه الساعات الطوال ، والرجل ينظر إليه في غيظ وحنق ، لما أضاع من وقته وامتن من سلعته ؛ حتى إذا انتهى اختياره إلى أصلبها خشباً ، وأجودها جلدًا ، وألحمها نسيجاً ، وأحكمها شداً ، قال له : بكم هذا الغربال يا شيخ ؟ فرأى الرجل أن يكفى كل هذا العناء بالاغلاء في الثمن ، فقال : بخمسة وعشرين قرشاً ! فقال له في دعة وفتور : بثلاثة قروش تعريفة ! فثار تائر الرجل ، وضرب الأرض باطار الغربال ، فوثب حتى صك ناصيته ، فأعاد الضربة بأشد مما ضرب فصك الغربال ناصيته بأشد مما صك ؛ وما برح الغيظ

يفعل به هذا ، والسابلة يجتمعون حوله من كل مذهب ليطالعوا هذا الشهيد العجب ، حتى شذخ الغربال رأسه ، وأسأل دمه ، فصاح فيهم : أيها الناس ! أمنتظرون أنتم حتى يقتلني هذا الغربال ؟ ولا أكتممكم ، يا معشر القراء ، أن هذا القلم كثيراً ما ينشر على ويجمع ، وتستصعب على سياسته وضبط عنانه . ولقد أسوقه في طريق فيخالفني إلى غيره . ولقد أرسم للمقال نهجاً محموداً ، فيأبى إلّا تعدى الحد والعدول إلى نهج آخر حتى ينتهى في بعض الأحيان إلى الغاية التي يبغيها هو ، لا الغاية التي أطلبها أنا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! ومن هذا البلاء الذي امتحنت به من هذا القلم الجامح المتمرد ، أننى بدأت مقال الحكّائين على أن يجرى كله لحال أو قصر في فنون من التسلية والتندر ، في هذا الحر وهذه الحرب ، خيبة الله عليهما جميعاً ، وإن كنت لا أتريد ولا أعدو الصدق أبداً . فاذا هو ينتظر لى بشبح عبد الحميد ، وحكم عبد الحميد ، وحكايات من كانوا ينتابون الآستانة في عهد عبد الحميد ثم إذا هو يمعن في هذا الطريق إمعاناً لم يدخل لى يوم بدأت الحديث في تقدير ولا تصوير !

والآن كيف الرجوع إلى النهج الذى بدأنا بسلوكه ، وكان ، بحمد الله ، بين الحدود واضح الأعلام ؟

كيف لنا بهذا وقد التوت السبل ، وغشت السياسة وجه الطريق بما هو أحد من الحسك ومن شوك القتاد ؟

أقترانا نستعدى على جماح هذا القلم جمهرة القراء ، كما استعدى النظارة على غرباله صاحب الغرايل ؟

أريد مفاكهة وتندراً ، ويأبى على القلم إلا خوضاً في ظلمات عبد الحميد ، وما كان يعاني من ظلمه رواد الأستانة من المصريين وغير المصريين ؟

اللهم إنه ليس من رأى التصدى لكبحه وهو في حمى ثورته ، بل رأى كل رأى في مجاراته وإلانة قياده ، وإظهار المطاوعة له ، حتى تفطر حديثه ، ويطامن من جماعه ؛ وحينئذ يتهاى صرف عنانه إلى وضع الطريق . وكذلك نمضى في المقال على اسم الله العلى العظيم .

ولقد حدثتك في المقال السابق عن بعض ما جرى من الحن على دولة الخلافة باستبداد عبد الحميد ، وظلم عبد الحميد ، حتى لقد انسلك عنها في ذلك العهد الأشأم قرابة ثلاثين ولاية ، وإن شئت قلت ثلاثين مملكة :

وقلت لك إن المصريين لم يحبوا أحداً كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء لأحد كما دانوا لعبد الحميد ، حتى لقد خالط حبه اللحم ولصق بالعظم ، وجرى في أعراقهم مجرى الدم . فلم تجر بسوء حكمه على الاسلام محنة ، إلا جعلوها موضع منة ، ولا دب إلى جسم الدولة بظلمه فساد إلا أحالوه على صلاح ؛ فاذا غم عليهم الأمر ولم يهدم إلى رأى طول التعسف في التأويل والتعليل ، أحالوا الأمر إلى الحكم التى تعلو على أفهام العباد !

وإن من الانصاف أن نقرر أن أشد الناس كانوا استحماساً في هذا الباب هم سلالة الترك المتمصرين . وكان زعيم هؤلاء جميعاً

شيخاً واسع الغنى يسكن فى بعض أطراف القاهرة ، ولا أسميه
ولا أعين مسكنه ، لكيلا أدل عليه . رحمه الله وغفر لنا وله .
كان هذا الرجل أو هذا الزعيم العظيم ، حين أدركناه ، فى حدود
السبعين . وكانت داره الواسعة مثابة القصاد ونجعة الرواد . يؤمها
فى كل ليلة جماعات الظماء إلى أخبار الباب العالى ، وما عسى أن يكون
قد أجد لدولة الاسلام من مفاخر ضخام !

فاذا كان عيد الجلوس السلطانى رصعت الدار بمصاييح تحطف
الأبصار ، ووشيت بأذكى الورود وأنضر الأزهار ، وصدحت الموسيقىات
بأحلى الأنعام ، وقرب للفقراء أشهى الطعام من لحوم الأنعام ، ووقف
البك بالباب يستقبل جماعات المهنيين الداعين لجلالة الخليفة بالبقاء على
السنين حتى يربى عمره على المثين ، وغنى فى الليل أعلام المغنين ، ونثرت
بدر الدراهم على جماهير المحتشدين ، من المعوزين وغير المعوزين !
وقلت إنه يقف بالباب فى تلقى الهناء من الوافدين ، وإنه ليكافئ
هناءهم بالشكر والدعاء ، كما يصنع أى امرئ فى أسباب مسراته
الخاصة وأمزاحه العائلية . وذلك لما يشعر به ، أو ما يريد أن يشعره
الناس من أن له سهماً ، ولو ضئيلاً ، من شؤون السلطان أو من
شؤون الدولة ، يهيئ له تقبل الهناء ، والأثابة عليه بالشكر والدعاء .
وكيف لا وقد كثر كل حبه وولائه وإخلاصه على الياديشاه ،
وهو عند الباب العالى مطلع الرأى وممتزل السر ، على الرغم من
بعد الديار ، وشط المزار !

ولا تظن أن هذا الرجل كان فى هذا الباب فذاً منقطع النظير

فى فتح داره لجماعات الاصطمباليين ، فلقد كان نظائره كثيرين . وإنما أفردناه بالذكر لأنه كان أكبرهم سنًا ، وأبعدهم شهرة ، وأوسعهم غنى ، وأقدرهم على الوصف وتفخيم التصوير .

وبعد ، فما يكاد يخيم الفسق حتى تحتشد دار صاحبنا ودور أشاله بالوافدين للاستخبار ، والاطلاع على ما أجد الباب العالى من جلائل الآثار !

واعلم أولاً أن كل شئ يجرى على الدولة لا بد وأن يكون برأى السلطان وتدييره ، ودهائه وجبروت حيلته ولو بدا لك فى هذا الأمر كارثة ، ورأيت منه مصيبة واقعة وبليّة لاحقة . وهل بعد قوة السلطان قوة ، أو وراء دهائه دهاء ؟

ولعمري ، ما جاءت البشرى بانسلاخ ولاية من تلك الولايات الثلاثين ، أو وقعت على الدولة بلية من إحدى الدول الغربية ، كما احتلت الجنود الفرنسية بعض جماركها أو تدعن لبعض المطالب ، ما حدث شئ من ذلك ونحوه ، إلا قال قائلهم : « دى سياسة اندم » ! فيزر صاحبه على إحدى عينيه ويهز رأسه ويقول : « دى سياسة كبير » فيصيح الثالث : « أمال أفندم — لازم يا ديشاه هو اللى عاوز كده . إذا كان هو مش عاوز ما كانش يحصل . إيش عرفنا إحنا ؟ دى سياسة فوق عقول ! »

وسرعان ما تشرق وجوه الجماعة ، ويتطارح الهناء وتتصافح الأيدي ، وتتضام الصدور إلى الصدور ، وتبسط الحدود لتحيات الثغور !

والآن وقد هدأت ثورة هذا القلم ، بما ناله من الجهد والتعب ، نستطيع بحمد الله ، أن نصرف عنايته إلى حيث نشاء ، فهلم إذاً إلى معاودة الحديث في الحكايتين والله المستعان : وإذا كنت سأقتصر على إيراد حكاية واحدة ، فلعلك واجد فيها أفخم وأضخم ، وأبلغ وأعظم ، من كل ما انبت وانبسط ، وشاع وذاع ، وملاأ الطباق ، وسطع في الآفاق ، على جميع ألسن الحكائين ، من يوم عبد الحميد إلى يوم الدين .

احتشد الجمع ، على العادة ، في دار صاحبنا ، وجعلوا يتناولون في أمر الدولة ، وعظمة الدولة ، وقوة جيوش الدولة ، وسياسة عبد الحميد ، وشدة دهائه ، وبعيد مراسيه الخ . . .

وبدا لبعض الحاضرين ، وكان مصرياً ، أن يسأل سؤالاً ، فيخاف وجبن . والسؤال لا غنى عنه ، ولا سفر من العلم بالجواب عليه ، فخط المسكين إلى الزعيم عنقه ، وقال : « ولكن بس ، بس ! » أما باقى الكلام فكان يضطرب في حنجرتة اضطراباً « لا يرتقى صدرأ عنها ولا يرد . » فقال له : « بس ماذا ؟ مالك لا تتكلم ؟ » فأعرض الرجل جفنيه ، وحد عزمه وقال ، وكان صوته هجس هاتف يحى من وراء الأفق : « بس مسألة الدونمة (١) ، يعنى أن الدولة ليست معتنية بالدونمة ! » وسرعان ما استلقى الزعيم على ظهره مقهقهاً وهو يقول في نبرات مليئة بالتهكم والاستهزاء : « نعم ! معك الحق .

(١) الأسطول وكذلك يدعوهُ الترك والمتركون .

إن الدولة لاتعنى بأمر الدونمة.» ثم اعتدل، وألبس وجهه ثوب الجد، وجعل يدير طرفه فى الحاضرين، وتراه يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ويرفع بصره إلى فوق وإلى تحت، وإلى قدام وإلى وراء. ثم قال: «فيكم من يكتم السر؟» فأجابوا جميعاً فى نفس واحد: «فى بير!»

«إذن فاسمعوا: لقد زرت المايين ذات يوم، وأبديت لفخامة الصدر الأعظم مثل هذه الملاحظة، فأظهر الموافقة لى، والندامة على تقصير الدولة فى أمر الدونمة، وغمز لى بعينه غمزة خفيت على جميع حاضرى المجلس. فلما هم الجميع بالانصراف، ضغط على يدى واستبقانى. حتى إذا خلا له وجهى، ولم يبق معنا أحد قال لى: «إذا انتصف الليل فامض إلى شارع كذا، فإذا بلغت الموضع الفلانى فخذ على يمينك فى أول شارع، ثم خذ على يسارك فى ثالث حارة، ثم عد ثلاث حارات وادخل فى الرابعة، وستلقى زقاقاً على يسارك، فاسلكه حتى تنتهى إلى خربة على يمينك. وستجد على مدخل هذه الخربة رجلاً شحاذاً رث الشياب، مقنع الوجه، نافعل ما يأمرك!» ومضيت فى الميعاد وإذا الشحاذ فى الانتظار، فما أن رآنى حتى أجال طرفه فى الأرض والسماء. ولما أمن عيون الأنس والجن، ودابة الأرض، وحقق الطير فى أوكارها، أسرع إلى زاوية فى الخربة، وظل يفحص عن الأرض إلى أن انكشف له غطاء من الحديد فرفعه، ودفعه إلى ما دونه، وتدلى ورائى. وأعاد الغطاء فوقه. وتدلينا فى سلم عددت له ١٢٧ درجة. ثم انتهينا إلى دهليز طويل، سلكنا

منه إلى دهليز آخر أعرض وأطول ، وما زلنا ننعطف من دهليز إلى آخر ، حتى أفضت بنا خاتمة السعى إلى فضاء يزيد على التسعين ألف فدان ، وقد ازدحم « بالورش والترسخانات » العظيمة الهائلة التي لا نظير لها في جميع الدنيا ، وإذا خلق من الناس لا يحصيهم إلا خالقهم .

« ويكشف الشحاذ النقاب عن وجهه فاذا هو صاحب الفخامة خليل رفعت باشا الصدر الأعظم بنفسه ! وإذا في هذا العالم ثلاثون مليوناً من الصنائع معهم نساؤهم وأولادهم (يولدوا أو يستولدوا) لا يرى أحد منهم صفحة السماء أبداً . وكلما أتموا بناء مدرعة ، أو نسافة أو (فرديت) ، أو خطاف (دردبود^(١)) من شباك البحر (لا من شاف ، ولا من سمع) . حتى يأتي اليوم المعلوم ، وحينئذ تخرج الدونمة للقضاء على أساطيل الدول جميعاً !

الله أكبر ! الله أكبر ! ما شاء الله ! ما شاء الله ! نصر الله السلطان ! آمين آمين !

وسلام على فلان بك في الحكائين ورحمة الله عليهم أجمعين .

(١) دردب : كلمة عامية تقابل في الفصحى : أزلق .

مع ذبابة

قال لى صاحبى فى مستهل حديثه ، ولقد رويت لقراء « الثقافة » أحاديث عن صاحبى هذا ، ولسكننى لم أقل لهم من هو ؟ ولا ما صفته ؟ ولم أكشف لهم عن أية خلة فيه ، ولم أشر إلى أى شئ يعطى القارئ ولو فكرة ضئيلة عنه ، حتى يحل أحاديثه من نفسه فى الزاوية التى تكافئها من التقدير . وفى الحق أننى ، فى هذا ، معذور ، فالرجل صديقى من عهد طويل ، وما نكاد نفترق إلا على نية لقاء . فليس من اليسير أن أهتف من صفته بما عسى أن يكره ، وكيفما كان الأمر ، فأننى أكتفى فى تقديمه اليوم ، بأنه رجل حاد الذكاء وحاد المزاج ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، سريع الخاطر ، حاضر الحكم على كل ما يسنح له من الأشياء ؛ وكثيراً ما يكون حكمه نقداً لا ذعاً تدفعه ثورة النفس . وأنه بهذه الخلال ليشقى الشقاء كله ، ويتعب صاحبه التعب أجمعه !

يغضبه ويثير أتعفه شئ يلحظه من الناس مما لا يبعث انتباهى ولا انتباهك ، ولو كان هذا الشئ مما لا يعنيه ولا يتصل به بأى حال . فاذا رأى مثلاً بائعاً من هؤلاء الباعة الجوالين يحلف لمساومه بأنه باعه بأقل مما اشترى ، ثارتأثره ، وجعل يرغبى ويزبد ، ويرثى

لحال الزمان من لؤم أبناء الزمان ! وإذا أصاب ثلاثة يقفون في غير حاجة ، على الطوار (الرصيف) فيعوقون السابلة ، وقد يلجمون بعضهم إلى التدلى في الشارع ، ليمضوا لطياتهم ، فيتعرضون بذلك لتلك الفواتك العابرة التي أصبح لا ينقطع لها في طرق القاهرة مرد ؛ رأيته يقف بهم فيلومهم ويبكتهم ، ويضرب لهم أبلغ الأمثال على سوء عملهم ، وقلة ذوقهم ، وفداحة جنائيتهم في وقفهم السمجة ، على من لا جنائية لهم من الناس ، غير مبال بما يلقي من مثل أولئك الأرذال ! على أنه ، مع هذا ، طيب القلب ، صافي النفس ، لا يحتاج في رده إلى الرضاء إلا إلى أيسر قدر من الاعتذار ، مهما يقع على شخصه هو من أسباب الاعنات والاغضاب ، وإن ليلة واحدة لكنيلة بأن تغسل صدره من كل ما أجن لأمريء من الحقد والاضطغان !

هذا صاحبي ، وبحسبك اليوم معرفة هذا القدر من خلاله . فلنمض في حديثه على اسم الله . زارني ذات يوم من أيام هذا الأسبوع ، فكان أول ما لحظته منه اطمئنان الوجه ، ووداعة النفس ، ورفق الحديث ؛ وهذه أشياء عهدى بها منه أقل من القليل .

وسأته عن حاله ، كما يسأل الصديق عن حال الصديق . فقال بعد أن حمد الله وأثنى على جليل فضله : لقد خضت عشية أمس ساعات ثقلاً جداً ، لقد غاظتني وأبرمتني ، وفرت نفسي ، وأطارت لبي ، حتى جازت بي أقصى حدود الصبر ، وعصفت بكل ما يقدر للمرء

من الاحتمال ، فقلت له : « شنشنة أعرفها من أخزم » ، ولكن قل لى : كيف كان ذلك ؟

قال : استويت للعشاء ، وكنت شديد الجوع ، ولى من الشهوة للطعام مالا أجده فى أكثر الأيام ، وطعامى كما تعلم ، قل وكثر ، إنما يوضع بين يدى جملة لأصيب من أى ألوانه أشاء فى أية لحظة أشاء . وما كدت أسمى الله وأحور يدى إلى الصحيفة بأول لقمة ، حتى رأيت ذباباً قد هوى إلى مهوى أصابعى من الصحيفة ، نذيبته ، فعاد لتوها إلى موضعه ، وجعل يلغ كما كان يلغ ، فعدت إلى زجره ، فعاد كذلك . فأدرت الصحيفة لأصيب مما لم يصب ، فسرعان ما دنب إلى حيث أرسل يدى ، وأقبل من فوره على شأنه ، ما دفع إلا رجع ، ولا زجر إلا عاد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرفع هذه الصحيفة الملوثة الموبوءة ، وأنجيها بعيداً وأقرب غيرها ، وعوضى على الله . على أنه لم يعفها ولم يعفنى ؛ فلقد هبط منها مهبطه من أختها ، فأدرت الطبق كذلك ، فدار معه حتى استقر منه فى منحدر يدى . وكان الغيظ قد بلغ فى قصارى قصاره ، فأهويت بكفى عليه لأقتله وأخلص من لؤمه وأذاه ، فتكسر الطبق شظايا ، وتناثر الطعام على الخوان ، وأصاب وجهى وثوبى منه رشاش ، أما الذباب فلم يكفه الافلات من هذه الضربة الساحقة ، بل لقد راح يمرع فى هذا الذى تطاير على الخوان ! فقامت عن المائدة وأنا أحلف بكل مؤثمة من الأيمان ألا أذوق فى ليلتى أى طعام !

أويت إلى فراشى ، أرجو بهجة خفيفة أن أستريح ولو من بعض

ما أجد . ولكن كيف لي بالنوم وقد قيل : « لا نوم لجائع » .
ولو دار الأمر على الجوع وحده لكان الخطب ، فان وراء الجوع نار
الغيظ وثورة الغضب ، وهذان وحدهما زعيان بنفى المنام الليالى الطوال .
وأفكر ، وفيم لعمرى أفكر إلا فى الذباب ، ولؤم الذباب ،
وتهافت الذباب ، وأذى الذباب ، وخطر الذباب ، وما يجلبه الذباب
من علل وأسقام ، وأرزاء جسام !

وجعلت فى مطرحى ، أسائل نفسى ، وقبل كل شئ أنبهك يا صديقى
إلى ما تعلم من أننى عظيم الايمان بالله تعالى ، وثيق الاعتقاد بظهر
الغيب فى بالغ حكمته فى كل جليل ودقيق من خلقه .

رحت أسائل نفسى : ترى ما حكمة الله الحكيم فى بث هذا
الذباب ، وهو على ما ترى لا يحمل إلا قذراً ، ولا يولى إلا أذى
وضرراً ؟ ولكم يهدم ، بفرط تهافته ، الأعصاب ، ويشيع مالا يحصى
من العلل والأوصاب ، ويبلغ وحده مالا تبلغ الحروب من أسباب
الدمار والخراب ، ومع هذا لم يظهر العلم له أية ثمرة ولو دقت ،
ولم يحل طول الزمان له منصفة ولو هانت . بل إنه لشركه ، وأذى
مستمر فى أوله وآخره ، وبلاء عظيم فى ظاهره وباطنه . لا يدع الانسان
فى لحظة من نهار ، فى اطمئنان ولا قرار . وكلما زاده عن وجهه أو يده ،
أو عن طعامه أو شرايه ، عاد من فوره ، فأثبت رجله حيث كانت ،
ما تنحرف قيد .! من الشعرة ، لا من وراء ولا من قدام ،
ولا ذات اليمين ولا ذات الشمال . بحيث لو استعان المرء بأدق الآلات
الهندسية والفلكية ما بلغ هذا المدى فى تحرير المكان . ولقد يبلغ

من شدة تهافته أن يقع في الطعام أو الشراب ، فاذا ترك وشأنه مات من الاختناق ؛ بل إنه ، على حدة حسه ، ليقع في فنجان القهوة ، وهي لم تزل تتنفس بالحر الشديد من البخار . وما أرى أنه خرج من هذه المنية الشنيعة بشيء إلا أنه أغشى نفسك ونغص عليك مزاجك ! وبعد ، فأنت خير بما يحمل هذا الطائر اللئيم من ملايين المكروبات ، لا تقتأ تفرخ أشد العلل وأفتك الأوباء في حين تعبي السلامة منه ، ويعجز الأمن من أذاه . فاذا زعمت أن من الفواتك ما يقتله ، فذاك بقدر ما تظل الأبواب والنوافذ محكمة الأغلاق ، حيث يغمر الغرفة ظلام ، ويدعو التنفس في جوها إلى الاختناق حتى إذا فتحت النوافذ والأبواب لتجديد الهواء دخل من الذباب أكثر مما خرج ، وتطايير منها في الغرفة أعظم مما هلك !

اللهم إن هذا بعض ما ابتلى الناس من الذباب من قديم الزمان أو من أول الزمان . فترى أيكشف العلم فيه مزية ، ويقع منه على منفعة تكفي هذا القدر الهائل من الضرّ والفساد ؟

وجعل الذهن ، برغمي ، يدور في هذا ملتصماً موطن الحكمة في هذا الخلق الضار الشديد ، وكلما طلبت التفرج بالفكر في شيء آخر ، رأيت الأمر يتعاصى عليّ ، فقد استغرق حديث الذباب كل تفكير ، وملك على الذهن جميع مذاهب التصور والتقدير !

وفيا أنا من ذلك ، إذ قرع مسمعى طنين ذباب ، ولكنه أشبه ما يكون ، في عنقه وقوته ، بهمهمة فهد أو بزئير أسد . فحولت وجهي وأرسلت بصرى ، فاذا ذباب في جرم الغراب ، ثم لم يرعني إلا أن

جعل ينتفخ وينتفش حتى صار مثل الديك الرومي ، ثم ما زال ينتفخ وينتفش حتى صار في حجم النعامة ، لولا أن جسمه كله كاس بالريش لا يعرى منه شيء ، ولولا أن رأسه موصول بما بين كتفيه لا يفصل بينهما عنق . فاذا حرك رأسه فمن أعلى إلى أسفل ثم من أسفل إلى أعلى ، كأنما وصل بين رأسه وكتفه بمفصلة ، ولولا أنه مزود في مقدم صدره بخراطيم على حين ليست للنعامة خراطيم .

ويقبل هذا الذباب الضخم على وهو يرفع رأسه ويخفضه ، فتداخلى من الذعر ما أزاغ البصر ، وكاد يخلع شعبة من شعب القلب . فبادرنى بقوله في لسان عربي صحيح : لن تراع ! لن تراع ! فان الشيطان إذا كان قد أزلق فكرك إلى هذا فانه ما زالت تعصمك قوة إيمانك . فقلت : الحمد لله رب العالمين . قال : فلو عملت بقول الله في كتابه الكريم . « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ! » فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . قال : والآن فاسمع يا هذا : ما أشد ذهابكم ، يا بنى آدم ، بأنفسكم وافتتانكم بعقولكم ، وتتايبكم بهذا القدر الضئيل الذى تعلمون من ظاهري الحياة الدنيا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . » تتساءل يا هذا فى حكمة الله ، جل مجده ، فى خلق الذباب وبشه ، وتنكر ما يلون للناس من الأذى فى صحتهم وفى حياتهم ، وقد ذهب عنك أيها الأبله ، أن هذا الذى تنكر من فعل الذبان ، هو بعض حكمة الحكيم فى خلق الذبان . فلقد تعلم أنه لولا شيوع الأمراض والعلل ، لما مات أكثر من يموت من الناس فى كل

يوم وفي كل ساعة ، وإذاً لاطردت الزيادة في عدتكم ، يا بني آدم ، حتى تضيق بكم مساحة الأرض ، ويعجز بطنها وسأمتها عن مواتاتكم بما يكفي لبعض طعامكم وكسوتكم . فلا مفر لكم من التناحر والتقاتل في التماس أسباب العيش ، حتى ليقتل الوالد ولده ، وتأكل الأم طفلها ، طوعاً لغريزة استبقاء الحياة . وكذلك لا يلبث العالم كله أن تسوده الفوضى وهي أهم عوامل الفناء . فالموت إذاً أيها الأبله ، هو أبلغ أسباب الحياة ! (١)

ثم إذا كنتم تنكرون ، أيها الأغفال ، ما ينشر الذباب فيكم من أسباب الأمراض والعلل ، وتتمنون على الحياة لو تعيشون الدهر في صحة وعافية ، فمن أين ، لعمري تعيش هذه الجيوش الجرارة من الأطباء والممرضين ، والممرضات ، وخدم العيادات والمستشفيات ، والصيادلة وعمال الصيدليات ، وأصحاب مصانع الأدوية والعاملين فيها ، ومنتجي المواد الأولية للعقاقير الطبية ، ومن وراء كل هؤلاء ممن يعملونهم ، ويعودون بهذا السعى على شملهم !

ثم لا تنس العاملين في أسباب الموت من « الحانوتية » والحلادين (التريبة) وباعة الأكفان ، وسواقى عربات الموت ، وغير أولئك

(١) رحم الله المتنبئ إذ يقول :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها

منعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملك سالب

وفارقها الماضي فراق سليب

مَنْ لَا يَصِيبُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَقْوَاتَ إِلَّا بِفَضْلِ الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ !
 وَسَكَتَ بَرَهَةً ، ثُمَّ قَالَ : أَفَأَمَنْتَ الْآنَ أَنْ ذَبَابًا وَاحِدًا أَجْدَى
 عَلَى الْعَالَمِ ، وَأَعُودَ بِالْخَيْرِ عَلَى نِظَامِهِ مِنْكَ وَمِنْ عَشْرَةِ مَنْ أَمْثَالِكَ ؟
 فَقُلْتُ : آمَنْتُ بِاللَّهِ .

ثُمَّ لَمْ يَرَعْنِي إِلَّا أَنْ أَرَى هَذَا الْخَلْقَ الْكَبِيرَ ، جَعَلَ يَصْغُرُ وَيَضْمُرُ ،
 حَتَّى عَادَ ذَبَابًا فِي جَرْمٍ سَائِرِ الذَّبَابِ ، ثُمَّ طَارَ فَوْقَ عَلَى رَمِيقٍ عَيْنِي ،
 وَجَعَلَ يَفْحَصُهُ بِرِجْلِهِ فَحَصًّا غَيْرَ رَقِيقٍ . وَمَا كَدْتُ أَتِيًّا لِلْقِيَامِ ،
 حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّنِي كُنْتُ فِي أَحْكَمِ الْأَحْلَامِ !

وَفَرَّغَ صَاحِبِي مِنْ حَدِيثِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِذَا فَقَدْ آمَنْتَ بِأَنَّكَ فِي
 هَذِهِ الْحَيَاةِ ، لَا تَسَاوِي ذَبَابًا ؟ قَالَ : وَلَا عَشْرَ ذَبَابٍ . وَكَذَلِكَ
 يَكْفِينِي اللَّهُ شَرُّورَ الْغُرُورِ وَالْإِفْتِتَانِ ، وَهُمَا أَشَدُّ مَهَالِكِ الْإِنْسَانِ .
 فَقُلْتُ : رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ .

عواطف

لم أعثر في معجمات ، ولا فيما وقع لي من تعبيرات المتقدمين ، أنهم كانوا يطلقون كلمة « عاطفة — عواطف » على ما يطلقها عليه أهل هذا العصر الحديث ، وأعني هذا الاطلاق العريض . فأصل العطف على وجه عام ، الالتفات . ومنه عطف إليه : مال ، وعطف الشيء : أماله وحناه . وتعطف عليه ، رق له وبره . وعطفت الناقة على ولدها : حنت ودر لبنها . ومن هذا المعنى ، فيما أظن ، جعلت هذه اللفظة تتسع في إطلاقها حتى أصبحت تدل على نوازع النفس وأهواء القلب جميعاً . وكذلك تتطور الألفاظ مع اطراد الزمان ، حتى تكاد تلابس ، في كل عصر ، معنى جديداً .

وإذا كانت لفظة « العواطف » تدل اليوم أكثر ما تدل على خواج القلوب ولواعج الكبود من هوى وصباية ، ووله لاحق ، وغمز على الحشا من عشق وتبريح غرام — فإن هذه العواطف كثيراً ما يكون لها مشوى آخر غير القلوب وغير الكبود !

نعم ، لقد يكون لها مشوى آخر ، وإن كانت جمهرة الناس لم تأبه له ولم تلتفت إليه ، على أن من هذه العواطف ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى وأجرف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

لقد يروعك مرأى عاشق أدنفه الحب ، وبرحت به الصباية ،
وقد هجره المحبوب قلبى أو تجنباً ، فبات المسكين يساهر النجم ، ولا يغمض
جفنه عن تصفح وجه البدر ، لعله يصيب فيه بعض الغناء عن وجه
الحبيب . ولعمري ما هو بمغن عنه شيئاً ، وإلا فما هذه الأنفاس
الحرى كأنما يتفرج بها من الحشا سكير بركان !

تشهد هذا المشهد ، فيخيل إليك أن هذا العاشق المسكين لا يرى
الوردة وقد تخرجت من كمها ، والترجسة وقد ضنت على ثدى أمها ،
والنسيم وقد تلطف ، والجدول فى الروض ، وقد تعطف ، والأرج وقد
شاع فى الجو وتردد . والهزار وقد شدا على الأيك وتغرد — اللهم إنه
لا يشهد شيئاً من ذلك إلا ذكر به الحبيب . بل إنه ليرى هذا كله
من بهاء الحبيب . ولولا أنه أعار الطبيعة كلها بعض جماله ما سطع
فيها بدر ، ولا تأرج زهر ، ولا ضحكت الورود على الأغصان ، ولا
صدحت الفواخت على الأفنان . كلا ! بل لشاه كل جميل ، ولاستحال
دبوراً هذا النسيم العليل ! بل إنه لا يرى الحياة كلها إلا جحياً
لا يطاق فيه العذاب ، ولا يرجى ، على الدهر ، منه ثواب .

لقد يروعك الأمر ، إذ تشهد هذه العواطف ، ويتعاطمك . وسرعان
ما تترثى للقلب وترثى للسكبد ، أو سرعان ما تغبط القلب والسكبد ،
إذ استأثرا من دون سائر الجوارح بجولان هذه العواطف التى تشقى
المرء كل هذا الشقاء ، وتسعده أحياناً بجميع ذلك الهناء !

وإننى أؤكد أن من ظن هذا فقد ضل ضللاً بعيداً !
ولقد أسلفت عليك أن هناك ألواناً من العواطف تشوى إلى غير

السكود وغير القلوب ، وأن منها ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو
أطغى على المرء وأجرف . وإني سلم اليوم منها بثلاث فحسب : أولها
عواطف البطن ، وثانيتهما عواطف الغرام بالدرجة ، وهذه مقصورة
علينا نحن معشر الموظفين الحكوميين دون سائر العالمين . أما ثالثها
فحب الشهرة وذهاب الصيت .

ولعلك تظن بي القصد إلى المزاح حين أزعم لك أن للبطن والدرجة
والشهرة عواطف تجيش وتترقق . بل إني لأزيد أنها قد تبلغ من
بعض الناس ما لم يبلغ غرام قيس بن الملوح بليله ، ولا هيام قيس
ابن ذريح في لبناء !

وأرجو ألا تظن أن هذا العاشق المهجور الذى طوى ليله وهو
يساهر النجم ، ويتصفح صفحة البدر ، يذكر به الحبيب ، ويتمنى
عليه اللقاء القريب ، بأشد حرقه ، ولا أعظم لوعة من هذا الذى
يتشهى الأكلة الشهية ، ويتمنى الوجبة الجنية . وإنه ليشتمل صينية
البطاطس ، وقد ديفت بالطاطم والبصل ، ورصعت بالشوم ترصيعاً .
أما ما جللت به من مزع اللحم السمين ، فجدير أن يزدرد بالشمال
ويا ليمين !

ولا تندس هذا الطاجن الذى حشى رزاً معالجاً بالزبد ، وقد دفن
الحمام السمين فيه دفناً ، وظل في القرن الهادى ساعات ، حتى
نضجت قشرته ، واحمرت بشرته !

وأما صفحة الكنافة فما أروع دلالها ، وأحلى وصالها ، خصوصاً
إذا فاقت سمناً وسكراً ، وحشيت زيباً وفستقاً وصنو برّاً ، وغشى وجهها

بالقشدة الخالصة . وما شاء الله ! وسبحان من أحسن وتفضل ،
والشكر لمن أنعم وتطول .

اللهم إن هذا العاشق الصب ليقضى ليله الأطول فى تمثّل هذا
وتمنيه ، وله من شدة اللوعة زفير ، أحمى من نار السعير .

ولقد يعمد فى هيامه إلى باب الخاتى وكبرى المطاعم ، فيجد
مايسطع من ريح القنار، أركى مما تجد أنت من النسيم جاز بالروضة المعطار !
أفليس هذا وأمثاله محبين عاشقين ، بل محبين واهين ، لا يفتأون

يشكون لوعة البطون ، كما يشكو غيرهم لوعة الكبود ؟

أما حب الدرجة وما أدراك ما الدرجة ! الله أكبر ! هل سمعت
بالسيل الجارف لا يصدده حد ، ولا يثبت بين يديه سد ؟ وهل سمعت

بالريح الصرصر العاتية ، تدمدم رائحة أو غادية ، فتمتلخ فى مغارسها
الأشجار، وتقتلع من مبانيها الأحجار، وتأتى على كل قائم بالخراب والدمار !

هو كل شغل القلب ، أستغفر الله ! بل إنه لحب قد استولى على

كل نوازع النفس ، وملك جميع أقطار الحس ، حتى لقد تقول للصب

المتيم ، لقد اشتد البرد يا فلان فى هذه الأيام ، فيجيبك من فوره :

يشاع أن « لجنة الترقيات » ستعقد فى صدر هذا الأسبوع المقبل !

ولقد تقول لمتيم آخر : ما أهول هذه الحرب وما أروع فظائعها .

فلا يكون جوابه إلا : أيجوز أن يرقى فلان إلى الدرجة الرابعة ولما يمض

عليه أكثر من خمس سنين فى الخامسة ، فى حين أننى سلخت

فيها ثمانياً ؟

ولقد تقول لأحد هؤلاء المتيمين الواهين على الدرجة إن فلاناً

رجل فكه خاضر البديهة ، حسن الحديث . فيكون رده : لقد رقي إلى الدرجة الثالثة في العام الماضي . وهكذا ! . . .

وماله لا تكون الدرجة كل شغله ، وماله لا يجعل في الدرجة حديثه أجمعه . أليست الدرجة هي عينه التي بها ينظر ، وأذنه التي بها يسمع ، ورجله التي بها يسعى ، ويده التي يعالج بها ما تعالج أيدي الناس ؟

ولقد يكون العاشق المدنف من أصحاب القلم ، أو من المنتحلين لصناعة القلم ، فلا يستحي ، إذا لاح له شبح الدرجات ، من أن يكتب للناس : هل أدلكم على أكبر أديب وأعلم عالم ؟ إنه والله للوزير القائم . ولقد عقدت إمارة البيان فأضحى ولا يتعلق بغباره فيها إنس ولا جان . وأما من يليه في هذه الأمارة ، فهو ، ولا ريب ، سعادة وكيل الوزارة ! وهكذا كلما انصرف وزير ووكيل ، وخلفهما وزير ووكيل ، ولو تصرم الجيل بعد الجيل !

ولعمري ، لو قد ذكر الله تعالى أحد هؤلاء بعض ذكره للدرجة ، لرقى في الآخرة درجة الصديقين ، وتبوأ مجلسه معهم في أعلى عليين !

وأما غرام الشهرة فشأنه أعجب وأغرب . وإن في هؤلاء المتيمين بالشهرة وذهاب الصيت لمن يرجو أن تعيد الحكومة شتى الجرمين في الميادين العامة ، حتى إذا عدم الوسيلة إلى بعد الصيت ، وسيرورة الذكر ادعى على نفسه جرماً لم يقترفه ، وقتلاً عمداً لم يجترحه ، ليحظى بالشنق على أعين الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال . ولهذا غرام الشهرة مذاهب وفنون لا يتسع للتصرف فيها هذا المقال . ولعل من أبدع وأروع ما قد رأينا في الماضي القريب ، أن

خلقاً من الخلق مغرمون متيمون بأن يشتهروا بالعلم والأدب ، في حين ليست لهم وسيلة إلى شهرة في العلم والأدب ، ولا ينعتهم أحد بعلم ولا أدب . إذاً فليزجوا إلى الصحف المقال بعد المقال لا يضمن شيئاً إلا تزكية أنفسهم ، والاشادة بفضلهم ، والهتاف بتفردهم بالأدب والبيان ، وبراعتهم في هذا كل إنسان !

على أنه أيضاً لم تظهر لهم شهرة ، ولم يسر لهم ذكر ، ولم ينعتهم بشيء منه أحد . إذاً فكيف الحيلة ، يا ناس ، في إطفاء هذه اللوعة ، وإيراد هذا الغرام ؟

لم يبق من سبيل إلى هواه إلا أن يهدم كل من يظن أنهم بسابقتهم وموضعهم من أهل الفضل والأدب ، يحولون بينه وبين مناه ، حتى يصبح وإياهم بدرجة سواء .

ولكن أنى له ذلك كذلك ، وليست له ساق يقوم عليها الهدم ولا لبناء ؟

يا سبحان الله ! وهل لا بد للتطاول من قدم وساق ؟ اللهم إن له في النباتات المتسلقة كاللوف والبلاب مثلاً جليلاً ، وإذاً فليتسلق على كل مرتفع عال من الناس . فاذا عدم الهدم ، لخدلان يده ، لم يعدم أن يؤذن بعلمه وفضله ، وأدبه وبيانه ، من هذا المرتفع السابق !

أصدقت يا سيدي القاري ، أن هناك عواطف ليس جماعها القلوب ولا الكبود ، وأن هناك غراماً غير ما يعهد الناس من الغرام له سكير أحمر من كل سكير وضرام ألذع من كل ضرام ؟

على ابراهيم في المرأة

لا شك أن المعروف عن جماعات الأطباء أنهم أهل إيثار وطيب نفس بالتضحية ، بالغة ما بلغت ، في سبيل الواجب . ولكنني أراهم اليوم قد ظهروا بأشد مظاهر الأثرة وحب الذات . فلقد أبوا إلا أن يستأثروا دون سائر الناس بالدعوة إلى تكريم الدكتور على باشا ابراهيم ! اللهم إن الطب من مزايا الدكتور على ابراهيم حقاً ، ولكنه ليس جميع مزاياه . فاذا كان للأطباء أن يحتفلوا به في يوم من السنين فإن من حق العلماء الموسرين من الثقافة الثنية الغالية أن يحتفلوا به أيضاً ، كذلك من حق نفده الفنون الجميلة أن يفرض لهم نصيب جليل في الاحتفال بزعم الناقدین . ولا تنسوا الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي ، واخوانهم المضطاعين باثارة النشاط الاقتصادي ، فإن هؤلاء وهؤلاء ينبغي أن يخصصوا بحظ من هذا التكريم كبير . وكذلك القول في العاملين على إشاعة البر والنجدة ، والاسراع إلى معونة الضعفاء العافين .

ولا ريب في أن ممن ظلموا بهذه الأثرة ظلماً بيناً أصحاب البداءة من أولاد النكتة النافذة ؛ فما كان ينبغي أن يحرموا كذلك الاشتراك في تكريم هذا الأستاذ العظيم !

وكيفما كان الأمر ، فانه إذا كان حضرات الأطباء قد أبوا إلا حباً للذات ، واستثثاراً بالدعوة إلى إقامة هذا الاحتفال ، فان الأعياد السبعينية والثمانينية وما يليها قادمة إن شاء الله ، وحينئذ تستطيع هذه الطوائف المحرومة المظلومة أن ترد لحضراتهم الجميل !

وبعد ، فلا ريب في أن من ترامت إلى علمه عبقریات الدكتور على ابراهيم ، وآثاره الضخام في الجراحة ، على وجه خاص ، ولم يكن قد رأى شخصه ، أو طالع اسمه ، لا يمكن أن يتصوره إلا عملاقاً ضخماً الجسم فارع الطول ، لا يحيط النظر بمساحته جملة ، ولكنه إنما يدركها بالتقسيط ولكن الله قادر على كل شيء ، قد أودع كل هذه الصروح الشمخرة من العبقریات في هذا الجسم اللطيف الدقيق :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وما شاء الله كان !

سيداتى ، سادتى :

لا تنتظروا منى أن أبسط القول في مواهب الدكتور على باشا ابراهيم ، فقد كفانى المؤونة في هذا حضرات الخطباء والشعراء الكرام . ولكننى أذكر حادثة واحدة تدل على مبلغ دقة هذا الرجل العظيم ، وحرصه الغريب على أداء الواجب على وجهه ، دون أن يفلته منه مقدار خردلة واحدة :

ذلكم بأننا من بضع سنين كنا في الإسكندرية . وفي ذات عشية تواعدنا على اللقاء في الساعة السادسة من صباح اليوم التالى لنسافر

معاً إلى القاهرة على طريق الصحراء ، ليدرك امتحان كلية الطب
وفي الوقت متسع كبير .

وسرنا ، على اسم الله ، في سيارته طبعاً . وفي صحبتنا نجله
الدكتوران العزيزان . وهنا لا أحد من ايراد هامش يسير من
هوامش هذه الرحلة . وذلك أنه اعترضنا في جهة الدخيلة منعرج كان
يعالج بالرصف لأن أرضه قد هشت وأعلن مجتازوه بوجوب تخفف
السيارات من راكبيها ، إلا أن يكون واحداً مثلاً ، حتى لا تسيخ
عجلاتها في الرمال . ونظر بعضنا إلى بعض وتبيناً للنزول . ولكن
الأسطى عبده كان ، على ما يظهر ، قد سبق إلى زنة الحمل ، فمضى
قدماً ولم يرعنا إلا أن يجوز بنا الرمل ، ولم تسكد العجلات ترسم فيها
أثراً !

ولقد حمدت الله على أنني كنت معهم . ولولا هذا لاستحالت
السيارة بالوناً وطلبوا القاهرة بطريق الجو الذي يفرع الدكتور
من ذكر اسمه ، كما أن لي الشرف بأن أشاطره الفزع من هذا الاسم
الكريم !

بلغنا بسلامة الله محطة شل ، فأفطرنا وأخذنا قسطاً من الراحة ،
ثم استأنفنا السير واندفعت السيارة في طريقها ، حتى إذا صرنا على
نحو ثلاثين كيلو متراً من مينا هاوس فوجئنا بما لم يدخل قط في
الحسبان . فلقد وقفت السيارة فجأة ، وأوماً الأسطى عبده إلى دخان
يتنفس به خزان الماء دليلاً على أن المروحة قد تعطلت . فجعل الماء
يغلي فيه غلياناً ، وتدلى فكشف الغطاء ، فاذا السير قد انقطع ،

فشمر للعلاج بوصله وسرعان ما استحال الدكتوران حسن وعلى ،
مرضين يسعفان الدكتور عبده بمطالبه فى إجراء هذه العملية . هذا
يناوله المخراز ، وهذا يشقف له السلك المثنى . ثم واصات السيارة
سيرها حتى إذا قطعت كيلومتراً أو بعضه توقفت ثانياً ، فوصلوا
السير من جديد ، ثم مضينا بضع مئات من الأمتار . ثم توقفت إذ
لم يبق فى السير فضل لوصل ولا التئام ، فجاءوا بحبل من تلك الحبال
التي شدت بها سلال الفاكهة ، وأقاموه مقام السير . ولكن لم تمض
السيارة طويلاً حتى استرخى الحبل ، وفتر عن إدارة المروحة . وتدلينا
كلنا أيضاً لمعالجة الأرض والتماس الحبل .

وقف الدكتور ووقفت بجانبه ، وإذا كان لى أن ألاحظ فى هذه
الوقفة شيئاً ، فذلكم أننى على طول عشارى للدكتور على باشا ابراهيم ،
فأننى لم أراه قط فى حالة عصبية كالحال التي كان فيها ذلك اليوم ، بل
أننى لم أكد أراه فى حالة عصبية مطلقاً .
سأكت لا ينبس بكلمة واحدة ، وإن كانت شفتاه دائماً الاختلاج
إذ يده لا تفتأ تخرج الساعة من جيبه ثم تسرع إلى ردها إليه ،
ثم تخرجها ثم تدسها . وكذلك ظلت هذه الحركة الميكانيكية السريعة
بغير توقف ولا لبث ولا فتور .

على أننى شككت فى أن يكون هذا النظر الشارد كان يفضى إلى
صاحبه بموضع العقرب من الساعات بل الدقائق ، وأذن الله وانطلقت
بنا السيارة بفضل بعض الحبل الميكانيكية التي أحمد الله على أننى
لا أعرف فيها شيئاً !

سيداتى ، سادتى :

إلى تلك الساعة ، كنت أعتقد أن الدكتور على باشا ابراهيم
 ذاهب ليشرّف على شأن الامتحان فى كلية الطب ، ويتفقد النظام ،
 حتى أقنعنى ذلك الموقف بأنه إنما كان ذاهباً لأداء الامتحان ، وأن
 أخشى ما كان يخشاه أن يفوته الميعاد المقسوم لحضور الطلاب ، فلا
 يؤذن له بالدخول ، فتفوت عليه سنة كاملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
 وانحدرنا إلى شارع الهرم ، حيث سيارات الأجرة لا يحصىها العدد ،
 ولا يقوى عليها العداد ، ولكن الكيادة التى أبت إلا أن تحزن فى
 جوف الصحراء ، أبت كذلك إلا أن تجمع فى الطريق العاسر المأهول
 حتى كاد السائق لا يستطيع لعنائها ضبطاً !

إذاً لقد ضمن صاحبنا أن يصل إلى طلبته فى الميعاد بل قبل الميعاد .
 ولكن لقد غشى الجميع وجوم شديد ، وثنوا رقابهم حتى توسدت
 الذقون الصدور !

وهنا لاح لخاطرى شبح مرعب مهول : فصاحى قادم على امتحان
 شاق عسير ، وكيف له بحسن الاجابة وهو على هذه الحال من ضيق
 الصدر ، وتكدر النفس ، وتفرق الفكر ؟ وبأى وجه تلقى مصر الأم
 إذا رSB ، لا قدر الله ، على باشا ابراهيم فى الامتحان ، وعلى الخصوص
 إذا لم يكن له ملحق يتعوض به ما فات ؟

إذاً ، فلا بد لهذه الحال من إسعاف ، أو من إنقاذ الموقف كما
 يقولون !

ويعيننى الله على أن أرفع رأسى ، وأنادى بقوة لم تعهد لمثلى :

يا باشا . فرفع رأسه ورفع ولداه رأسيهما وقال فى فتور : ماذا ؟ فقلت له فى حدة المغيظ المحقق : أوكد لك أننى لا أعود إلى ركوب سيارتك هذه إلا إذا جئتنى بشهادة حسن السير . . . والسلوك !
وسرى عنه ، وطابت نفسه ، وجعل يضحك أو يتضحك ، إلى أن افترقنا . . .

ولا أدرى إذا كان نجح فى ذلك الامتحان أو لم ينجح ، على أن مما يطمئننى على نجاح صديقى أننى أرى جمهرة الأطباء العظام ، وعصارة أهل الفضل وأرباب الأخطار فى البلاد يحتفلون اليوم ببلوغه الستين .

ومما يزيدنى اطمئناناً أن الاحتفال معقود فى صميم الجامعة المصرية لا بجوار كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية !
سيداتى ، سادتى :

إن الله الذى حبا مصر بهذا النيل ، ووهبها هذا الجو الصافى الجميل ، وأطلع شمسها على الدوام آفة وضية ، وجعل أرضها على طول الزمان ، منجبة سخية — لقد حباها كذلك بالدكتور على إبراهيم . وإذا كان الدكتور على باشا إبراهيم إنساناً كسائر الناس فانه إنسان مخلص خلود هذه النعم الظاهرة . فهو مخلص فى آثاره ، مخلص فى بنيه وتلاميذه ، ثم فى أبنائهم وتلاميذهم . وهكذا إن شاء الله ، إلى يوم الدين ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

ألقيت فى الاحتفال بالعيد الستينى .

أحب أولادى وأكرهم

١ - أحبهم

تدعونى « الهلال » إلى أن أنشئ فى هذا الموضوع مقالا ، كأن
لى فى أمر الولد شأنًا غير شأن الآباء جميعاً ، إذ شأنى فيه شأن الناس
جميعاً ، اللهم إلا أن تكون قد تفضلت فنصبتنى نائباً عن كل والد فى
الأرض ، من يوم كان الانسان إلى يوم يخلو وجه الأرض من هذا الانسان !
إذا كان الأمر هكذا ، فانى باسم من تشرفت بالنيابة عنهم أقول
إننى أحب أولادى أشد الحب ، وأعطف عليهم أبلغ العطف ، وأجد
لهم من الرقة والرحمة والحنان ما لا أجد لأحد فى العالمين . أحبهم لأننى
أحب نفسى ، وهم بعض نفسى ، بل إنهم عندى خير ما فى نفسى .
هم عصارة قلبى وحشاشة نفسى كبدى ، وأجمل ما يتفرق فى صدرى
من منى وآمال ، وأبهج ما يطوف برأسى من حلم وخيال ، وقد تجسد
كل أولئك أناسى تغدو على الأرض وتروح !

وإننى لأرى أولادى إذا حضروا ، وأذكرهم إذا غابوا ، فأجد
من اللذة والسعادة والمتاع ، ما لا تعد له كل ما فى هذه الدنيا من
لذة وسعادة ومتاع !

أحبهم لأننى أحب نفسى ، وأتمنى لو يكتب لها الخلود فى هذه

الدنيا ، وإذ كان الموت حقيقة لا مناص منها أبداً ، فأولادى هم
واصلو حياتى ، ومطيلو أجلى ، ومادو ذكرى ، والمثبتون ، على الزمان ،
لاسمى .

أحبهم لأنهم أول من يعيننى فى ضعفى ، ويسرع إلى الاستجابة
لى فى شدتى ، ويرفه عنى فى شيخوختى ، ويواسينى فى علتى ، ويتلقى
فى العزاء إذا هم القضاء بين الزفرة والبكاء .

أحبهم لأن اسمى ، من يوم أموت ، لا يرد على خاطر أحدهم ،
أو يجرى بسمعه على أى لسان ، إلا بادر فسأل الله لى الرحمة وإسكانى
أعلى الجنان .

وولد لى ولد ، وكان عندنا بواب أربت سنه على المائة ، فلما لقينى ،
وقد انتهى إليه الخبر كانت دعوته لى : « الله يبقيه حتى يحل عقدة
كفنك ! » ووالله ما دعى لى بدعوة كانت أبرد على كبدى ، ولا أحلى
موقعاً فى نفسى من هذه الدعوة . ويا ليتها قد أجيبت ، ولا حول ولا
قوة إلا بالله العلى العظيم !

ولقد قال بعض السابقين إن القرآن الكريم على كثرة ما أوصى
الولد بالوالدين ، وأمره بشدة البر بهما ، والعطف عليهما ، والطاعة
لها ، لم يوص الوالد بشئ من هذا للولد ولا مرة واحدة ، وذلك بأن
الوالد غير محتاج إلى هذه الوصية أبداً ، فالإنسان يحب ولده كما يحب
نفسه ، بل لقد يؤثره فى أكثر الأحيان ، على نفسه .

قال زيد بن على بن الحسين لابنه يحيى رضى الله عنهم : إن الله
لم يرضك لى فأوصاك بى ، ورضينى لك فلم يوصنى بك .

الوالد يسعى فى الحياة ويجهد ويكد ، ليستريح الولد ويسعد وينعم . وإذا ألت بالولد وعكة ، استحات فى قلب الوالد علة . وإذا ضربته العلة ، مات أبوه كل يوم عشرين موة ، ضارعاً إلى الله فى صدق وإخلاص أن يحول ما بولده إليه إذا لم يكن من الفدية مناص !

ولقد أرى الصغير صحيحاً معافى ، ما به أثر لجهد أو وعك ، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثر من حبه ، وعد نبضات عرقه . ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه ، فيمثل لى الشيطان اللئيم مكروهاً أصابه ، فأحس قلبى يتمشى فى صدرى .

وأخيراً ، فأننا معشر الناس ، مهما تصف نفوسنا ، وتطب قلوبنا ، ونترك من خلة الأثرة فينا ، ونرض أخلاقنا على وصاة الدين بأن نحب لآخواننا ما نحب لأنفسنا — إننا مهما نبلغ هذه المنزلة الرفيعة من الفضائل ، لا نستطيع أن نحب لغيرنا أكثر مما نحب لأنفسنا ، اللهم إلا أن يكون الولد . ومما يحسن أن يذكر فى هذا المقام أنه مما جاء فى القرآن الكريم ترغيباً فى الايمان وتحبيباً فيه إلى القلوب ، قول الله جل مجده :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلْتَنَاهُمْ (١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . » (٢)

وقال تعالى ذكره في الحُض على التقوى والتخويف من معصية الله ، والتحذير من مجانبة العدل والصواب :

« وَلِيَخْشَ الَّذِينَ كُوفُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . » (١)

وقد رأيت كيف أن الله تعالى في الآيتين الكرّيمتين قد رغب بمحبة الولد وأرهب ، وبغض بالخوف عليهم وحب .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ريح الولد من ريح الجنة » . وقال لأحد ابني بنته : « إنكم لتجننون ، وإنكم لتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الله » . وورد أنه حين جاءت به البشري بمولد فاطمة رضى الله عنها قال : « ريحانة أشمها ورزقها على الله » .

ودخل عمرو بن العاص على معاوية ، وبين يديه بنته عائشة ، فقال : « من هذه ؟ » فقال : « هذه تفاحة القلب . »

وقيل لبعضهم : « أى ولدك أحب إليك ؟ » فقال : « هما منى بمنزلة السمع والبصر ! »

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب ، فلامه الناس فيه فقال :

يديروني عن سالم وأديرهم وجملة بين العين والأنف سالم

(١) المراد بالقول السديد هنا هو ما ذهب إليه بعض المفسرين : مخالفة العدل والصواب . سورة النساء .

ومن أحسن ما قال الشعراء فى حب الولد ، قول أعرابى وهو
يرقص ولده :

أجبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا يريد بذله بداله

وقول أعرابية :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى بالبسند (١)

وقول أعشى سليم :

نفسى فداؤك من وافد إذا ما البيوت لبسن الجديد
كفيت الذى كنت أرجى لسه فصرت أباً لى وصرت الوليدا

وهذه الأبيات المنسوبة إلى حطان بن المعلى :

لولا بنيات كزغب القطا (٢) حططن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنتعت عيني من الغمض

(١) الخزامى بضم الخاء وفتح الميم : نبت زهرة من أطيب الازهار .

(٢) الزغب بضم الزاى وإسكان الغين ، جمع : أزغب وهو فرخ القطا . والقطا جمع قطاة طائر فى حجم الحمام .

وقول بعضهم :

لقد زاد الحياة إلى حباً
مخافة أن يرين البؤس بعدى
وأن يعرين إن كسى الجوارى
بناتى إنهن من الضعاف
وأن يشربن رنقاً^(١) بعد صاف
فتنبو العين عن كرم عجاف^(٢)

وأخيراً قول أعرابي يرثى ابنته :

يا شقة النفس إن النفس والهة
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى
حرى عليك ودمع العين منسجم
إلى الحمام فيبدي وجهها العدم^(٣)
تهده العيون إذا ما أودت الحرم

وبعد ، فهذا ما يملك قلبي من الترجمة عن بعض حب الولد ،
وإن مما يتدسى من العواطف في أطواء الجنان ما لا يستطيع أن يبلغه
القلم أو اللسان ! وذلك غير ما استعنت به من أقوال صدر من أعلام
البيان ، وعلى رأسهم سيد الأنام . عليه الصلاة والسلام .

ب - أكرههم

نعم ! وأكرههم بقدر ما أحبهم . أكرههم لأنهم لو لم يكونوا
ما جهدت هذا الجهد في السعى عليهم ، ولا تعنيت هذا العناء في

(١) الرنق الماء الكدر .

(٢) كرم : كريمات وصفا بالمصدر للمبالغة . عجاف : مهزولات .

(٣) يريد تعرضها من الفاقة لسؤال الناس .

تربيتهم والترفيه عنهم ، بلى لبقى لى فضل أتمتع به فى الحياة وأنعم .
أكرههم لأنهم لا يجزون ، من العطف على الرقة لى ، ولو بنسبة
واحد فى المائة من عطفى عليهم ورقى لهم .

أكرههم لأننى إن استنظرتهم لم يصبروا ، وإذا أتيتهم لم يشكروا .
أكرههم لأنهم قد يدفعوننى إلى سوء الخلق ، والتخيف من المروءة .
وحسبى فى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الولد مبخلة
بجبنه . »

أكرههم لما يحز من الآلام فى قلبى كلما شكوا أحدهم أو أملت به علة ،
فكيف بما هو أكثر من ذلك مما يطير اللب ، ويخلع شعب القلب ،
والعياذ بالله !

أكرههم لكثرة ما ألعب الذهن بطول التفكير فى حاضرهم ،
وما يغرى القلب من الاشفاق عليهم فى مستقبلهم .

أكرههم لأنهم كثيراً ما يتعذرون على نصحتى ، ويخالفوننى إلى
بعض ما أنهاهم عنه ، مما يؤذيهم ولا يجديهم ، ويضرهم ولا ينفعهم .
ويبادوننى بالغىظ والحق إذ أقمت لتأديبهم وبسط العقوبة الحق عليهم .

وبعد ، نأرجو إذا حققت النظر فيما قلت ، أن تستيقن أننى لا أكره
ولدى كل هذا الكره ، إلا لأننى أحبهم كل هذا الحب .

الشحاذون المودرن

قيل ، والعهدة على الراوى ، إن مركباً اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فجعلت تتقاذفه الأمواج ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغترف من ماء اللج ما يثقله ، حتى لم يشك السفر فى أنه ، لا محالة ، غارق بهم . فراحوا يعجون بالدعاء إلى الله تعالى ، ويسألونه النجاة من هذا الهلاك . وكان أشدهم اجتهداً فى الدعاء ، والضراعة والابتهال ، رجل يقول فى ابتهاله : يارب ، ماذا عسى لو هلكت أن يكون مصير زوجتى وأولادى السبعة ، وليس فيهم من يتكسب ، ولا من بلغ سن التكسب ؟ ثم ماذا عسى أن يكون مصير أختى المطلقة وولديها الصغيرين ؟ ثم من ذا الذى يعول أختى الأرملة وأولادها الأربعة ، وأنا أحمل الجميع ، لأنه ليس فيهم من يستطيع أن يعود على الشمل ولو بدرهم واحد ؟

أنا لاتعنينى الحياة ، ولكن كيف الحيلة بعد موتى ، فى كل هؤلاء ؟ وما برح يرفع الصوت بهذه الضراعات حتى كاد يشغل سائر السفر بشأنه عن شأنهم ، وحتى كادت تذوب كبودهم من الرقة لحال عياله ، وسائر من يعول من آله . ويشاء الله أن تهدأ الريح ، ويسكن الموج ، ويسكن وجه الماء ، وتبلغ السفينة الشاطىء بسلام .

وما كادت قدم هذا الرجل تطأ الأرض حتى صاح : « والله العظيم ، ما كانت لى قط زوجة ولا ولد ؛ ولا لى أخت أرملة ولا مطلقة ، وما علت أحداً فى الحياة غير نفسى » ، وخيبة الله على الجاهل الأحقق المأفون !

ولقد سبق لى من بضع سنين أن أجريت كلاماً فى الرديو ، فى الشحاذين التقليديين ، واستنظرت السامعين الحديث فى الشحاذين المحدثين (المودرن) .

وإذ كانت عدة هؤلاء تزداد فى هذه الأيام بنسبة هائلة ، وأساليبهم فى الكذبة تتنوع وتتلون ، فقد حق علينا أن نلم بحديثهم فى مقال .

على أننا قبل أن ندخل فى هذا ، نرى من الخير أيضاً أن نطوف ببعض القول فى الشحاذين التقليديين ، وقد كادوا ينقرضون ويخلو وجه المدن الكبيرة منهم ، حتى يخلو على الناشئ ، على وجه خاص ، صورتين واضحتين للعهدين ، يستطيع بهما المقارنة بين الفنين : القديم والحديث ؛ وليقدروا مبلغ التطور العظيم فى أسلوب الشحاذة . هذا التطور الذى أصبح يكافئ ، بحق ، سائر نهضاتنا العظام !

كان الشحاذون ، ولا زالت منهم بقية قليلة ، يعتمدون فى المسئلة على إلحاح الجوع ، والعجز عن السعى والعود على الشمل ، بألوان من الأمراض والأسقام ، والنقص فى الحلقة ، والآفات المفعدة للمرء عن السعى والحركة فى أسباب الرزق ، فكان دعاؤهم فى الطرق ، وعلى أبواب الأضرحة ، وفى الجبانات فى الجمع والمواسم من نحو :

اللقم تمنع النقم ! هنيئاً لك يا فاعل الخير ! عشا الغلابة عليك يارب !
سيد كريم أوست كريمة تحنّ على العاجز يا محسنين ! الخ . . .

ولا جدال في أن دعوى الجوع والعجز عن الرفق بالبدن في
سبيل الرزق ، تحتاج إلى اصطناع ما يثبتها من بلى الثوب وبلى الجسم .
وقد تعصب العينان لوشك ذهاب البصر بالرمد ، وقد يظهر النقص
في الحلقة بفقد الذراع الأيمن ، أو فقد أحد الساقين ، أو فقدهما جميعاً ،
فلا يسع الشحاذ المسكين إلا أن يزحف على الأرض زحفاً . فاذا
لم يكن المولى جلت قدرته قد من عليه بهذه النعمة ، أو تلك ، مضى
إلى رجل إخصائي كان مشواه في بولاق ، وكانوا يدعونه الربيط فاذا
كتب لك ، أو كتب عليك أن تجوز بدكانه في الصباح الباكر ،
رأيت خلقاً مزدحمين ببابه ، هذا يطلبه ليربط ساقه ربط العرج ،
أو ساقية ربطة الكساح ، وهذا ليشنى ذراعه حتى لا يشك رائيه في أنه
قد فقد الذراع . وهذا ليشد له بعض جسده ويرخي منه بعضاً ،
فهو ومن ضربه الفالج وأبطل نصفه بمنظر سواء . وهكذا !

وأنت خير بأنه إذا كانت الأسقام والعلل والنقص الطارئ على
الحلقة هي رأس مال هؤلاء القوم ، ووسيلتهم إلى الرزق ، بل إلى
الجمع والادخار ، وإحراز الغنى ، وإدراك اليسار ، قدرت مبلغ
تحاسدهم على العلل والآفات . حتى لتسمع من بعضهم إذا غبط آخر :
« اللي بلاه يبلينا يا سيدى ! » وتسمع من غيره وقد أخذته الموجدة
على غيره : « بيتكبر على إيه ، هو ما حدش انشل إلا هو ؟ آدر ربنا
يجرمه من الشلل في طرفة عين ، ويشمت فيه العدو ! »

هذا ، باختصار كان سبيل الشحاذين القدامى ، أو الشحاذين التقليديين ، وتلك كانت وسيلةهم فى فهمهم ، وسعيهم فى الرزق ولجمع المال . أما الآن ، وفى عصر النهضة ، فمن النادر جداً أن تسمع مثل : اللقم تمنع النقم الخ . . . ، أو تسمع : رغيى عيش وصحن طبيخ ! أو تسمع : عشا العاجز عليك يا رب . . . ومن النادر جداً أن تسمع مثل هذا أو ذلك . فاذا قدر لك أن تسمعه فى الأزقة والدروب التى لا تسلكها عين البوليس ، ولا تقع الأصوات منها لسمعه ، وإلا لكان ، لا سمح الله ، فى الملجأ الكافل الثوى والمأكل والملبس متسع للجميع !

وإذا كان شحاذو الأمس لا يظهرون إلا فى بلى الثوب وبلى الجسم ، فشحاذو اليوم لا يظهرون إلا فى نظارة الشباب ، وبضامة الأهاب ، وأناقة الثياب ، هم « ذوات » قد انحدرت النعمة عنهم . أو أنهم ما برحوا يتقبلون فى النعمة ، ولكن كرتهم من الطوارئ العاجلة ما أحوجهم إلى المعونة العاجلة . وأمثال هؤلاء لا يسألون رغيئاً ولا « صحن طبيخ » حاشا لله ! إنما يسألون نقوداً ، ونقوداً قد تكون فى بعض الأحيان كثيرة . وماذا لعمرى يجدى الرغيى على من هبط القاهرة من الاسكندرية مثلاً ، واستل الطرارون (النشالون) كيس نقوده . وماذا يغنى صحن الطبيخ من مات عنده ميت لا يجد ما يجهزه به ويحمله إلى مرقده فى مقبره ؟ وماذا ينفع هذا أو هذا فى إكمال قسط المدرسة وقد حل ، وأوشكت إدارتها أن تطرد الولد طرداً ، وتدعه عن طلب العلم دعاءً ؟ ثم ماذا يفيد هذا أو هذا فى معونة

مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالحبان ، ما تقتضيهم على التعليم والطعام قرشاً؟ وهكذا! . . .

وهؤلاء لا يلقون الناس ، بالضرورة ، في الثوب الخلق ، ولا بالوجه الشائه ، ولا بالجلد المتقيح ، بل إنه كلما عظمت أناقتهم ، وجمل سميتهم ، ونضر خلقهم ، كانوا أدنى إلى الصدق في المسئلة ، وأدر لعطف المسئول ، ولا يذهب عنك أنه قد ورد في الأثر : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

وهؤلاء كذلك لا يتسكعون في الأرتقة ، ولا يزحفون في الدروب ، لأن سكانها لا يحدون إلا باللحمة ، ولا يخرجون للكشكول السائل إلا فضالة الطعام . وذلك عهد قد مضى ، بحمد الله ، وانقضى ؛ بل لا تراهم إلا منخطرين في أغلى الشوارع وأحفلها بعيلة الناس . وكثرة هؤلاء لا يتعبون أنفسهم في طلب الزبائن والاختلاف إليهم في دورهم ، بل إنهم ليرتصدون لهم في المقاهى أو على لقم الطريق ، حتى إذا جاز الزبون بهم دعوه كما تدعوا بائع التفاح ، أو الخيار ، أو بائع الفجل ، أو غيرهم من هؤلاء الباعة المترققين بأبدانهم السريحة سواء بسواء !

ومن هؤلاء من يعترضك في الطريق ، ولا يستحي من أن يقول لك : « والله أنت ابن حلال لقد قضيت أكثر من ثلاثة أشهر في البحث عنك ، وهأنذا قد أصبتك ، والحمد لله ! » ثم يفضي إليك بالمسئلة . وثلاثة أشهر وهو يبحث عنك ولا يصيبك ، حتى أذنت المصادفة وحدها باللقاء ! ولا والله ما زاد على أن جعلك متشرداً ليس لك عمل ولا لك

محل إقامة . أو أنك فار من وجه العدالة ، أو أنك هارب من اللومان والعياذ بالله !

ولقد يقع أن يعتريك أحد هؤلاء الشحاذين «المودرن» فى دارك ، أو فى مشوى عملك ، أو فى المقهى ، إذا كنت ممن يثوون إلى المقاهى ، وقد بسط يده وفيها حفنة من الدراهم ، ويباديك بأن ما فى يده هو أقصى ما فى جهده من قسط المدرسة ، وأنت أبر وأكرم من أن تدع الولد يطرد من المدرسة ويحرم نعمة العلم فى شئ يسير لا يضرك ولا يتحيف مما أفاء الله عليك من النعم !

ومن أظرف ما سمعت ، والعهدة على الراوى ، أن هذا الشحاذ الغيران على تعليم ولده وتثقيفه قد لا تكون فى يده هذه المصيدة ، وأغنى بها المائة والخمسين قرشاً ، والمائة والسبعين التى تقتنص باقى القسط فيستعيرها من بعض رصفائه ، كما كان فساد أولاد البلد يستعرن من الجارة الغربال والمعجن (ماجور العجين) على أن يرد إلى أصحابه بعد قضاء الحاجة منه !

ولقد حدثنى من لا أشك فى خبره ، أنه كان ذات يوم ساعياً مجداً فى الطريق ، فلحمه رجل من هؤلاء يعرفه فركض خلفه حتى أدركه ، وحلف له بكل محرجة من الايمان أنه قد مضى عليه وزوجه وأولاده الخمسة ستة أيام ما ذاق أحد منهم لقمة واحدة ، فقطب صاحبي وجهه واصطنع الجد ، وقال فى حدة وعنف : اسمع يا هذا ! إننى إذا أطعمتك وأهلك وولدتك أكون أكبر مجرم فى العالم . فقال له الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : أنت تعلم أننى لن أعولكم أبد الدهر ، وكل ما يسعنى

هو أن أمدكم بضمن وجبة أو وجبتين . قال الرجل : ولسنا نطمع في أكثر من هذا . فقال صاحبي : أبعد أن عانيتم في طريق الموت جوعاً ما عانيتم ، حتى لم يبق بينكم وبينه إلا ساعات معدودة تبلغكم نهايتها الراحة الكبرى من هذه الحياة الأليمة ، أردكم إلى الحياة ثانياً لتعانوا في طريق الموت ما عانيتم ، وتعاودوا هذه الآلام التي جازت بكم ؟ أفصدقت أنني إن فعلت أكون أكبر مجرم في العالم !

ومن أعجب ما يذكر في هذا الباب ، أنه في إحدى العشايا من الأسبوع الماضي ، قد اعترضني في بعض الطريق رجل لا يخلو سمته من تجمل ، وثيابه من تألق ، وحلف لي بكل مؤثمة من الايمان ، أنه قد احتسب ولده في الصباح الباكر ، ولا يزال مسجى في البيت لأنه لم يجد نفقة تجهيزه ودفنه . وأسرع ، تأكيداً لقوله ، فدس في يدي ورقة ، فإذا هي ترخيص بدفن «فلان» ولم يرعني إلا أن تاريخ هذا الترخيص يرجع إلى أكثر من ستة أشهر !

حقاً لقد راعني وهالني ، وكاد يذيب كبدي أن تظل جنة هذا الغلام المسكين رهن البيت هذه المدة الطويلة . ومن يدري فعلها تظل كذلك مدة أطول ؟ وانطلقت لوجهي وأنا ألعن بلساني وقلبي قسوة هذا الانسان ، حتى على الأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وبعد ، فأننى الآن أستطيع ، بدورى ، أن أحلف في غير إثم

ولا حرج على أنه ما قدم قادم من الاسكندرية فاستل الطرارون
 كيس نقوده ، ولا كان ولد في المدرسة حل القسط من نفقات تعليمه ،
 ولا قامت مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالمجان أو بغير المجان ،
 ولا كان هناك زوجة ولا خمسة أولاد جياع أو غير جياع ، ولا ولد
 في الدار ميت ولا من الأحياء الخ . . . ؛ إن هى إلا شهوة التبطل
 والعيش ، وإصابة الذائد ، وإدخال المرح على النفس بفنون المكيفات
 وكل أولئك على حساب العاملين ، وقد يكون فيهم العليل المكدود ،
 وقد يكون فيهم من يعنيه ويرهقه السعى على الأهل والولد ، وقد
 يكون فيهم من يبجده المعروف بصللة المحتاج من ذوى القربى ، أو
 المسكين حقاً ، أو اليتيم المحروم !

فعلحكم ، أيها العاملون أن تضاعفوا السعى ، سهما يبجدهم السعى ،
 وأن تقبضوا أيديكم عن الانفاق على الأهل والولد ، وألا تبسطوها
 للمحتاجين من ذوى القربى أو تمدوها بالمعروف لليتيم المحروم . وإن
 كل ما تجمعونه بالسعى والسكد ، ينبغى أن تحفظوه فى أيديكم عامة
 نهاركم وصدرأ من ليلكم ، حتى إذا أوقعت المصادفة على أحدكم عين
 شرخ من هؤلاء المتبطلين أسرع فدفعه إليه غير مأجور ولا مشكور !

الكذب الفنى

لا شك فى أن الكذب يعد من الرذائل فى كل زمان وفى كل مكان بل لا شك فى أنه من أخبت الرذائل جميعاً ، بل لا غرو على من يذهب إلى أنه أخبت الرذائل جميعاً .

أست أسوق هذا الحديث درساً فى الأخلاق ، فأشرح مزايا الصدق ومحاسنه ، وأورد مقابح الكذب ومآثمه ، فذلك أمر مفروغ منه من الأزمان الطوال .

وإنما أريد أن أتحدث فى هذا حديثاً يسيراً لعله يجدى فيما قصدت إليه بانشاء هذا المقال .

وبعد ، فأنت خير بأن من يأخذ نفسه بفضيلة الصدق ويطلع عليها لسانه ، نراه ، يتأثم من مقارفة الكثير من الرذائل ، ويتخرج من إتيان ما يعيب الرجل المربى : ذلك لأنه يخشى إن هو سئل ، الوقوع بين أمرين خيرهما شر ، وأحلاهما مر ، وهما التورط فى الكذب ، وقد علم أنه رذيلة الرذائل ، وإما الصدق الذى يكشف من أمره ما لا يجب أن يصله الناس به ويعهدوه عليه .

أما من راض نفسه على الكذب ، وأسلم زمام لسانه لهذه الرذيلة ، فهذا ، ولا ريب ، من وطن نفسه على مقارفة ما يشاء من المقابح ،

ومعاطاة كل ما يلذه من المآثم ، مستمداً الخلاص من الكذب ، وهو في ظنه لا ينضب معينه ولا ينفد مدده ، غافلاً عن أن جعل الكذب ، كما قبل ، قصير ، وأنه بحسب المرء أن تحصي عليه كذبة ، ثم كذبة ، ليتمثل دائماً للناس كذاباً لا يصدق أبداً ، ولو صدق ، ولا ينطق الحق مطلقاً وإن نطق !

وهذا من الجهة الفردية . أما من جهة المجموع ، فالأمر أجل وأخطر . وأرجو أن تستحضر في ذهنك الآن قضية مسلمة سهلة واضحة وهي أن نظام الجماعات كله قائم على صحة النقل ، وفرض صحته ، سواء أكان المتحدث مترجماً عما في نفسه أم راوياً عن غيره . على هذا يدور نظام الجماعات في كل زمان وفي كل مكان ، إذ أن الأصل أن يصدق المتكلم ، كما أن الأصل أن يصدق السامع ، وعلى هذا الأساس تجرى المعاملات بين الناس في مختلف الأسباب . وكذلك ينتظم شأن الجماعة ، ويقوم التعاون بين الأفراد على الاضطلاع بأعباء الحياة ، بحيث تنتظم منها وحدة يكون الأفراد منها بمنزلة الأعضاء من جسم الانسان .

ولنقدر أن جماعة شاع فيها الكذب ، وقل فيها الصدق ومطابقة الاخبار للواقع ، فإن مما يلزم هذا ويتبعه فوراً أن يسود التكذيب الجماعة ، فلا يصدق أحد أحداً أو لا يكاد يصدقه ويركن إليه قوله . فلنعمرى ، ماذا يكون شأن الجماعة في هذه الحال ؟ وكيف ينهض الناس بالأعمال المشتركة ، وكيف يتم التعاون بين الأفراد ، والحياة الاجتماعية ، كما تعرف ، إنما هي تعامل وتبادل وتقارض . ومدار

هذا كله الثقة العامة ، فاذا فقدت هذه الثقة ، والعياذ بالله ، انهدم كيان الجماعة ، وأصبح بنيانها الشاهق ، أنقاضاً على أنقاض !

هذا والكذب على قبحه قد يساغ في بعض المواطن إذا دعت إليه ضرورة . والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات . وشأنه في هذا شأن غيره ، فان الضرر الكثير لا يخلو من نفع قليل ، والشر الكبير لا يخلو من خير صغير . بل لقد يكون الكذب محموداً في بعض الأحيان .

ومن المواضع التي يسوغ فيها الكذب ، الكذب على الصغير ، إذا لم يكن من ذلك بد لتسكين ثورة نفسه ، والترفيه عنه ، وإدخال السرور عليه . ومن تلك المواضع الكذب للإصلاح بين الزوجين أو بين الصديقين ، على ألا ينجم عن ذلك ضرر .

ومن المواضع التي يحمد فيها الكذب ، بل التي ينبغي فيها اتخاذها وتعمده والاحاح فيه ، الكذب في مكائد الحروب وخدعها ، فان الصديق في هذا ، حيث يستغله العدو ويسلك منه إلى الظفر ، مما يلحق بالخيانة والاجرام . على أن من الناس من لا يأذنون لأستهم بالكذب مهما يكن الأمر ، ولقد يعوزون ، في مثل هذه المقامات بالتوريات . وقد قيل : في المعاريض مندوحة .

وعلى الجملة ، فاننا نستطيع أن نشبه الكذب بالسهم ، فانه إذا كان في طبيعته القتل والفتك ، فلقد ينتفع بقليله في شفاء العليل وإبراء الأسقام في بعض الأحوال !

وبعد ، فانما يجر الناس إلى الكذب أسباب شتى ، كما تختلف صور

الكذب نفسه باختلاف طبائع الكذابين . ومن أهم ما يدعو إلى الكذب ، وفى الصغار على وجه خاص ، الخوف والتخلص من المسؤوليات . ومن أهم ما يدعو إليه فيمن ارتفعت بهم السن ، على وجه خاص أيضاً ، حب الظهور بألوان البطولات الزائفة لا ينفق فى سبيلها شئ من جهد أو مال ، أو استهداف لخطر ، أو تعرض لأذى من أى نوع كان ، وقد يدعو إلى ذلك حب التجمل للناس ، واستئلافهم والظهور بالاسراع إلى قضاء حوائجهم .

وكيفما كان الأمر ، فإن الكذب كثيراً ما يضحى غريزة وجبلة ، يعتمد إليه من ابتلى به فى غير ما رغبة ، ولا رهبة ، ويصطنعه فى غير ابتغاء منفعة أو دفع مضرة . بل لقد يعقل هذا وهو يعلم أنه يضره ولا ينفعه . وإذا عرفت عرفت غلبة العادة التى تضعف بالطبع واتصلت بالغريزة ، عرفت أن مثل هذا مجبور ما له فى الأمر خيار ! وبعد ، فالحديث فى الكذب وقبحه ، والكذبة وإثمهم ، شئ يطول فى غير طائل ، وما للكذب المعتاد ، أعنى مجرد رواية غير الواقع ، سقنا هذا الحديث ، وإنما سقناه لغرض آخر جليل ، يستحق أن يقابل به مطلع إبريل !

وأرجو أن تعلم أن من الكذب كذباً فنياً ، وإننى أعنى هذه الكلمة بكل ما تحمل من معنى ، بل إننى لأضفى إلى أبعد من هذا فأقرر أن هذا « الكذب الفنى » مما يمكن أن يضاف ، بحق ، إلى طائفة الفنون الجميلة ، ويوضع فى صفها ، وينظم فى سلكها ، إذ لا نجده يقصر عما يعطيك النحت أو التصوير أو الموسيقى من الألس

واستراحة النفس ، وما تشير فيك ، فى بعض الأحيان من الطرب ، وما تبعث من الأريحية ، بل ما تذكى من حسك ، وتنغذ من فطنتك . نعم ؛ هذا اللون من الكذب له فن جميل ، له كل ما للفنون الجميلة من رائع الأثر ، وبالع الخضر ! هو فن جميل لا يجيده ولا يبرع فيه إلا من رزق الطبع وأوقى الموهبة ، فاذا تكلفه من لم يؤت ذلك خرج سمجاً بارداً ثقيلاً كشأن سائر الفنون الجميلة فى هذا ، سواء بسواء .

وأول ما يبنى عليه هذا الفن أن الاختلاق والتزويد فيه لا يضر بشئ ولا يؤذى أحداً ، على أنه بالغ الغاية من الإعجاب والإعطاف والاضحاك . ولعل من مميزاته الواضحة أنه لا يحاول قهرك على التسليم بأنه أمر واقع لا ريب فيه ، بل إنه ليعرض نفسه عليك عرضاً بسيطاً ، وقد يتكى فى معرضه على يمين متجلجلة متخلخلة ، ولك فى النهاية حكمك فى الرد أو فى القبول .

وهذا الكذب الفنى ليس ابن اليوم ، ولا ابن الأمس القريب ، بل إنه قائم معروف ، وأصحابه المبرزون فيه معروفون كذلك من الزمان البعيد . ومن ذا الذى ينكر أباحية التمرى مثلاً أو ينكر فنه العظيم . ومن ذا الذى يزعم أن صنعة هذا الرجل مما يستطيع أن يتكلفه من شاء من العالمين ؟

أليس من التحف الفنية الجميلة قوله يحدث عن نفسه : سنج لى ذات يوم غزال فرميته بسهم ، فتيا من الغزال فتيا من السهم وراءه ، فتياسر الغزال فتياسر السهم وراءه . وما زال ، فى عدوه ، يراوغ

السهم بالتيامن مرة وبالتياسر أخرى ؛ والسهم يلاحقه كذلك ، حتى أدركه ببعض الجبانات فصرعه !

ولا شك أن من القطع الفنية الرائعة ما حدث به هذا أبو حية قال : عن لي ظبي فرسيته بسهم ، فانطلق الظبي وانطلق السهم وراه ، ثم ذكرت بهذا الظبي حبيبة لي فعدوت وراء السهم حتى قبضت عليه قبل أن يبلغه !

وإذا كانت حكاية القزان والكرنية أو السمكة لا يزال لها رونق في بعض الأسفار ، فاعلم أن هذا المعنى مسبوق من العصر القديم . قال الأصمعي : قال الخليل بن سهل : أعلمت أن أطول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت (١) في غلظ الراقود (٢) فقلت ها هنا أعرابي له معرفة ، فاذهب بنا إليه فحدثه بهذا . فذهبت به إلى الأعرابي فحدثه . فقال الأعرابي : قد سمعت بذلك ، وبلغنا أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية ، فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمه ، فقالت لها : ما شأنكما ؟ فقالوا : بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه ، فانتبه فزعاً من كلامهما ، فنفخهما ، فألقاهما إلى أصبهان ، فقبرهما اليوم بها . فقال الخليل : قبحك الله ما أكذبتك ! قال : يا بن أخي ما بيننا من شيء إلا وهو دون الراقود !

(١) مصمت : لا جوف له . أو كما تقول العامة : صلب .

(٢) الراقود : الدن الكبير (برميل) .

وما أبدع روائع النفاجين (١) ، ما روى أن عاملاً فى روسيا فى مصنع لتقديد اللحم ، لقي فرنسياً يعمل فى بلاده فى مثل هذا المصنع . فجعل كل منهما يكاثراً بمصنعه ، ويهتف بعظمته وقوة آلاته حتى قال الروسى : إن مصنعنا تساق إليه قطعان الخنازير من هذه الناحية ، فلا تلبث بضع ثوان حتى تخرج من الناحية الأخرى لحوماً مقددة مصففة فى العلب ، عليها اسم المصنع وشعاره !

فقال الفرنسى : وما هذا ؟ فان مصنعنا ليزيد على ذلك بأنه إذا خرج بعض العلب فاسداً ردت ثانياً فخرجت من الناحية الأولى خنزيراً حياً سوياً !

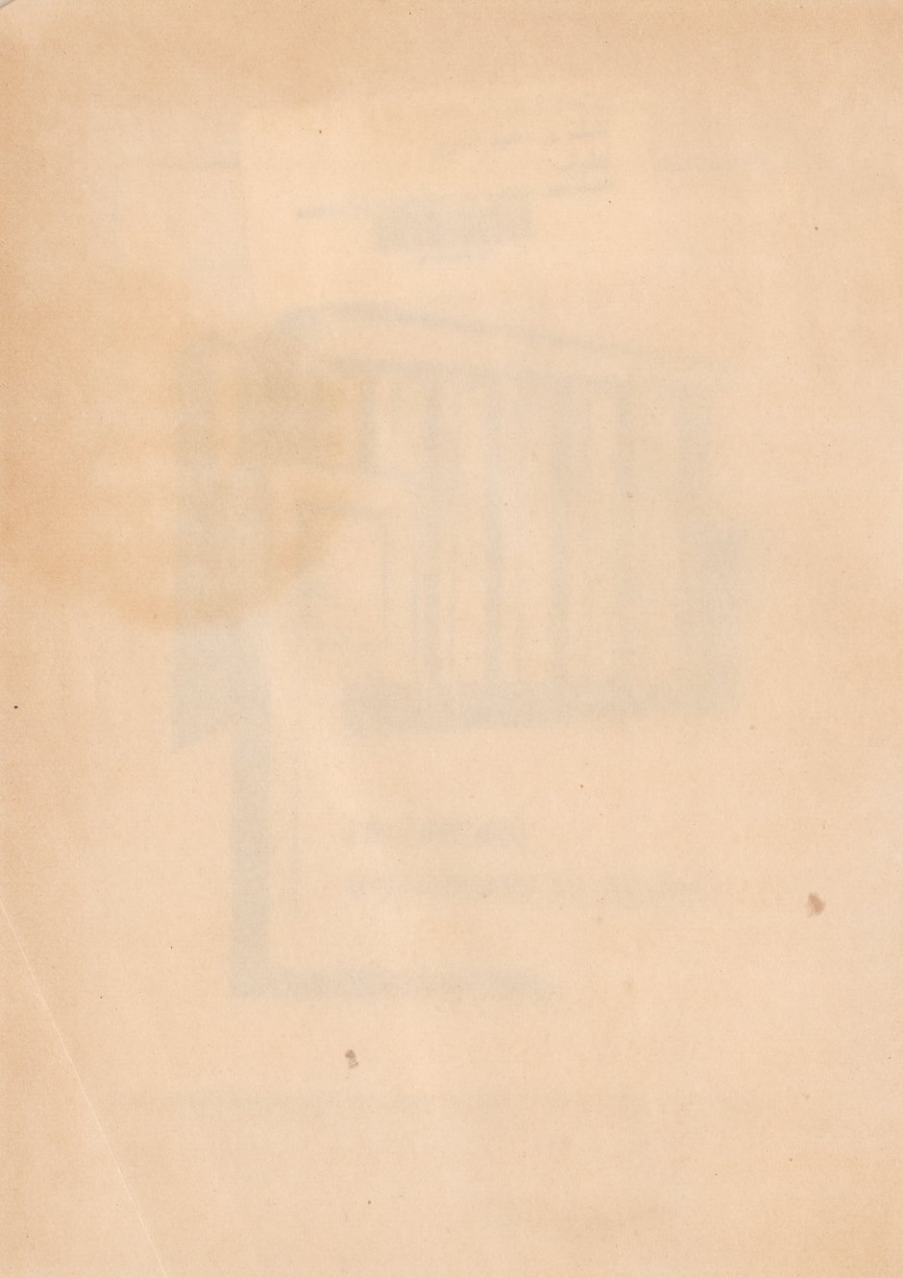
ومثل هذا ما قيل من أن فرنسياً أقبل على صاحبه الروسى ، وجعل يحدثه عن شدة البرد فى بلاده ، قال : خرجت فى يوم من أيام الشتاء إلى إحدى الغابات ، فاعترضنى أسد ، فأمرعته وتسلفت شجرة باسقة ، وجلست على رأسها ، وكان خنجرى قد سقط عند أصلها ، وظل الأسد رابضاً إلى جذع الشجرة فى ارتصادى وترقب اقتراسى . ومن شدة الخوف قطر منى ماء ما لبث أن انعقد ، من عظم البرد ، قضيباً ثلجياً ، فتناولت به الخنجر وتدلّيت فشقت به صدر الأسد !

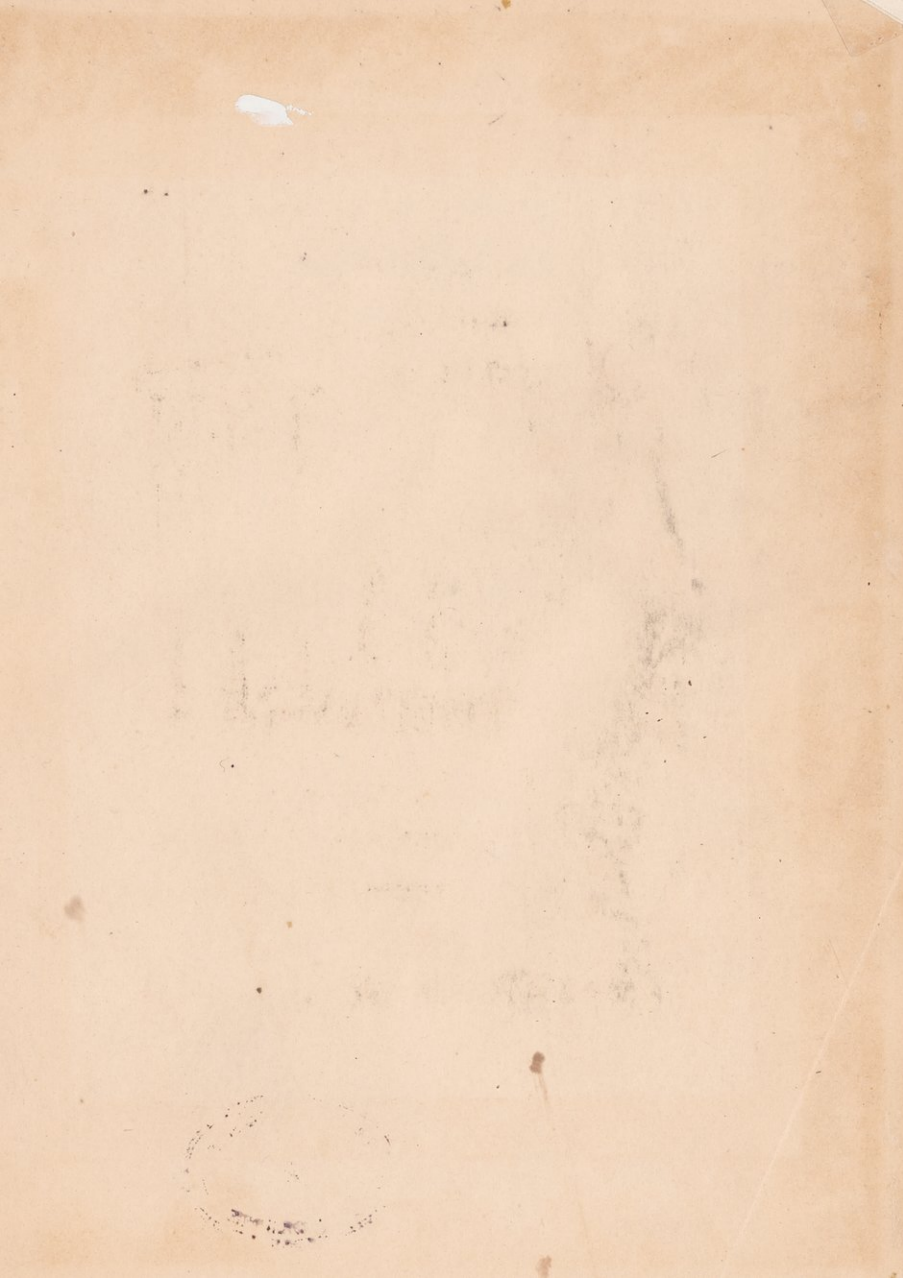
فقال له صاحبه الروسى : وما ذاك ؟ إن هذا ما يكون عندنا فى وقدة القيظ ! أما إذا كان الشتاء وخرج الناس فى الصباح الباكر

(١) النفاج (بتشديد الفاء) : المدعى المفتخر بما ليس عنده ، وهو من يعبر عنه العامة فى مصر بالمعار .

لطياتهم ، أقبل بعضهم على بعض بالتحيات المعتادة . ولكن الكلام
 ينعقد على شفاههم فلا يهجس منه حرف واحد ، فإذا طلعت الشمس
 وخفت حدة القر ، رأيت آفاق الجو كله تتصايح بـ « صباح الخير —
 أسعد الله صباحك — أرجو أن تكون بعافية — صحتي جيدة وأنت —
 إلى أين ؟ — الحمد لله — صاحبك التوفيق الخ . . . »

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن عباقرة الفن الحديث
 ممن أدركناهم ، ومن لا يزالون قائمين في الحياة ، وأعرض لخواص
 فهم وأشهر ما جادوا فيه من الطرف ، لولا أن الكلام قد طال .
 فإذا كانت في العمر فسحة فلعلنا موفقون إلى هذا في إبريل المقبل
 إن شاء الله .





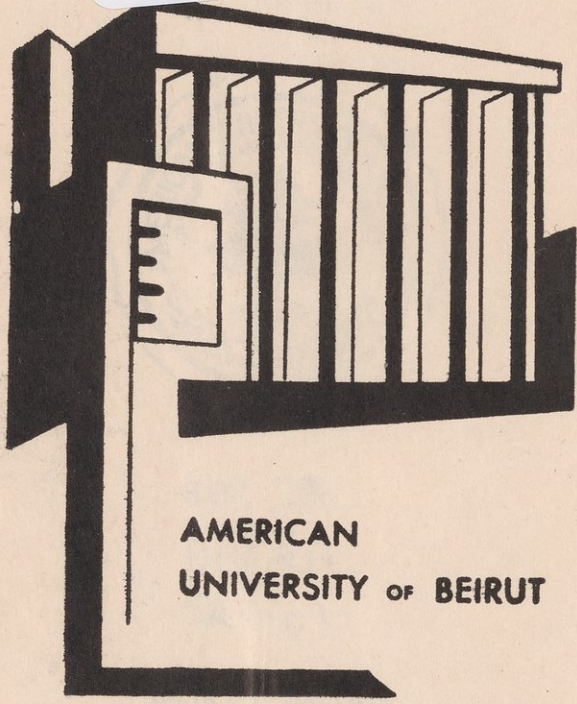
892.745630.1

البشري، عبد العزيز
قطوف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038270



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT



